محمد عبد المنعم خفاجي

تفسير القرآن الحكيم

أحدث التفاسير ، وأجمعها للفكرة الإسلامية ،
ولفهم العصر الحاضر لكتاب الله

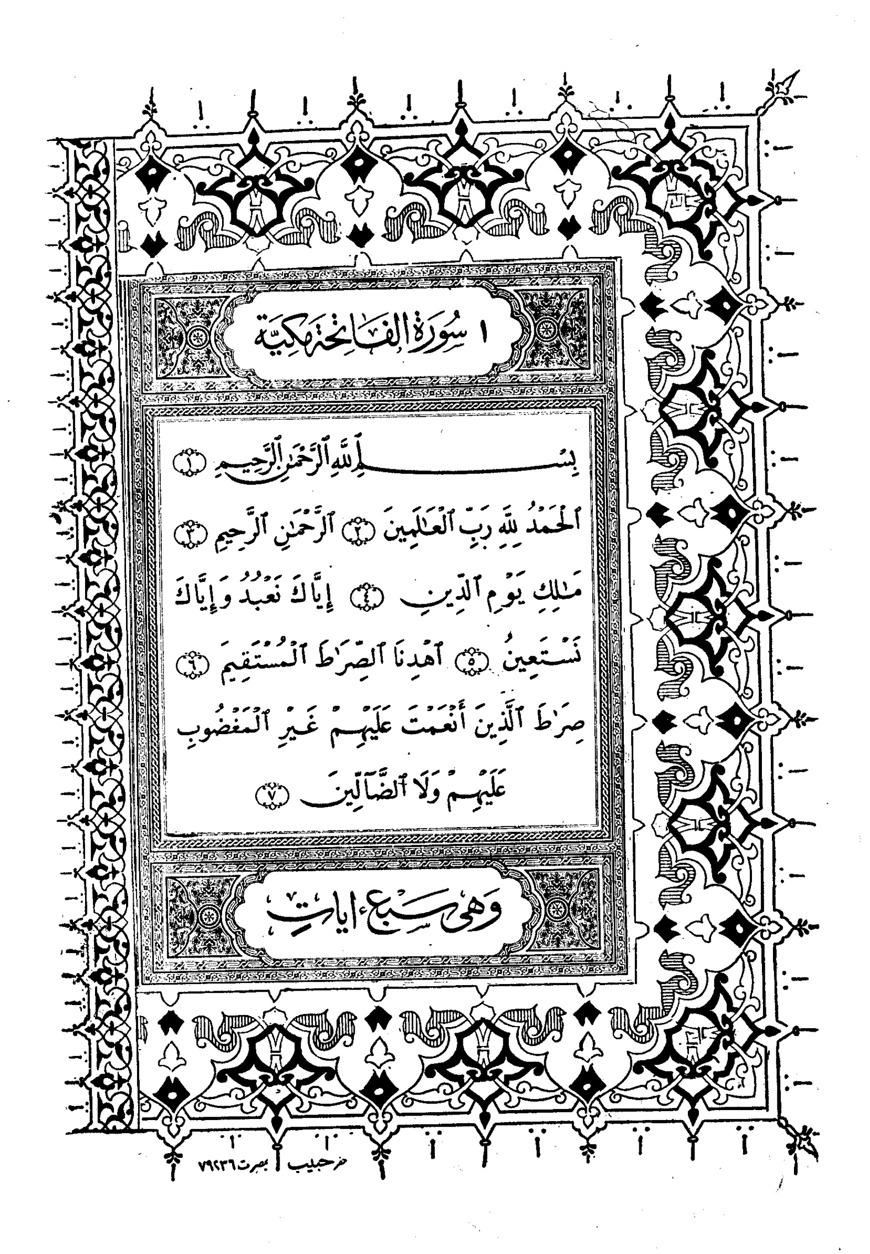
(١٠)

تفسير سورة الأنفال

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح ــ تليفون : ٥٠٨٥٢



١ سورة الفاتحة مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾
مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾
صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

وهي سبع آيات

حفر حبيب | بصرت ٧٩٢٣٦

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، المبعوث رحمة للعالمين ، محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .. وبعد : فهذا هو الجزء العاشر من تفسيرى لكتاب الله ، الذى سميته باسم « تفسير القرآن الحكيم » ؛ والذى كان ظهوره معجزة كبيرة ، وتوفيقا إلهيا ، ورعاية جليلة من الله ؛ وقد سرت فى كتابة هذا التفسير بإلهام من الله ، وعون سماوى كريم من الذات المقدسة العليا ، وكان البدء فى تأليفه استجابة لنداء خفى ، وتلبية لباعث إلهى .. وسرت فى طبعه بمدد من الله ، وفيض كريم من جنابه . . وعلى الرغم من العوائق والحوائل والصوارف والموانع ، كان الله معى فى كل لحظة ، وكان تأييده الكريم يتخطى بى الحواجز والعقبات ، وكان عونه العظيم يؤيد خطاى ، ويوفق مسعاى ، ويثبت قدماى ، فى هذه السبيل المحمودة الكريمة .. وقد صدرت هذه الأجزاء العشرة فى أمد قصير ، والمأمول بعون الله أن تصدر باقى أجزاء هذا التفسير فى زمن يسير ، وأن تتم هذه الموسوعة الإسلامية بعنايته كما أتمنى وأرجو من الله . . وليس صدور مثل هذا التفسير بالأمر الهين اليسير ، فكتابته تأخذ جهداً كبيرا ، وتقتضى عملا كثيرا ؛ ونشره كذلك يتطلب مالا وفيرا ؛ وليست كل هذه الأعباء مما يسهل تذليلها ، إلا بعون الله ورعايته ..

ولهذا التفسير ميزات كثيرة يكفى هنا أن أشير إلى بعضها :

١ ــ فأولى ميزاته أنه يربط الفكرة بالفكرة ، والمعنى بالمعنى ، والغرض بالغرض ، والموضوع بالموضوع ، دون تجزىء لمعانى القرآن الكريم ، أو تفكيك لوحدته ... ونحن لا نتناول تفسير كتاب الله آية فآية ، وإنما نتناوله موضوعا فموضوعا ، مع تحديد لأغراض القرآن الكريم ، وإظهار لوحدة السور القرآنية ، ولأفكارها ومعانيها المتصلة المتلاحمة ..

٢ — وثانى ميزاته أن أسلوبه عصرى يستطيع كل إنسان من كل طبقة أن يفهمه ، وأن يلم بمعانى القرآن الكريم دون غموض أو تعقيد أو التواء .. ومن ثم فقد حذفنا من هذا التفسير كل الاصطلاحات ليكون أقرب إلى الفهم ، وأسهل على القارىء ..

٣ — وثالث ميزاته أنه كتب ليكون مجاريا للثقافات الحديثة ومتمشيا مع مناهجها ، دون بعد عنها ، أو مخاصمة لها ، ومن ثم فقد عرضنا لكثير من الأفكار التاريخية والاجتماعية والفكرية والروحية أثناء عرضنا لهذا التفسير ، نشرح بها كتاب الله ، ونؤيد بها معجزته الجليلة الباهرة ..

٤ — ورابع ميزاته أنه موسوعة إسلامية كبرى تحتوى على كثير من الثقافات الإسلامية القديمة والحديثة ، وتحتوى على شرح جديد لكتاب الله ، وتنتظم الكثير من وجوه الدفاع عن دين الله وكتابه الحكيم .

٥ — وخامس ميزاته أنه كتب وفق منهج علمى مرسوم ، يبدو فى أجزاء هذا التفسير واضحا جليا ، ويستطيع القارى أن يتبينه بسهولة ، كما يستطيع أن يكشف عن أصول هذا المنهج الذى سرنا عليه دون عناء أو صعوبة .

٦ — وسادس ميزاته عرضه لجميع الآراء والمذاهب والأفكار ومناقشتها والموازنة بينها فى كل موضوع ، وكل مناسبة .

٧ — وسابع ميزاته تحقيقه للمعجزات الإلهية التى ظهرت على أيدى الرسل والنبيين تحقيقا علميا واضحا قريبا إلى العقل والمنطق وإلى الذوق والقلب أيضا .

٨ — وثامن ميزات هذا التفسير ما احتوى عليه من دراسات لسور القرآن الكريم ، وبيان لمراميها ، وتحديد لأفكارها ومعانيها وموضوعاتها .. إلى ما احتوى عليه من تبيين للأصول العامة التى اشتمل عليها كل ربع من سور القرآن الحكيم ..

٩ — وتاسع ميزاته العناية بالتحقيق التاريخى وبالنقد العلمى ، فى هذا التفسير عناية كبيرة ..

١٠ — وعاشر ميزاته ما اشتمل عليه من دراسات جديدة عن القرآن الكريم ومعجزته الخالدة ، مما صدر به الجزء الأول من تفسيرنا ، ومما جاء فى أثناء باقى أجزائه .

١١ — والحادى عشر من ميزات هذا التفسير : إلمامه بكل ما كتب المفسرون القدامى والمعاصرون ، وبكل مادونوه فى تفاسيرهم . .

١٢ — والثانى عشر من ميزات هذا التفسير هو ما انفردنا به نحن انفرادا واضحا من تقسيم جديد لآيات القرآن الكريم ، بحسب المعانى والأفكار والموضوعات والأغراض التى اشتملت عليها . .

إلى غير ذلك من ميزات هذا التفسير ، مما لم نذكره ، ومما ندعه إلى رأى القارىء المنصف الكريم .

ونحن فى مطلع الجزء العاشر من هذا التفسير ، نضرع إلى الله عز وجل أن يوفق المسعى ، ويؤيد الخطى ، ويحقق الأمل ، ويقرب الهدف ؛ وأن يعين على إكمال هذا التفسير بفضله وكرمه . . إنه على ما يشاء قدير ، وهو ولى العاملين ، ورعايته تحيط بالمخلصين المجاهدين من عباده ، والسلام على من اتبع الهدى ، وما توفيقى إلا بالله ؟

المؤلف

(٨)

ســـورة الأنفال

تمهيد

سورة الأنفال من السور المدنية ، وهى ثامن سورة فى المصحف الشريف ، وقد نزلت بعد سورة البقرة ، وجملة آياتها ٧٥ آية ، وفيها سبع آيات تعد مكية ، وهى الآيات ٣٠ — ٣٦ ، وسورة الأنفال تتحدث عن غنائم الحروب وكيفية توزيعها ، وعن غزوة بدر وأحداثها الكبرى ، وتدعو إلى الايمان بالله وبرسالة محمد ، وتتهكم بالشرك والمشركين ، وفيها إذن من الله عز وجل للمسلمين بالقتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، وتتحدث السورة عن الشرك والمشركين وصنيع مشركى مكة فى بدر . كما تتحدث عن المنافقين وموقفهم إزاء الأحداث التى صاحبت الغزوة الكبرى ـ غزوة بدر ـ وتحذر السورة الكافرين من سوء المصير ، وتدعو إلى الاستعداد العسكرى لمواجهة أعداء الإسلام والإنسانية كما تدعو إلى الحرص على السلام ، وتنظم شئون الأسرى وفدائهم ، وتنوه بصنيع المهاجرين والأنصار فى نصرة الرسول ودعوة الإسلام . . إلى غير ذلك مما تناولته من موضوعات .

وكان نزول سورة الأنفال بعد غزوة بدر التى حدثت فى السنة الثانية من الهجرة ، وسميت بهذا الاسم لما تناولته من أحكام الأنفال وهى الغنائم وطرق توزيعها .. وهو على أى حال اسم عجيب وضع علما لهذه السورة ، وكونه عجيبا لعدم الإلف لا غير ، إذ لم يألف العربى البليغ أن يضع اسما مثل هذا الإسم علما على قطعة من البلاغة ، وفصول من النثر الفنى .. وهذا هو شأن أسماء سور القرآن الكريم .. يوضع لها اسم غريب للدلالة عليها ولتعريفها به ، كالأعراف وهو اللقب الذى جعل علما على السورة السابعة ، وكالأنعام والمائدة والنساء وآل عمران والبقرة .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى شأن هذه السورة فيما رواه عنه سعيد بن جبير : « تلك سورة بدر » ، يريد أنها نزلت فى هذا الحادث التاريخى الكبير ..

وذهب زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وعطاء بن أبى رباح ، وجابر ابن زيد وعكرمة . والحسن إلى أنها كلها مدنية ، فليس فيها آية واحدة مكية .

وروى البزار عن ابن عباس أن آية « يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » نزلت عقب إسلام عمر رضى الله عنه ، فهى مكية . وقد صحح هذا الاستثناء ابن العربى وآخرون ، قائلين إن مناسبتها لآيات التحريض على القتال هى التى اقتضت وضعها فى مكانها من هذه السورة المدنية . . واستثنى مقاتل آية « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » ، لأن موضوعها هو ائتمار قريش بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فى الليلة التى خرج فيها من مكة مهاجراً إلى المدينة . . غير أن هذا الاستثناء يبدو استنباطا من المعنى ، وهو استنباط يرده ما صح عن ابن عباس : من أن هذه الآية بعينها نزلت فى المدينة ، وما تقتضيه المناسبة وتستحسنه : من تذكير الرسول صلى الله عليه وسلم بحاله مع قومه ، عند أول نصر له عليهم . . وزاد بعضهم الآيات الخمس التالية لهذه الآية (٣١ — ٣٥) ولكن هذا أيضا يبدو استنباطا من المعنى ، وهو استثناء يعوزه الدليل فى رأينا ، فإن وصف هذه الايات لحال قريش قبل الهجرة لا يعنى نزولها حينذاك ، وبخاصة أن هزيمة قريش فى بدر مناسبة حسنة لتذكير الرسول صلى الله عليه وسلم بما كانوا عليه : من مكابرة فى الحق ، ولجاج فى الباطل (١) .

وتتلخص أحداث غزوة بدر الكبرى التى عرضت لها هذه السورة فى أن المهاجرين كان الكثير منهم قد فر بدينه من فتنة قريش وترك لهم ما له ، فغنمت قريش أموالا عظيمة ، ولم يبال المسلمون بما فقدوا ، فقد أمنوا بعد ذلك على حياتهم وحريتهم فى تعبدهم ، ولكنهم حقدوا على قريش وتربصوا بهم ريب الدهر حتى علموا أن قريشا قد خرجت بتجارتها إلى الشام يقودهم أبوسفيان بن حرب ، وحمل الخبر إلى رسول الله فقال لهم : هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله يجعلها من نصيبكم عوضا عن بعض ما سلبوه من أموالكم التى تركتموها مكرهين يوم هجرتكم .. ولما بلغ أبو سفيان رئيس العير بركبه أرض الحجاز جعل يتحسس الأخبار خوفا على أموال قريش التى فى يديه فبلغه أن محمدا قد حشد أصحابه لملاك العير لعلهم يغنمونها منه ، فاستأجر أبوسفيان رجلا أسمه ضمضم بن عمرو فبعثه إلى مكة ليستنفر قريشا للدفاع عن عيرهم ، لأن محمدا قد تعرض لها ، فخرج ضمضم مسرعا

---

(١) ص ٩ سورة الأنفال — تأليف مصطفى أبو زيد .

إلى مكة .. وكان غالب أهل رسول الله بمكة كعمه العباس وعمته عاتكة بنت عبد المطلب وغيرهما ممن يكتمون إسلامهم ، فخرجت عاتكة بنت عبد المطلب إلى أخيها العباس وخلت به وقالت: والله يا أخى إنى رأيت الليلة رؤيا ضاقت بها نفسى وأخشى على قومك أن ينزل بهم شر منها فلا تحدث بها أحدا ، قال: وماذا رأيت ؟ قالت :رأيت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته : يا أهل بدر اخرجوا لمصارعكم فى ثلاثة أيام ورأيت الناس قد اجتمعوا به فدخل المسجد والناس يتبعونه فوقف به بعيره على ظهر الكعبة ثم صرخ الصرخة الأولى ثم وقف به بعيره على جبل أبى قبيس، فصرخ الصرخة الأولى ثم أخذ صخرة فرماها فجعلت تهوى حتى بلغت سفح الجبل فتفتتت فما بقى بيت من بيوت مكة إلا دخلته فلقة منها .. فقال لها العباس إنها لرؤيا هالتنى فاكتميها عن الناس .. وخرج العباس فرأى الوليد بن عتبة وكان صديقا له فذكرها له وسأله أن يكتمها عن غيره ، فذكرها الوليد لأبيه عتبة ففشى الحديث بمكة حتى تحدثت به قريش فى أنديتها وخرج العباس يطوف بالبيت فلقيه أبو جهل بن هشام فقال له: يا بنى عبد المطلب أما رضيتم أن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ؟ وهذه أختك عاتكة تزعم ما تزعم فسنتربص بكم تلك الأيام الثلاثة فإن لم يكن شىء من ذلك نكتب عليكم كتابا أنكم أكذب أهل بيت فى العرب . وشاع حديث أبى جهل وما رمى به أهل البيت من سبه بيت بنى هاشم فغضبوا منه ، ومضى على حديث الرؤيا تلك الأيام الثلاثة فخرج العباس يطوف بالكعبة فرأى أبا جهل خارجا يشتد فى مشيته فقد سمع نداء ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادى واقفا على بعيره ـ وكان قد قطع أنف البعير وحول رحله وشق قميصه وهو يقول : يا معشر قريش أغيثوا أموالكم التى مع أبى سفيان فقد عرض لها محمد فى أصحابه وأخشى ألا تدركوها .

فتجهز الناس مسرعين، وتقاسمت قريش عبء الخروج، فكان بعضهم يتجهز للقتال بنفسه أو يبعث بدله رجلا بسلاحه ونفقته ، وخرجت قريش فلم يتخلف من أشرافها أحد ورأى أمية بن خلف أن يتخلف وكان شيخا جليلا ثقيلا فى بدنه ، فحضر إليه عقبة بن أبى معيط بمجمرة فيها نار حتى وضعها بين يديه وقال له : تجمر يا أبا على ، فإنما أنت من النساء فخجل منه وقام فتجهز وخرج مع الناس .. وخرج رسول الله عليه السلام لاثنتى عشرة ليلة خلت من رمضان من السنة الثانية للهجرة وكان أمامه رايتان سوداوان إحداهما يحملها على بن أبى طالب والأخرى يحملها

سعد بن معاذ الأنصاري ومعهم سبعون من الإبل يتعاقبون على ركوبها لكل جماعة ناقة يركبها الرجل فى دوره .. فسلك جيش النبي طريقه إلى مكة ، فلما توسط الطريق حمل إليه خبر خروج قريش للدفاع عن أموالهم ، فاستشار الناس وأخبرهم بمسير قريش بحافلهم ، فتكلم أبو بكر فأجاد وأحسن وحبذ القتال وبشر بالنصر عليهم ، ثم قام عمر بن الخطاب فتكلم فأجاد وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يارسول الله امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى آخر المدى لجالدنا معك حتى تبلغ ما تريد ، فدعا له رسول الله وقال له خيرا . وعاد النبي فقال : اشيروا على أيها الناس ، يريد بذلك الأنصار ، لأن العشرة من المقاتلين منهم ولأنه كان يخشى ألا ترى الأنصار مؤازرته فى القتال إلا إذا دهمه عدو بالمدينة ، فقال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ، قال : أجل ، قال : لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على أن نطيعك ونستمع إلى أمرك ، فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، فسر بنا على بركة الله .. فسر النبي عليه السلام بقول سعد ونشطه قوله وقال للناس : سيروا وأبشروا ، فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم . وبعث النبي على بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه إلى آبار بدر التى يستقى منها الناس وذلك ليتعرفوا الأخبار فظفروا برجلين من قريش يسوقان إبلا تحمل روايا الماء فحملوهما إلى جيش المسلمين وسألوهما وكان النبي قائما يصلى فقال الرجلان : نحن سقاة قريش خرجنا نحمل الماء ، فلم يصدقهما الناس وظنوا أنهما لأبى سفيان فضربوهما ، فلما أوجعهما الضرب قالا : نحن لأبى سفيان فتركوهما . وختم النبي صلاته وقال : إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما ، لقد صدقا والله ، إنهما لقريش ، ثم سألهما عن مقر قريش فقالا : هم وراء هذا الكثيب ، فسألهما عن عددهم ، فقالا : هم كثيرون ، فقال : كم ينحرون من الإبل كل يوم ؟ فقالا : يوما يذبحون تسعا ويوما عشرا ، فقال النبي عليه السلام : القوم بين التسعمائة والألف ، ثم سألهما عمن حضر من أشراف قريش فذكروا له كبارهم ، فقال النبي لأصحابه : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها .

ورأى أبو سفيان أعلام قريش قريبا منه فاطمأن ، واستقر فى خاطره أنه قد نجا بالعير من محمد ، فأرسل إلى قريش أن عيركم وأموالكم قد نجاها الله فارجعوا إلى مكة، فقال أبوجهل: والله لا نرجع حتى نرد ساحة بدر فنقيم عليها ثلاثة أيام ، فننحر ذبائحنا ونطعم الطعام ونشرب الخمر وتعزف علينا الجوارى وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، وكان بدر موسما من مواسم العرب تجتمع به سوق عظيمة كل عام . ونزل النبى بجيشه على أول بئر من آبار بدر ، فخاطبه من أصحابه الحباب بن المنذر قال : يا رسول الله أرأيت هذا المنزل قد اختاره الله لك ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخرعنه أم هو رأى اقتضته ضرورة الحرب؟ فقال النبى: بل هو الرأى والحرب والمكيدة، فقال : يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتى أقرب ماء من عدونا فننزله ونعطل كل الآبار التى وراءه ، ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء، ثم نقاتل العدو ولدينا الماء لنشرب وليس لديهم ماء يشربونه ، فقال له النبى: لقد أشرت بالرأى ، وفعل الناس ما أشار به الحباب بن المنذر ، وقال سعد بن معاذ سيد الأوس : يا نبى الله ألا نبنى لك عريشا تكون فيه وترابط عندك الرواحل ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله بنصره كان ذلك ما أحببناه وإن كانت الأخرى جلست على الرواحل فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حبا منهم لك ، ولو ظنوا أنك ستحارب قريشا ما تخلفوا عنك ، فأثنى عليه رسول الله ودعا له بخير ، وبنى لرسول الله عريش فكان فيه .. وهلت قريش من وراء الكثيب فأقبلت على الوادى فرآها النبى عليه السلام فقال : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى اللهم أهلكهم بالغداة ، ورأى النبى عتبة بن ربيعة فى قريش على أحمر فقال إن يكن فى أحد من القوم خير فمند صاحب الجمل الأحمر ، أن يطيعوه يرشدوا . فلما استقرت قريش على مواقفها بعثوا فارساً منهم يحزر : كم يبلغ جيش النبى؟ فجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم فقال: لعلهم ثلثمائة رجل أو يزيدون قليلا أو ينقصون، ولكن دعونى حتى أنظر إن كان لهم كمين أو مدد ، فضرب فى الوادى حتى أبعد فلم ير شيئا فرجع إليهم فقال: ما وجدت شيئا ؟ ولكنى يا معشر قريش رأيت البلايا تحمل المنايا .. إن نواضح يثرب تحمل إليكم الموت الناقع ، إنهم قوم لا ملجأ لهم إلا سيوفهم فإذا قتلوا منكم بقدر عددهم فلا خير فى العيش بعد ذلك . . فتكلم عتبة ابن ربيعة صاحب الجمل الأحمر ، وقد خاطبه سيد من سادات قريش بأن يسعى فى

منع الحرب وحقن الدماء ، فقام في الناس خطيبا وقال : يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون شيئا حين تلقون محمدا وأصحابه ، فلئن انتصرتم عليه فلا يزال الرجل منكم ينظر كارها إلى وجه الرجل الآخر وقد قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم وإن كان غير ذلك لم يكن بينكم وبينه ما يسوء ، فأفسد هذا التدبير أبو جهل ونفخ في الناس أبواق الشر وسفه ذلك الرأي الذي دعاهم إليه عتبة ، وعندئذ قامت الحرب فخرج من صفوف قريش رجل اسمه الأسود بن عبد الأسد المخزومي وكان رجلا عنيفا سيء الخلق فقال : أعاهد الله أن أشرب من حوضهم أو أهدمه أو أموت دونه ، فلما خرج .. خرج له حمزة عم النبي وضربه بسيفه فأطار قدمه بنصف ساقه قبل أن يصل إلى الحوض فوقع الأسود على ظهره تشخب دماؤه ، ولكنه حبا إلى الحوض وفاء بقسمه فلم يمهله حمزة حتى ضربه فقتله في الحوض . ثم خرج من بعده أشراف قريش وكانوا ثلاثة : عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة بن ربيعة وولده الوليد ابن عتبه ، ودعا عتبة إلى المبارزة ، فخرج إليه فتيان من الأنصار ثلاثة فقالوا لهم : من أنتم ؟ فقالوا : رهط من الأنصار ، فقال لهم عتبة : أنتم أكفاء كرام إنما نريد قومنا ، فقال النبي : قم يا عبيدة بن الحارث وقم يا حمزة وقم يا علي ، فلما تقدموا إليهم قالوا لهم : من أنتم ؟ فذكروا أسماءهم ، فقالوا لهم : نعم أكفاء كرام ، فبارز عبيدة ـ وكان أكبر إخوانه سنا ـ عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة ، وبارز علي الوليد بن عتبة . فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله واختلفت بين عبيدة وعتبة ضربتان قاتلتان فسقطا وكر حمزة وعلي على عتبة فأجهزا عليه واحتملا عبيدة إلى صفوف المسلمين . ووقف النبي عليه السلام يعدل صفوف أصحابه فرأى رجلا بارزا عن الصف اسمه سواد فوكزه بطرف السهم وقال : استو يا سواد فقال له : لقد أوجعتني يا رسول الله فدعني أقتص لنفسي منك ، فكشف النبي عن بطنه وقال له : اضرب يا سواد فاعتنقه سواد فقبل بطنه فقال له النبي : ما حملك على هذا ؟ فقال : إنها الحرب ثم الموت يا رسول الله ، وقد أردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك فدعا له النبي بخير . ورجع النبي عليه السلام إلى العريش فدخله ومعه أبو بكر دون غيره ، فجعل يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول : اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد ، وأبو بكر يقول : يا نبي الله بعض مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك . . وخرج النبي بعد ذلك إلى الناس فحرضهم وقال : والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا

مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة فسمعها رجل أسمه عمير بن الحام وكان بيده تمرات يأكلها فقال : بخ بخ ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ، ثم قذف التمرات من يده وأخذ السيف فقاتل القوم حتى قتل . . وحرض النبي أصحابه وقال : شدوا عليهم : فكانت هزيمة قريش المنكرة بعد قتل أبطالهم وصناديدهم وأسر أشرافهم، وعاد رسول الله إلى العريش وكان سعد بن معاذ قائما بباب العريش يحرس رسول الله فى نفر من الأنصار ، وظهر الكدر فى وجه سعد بن معاذ حين كثر الأسر فى أشراف قريش فقال له النبي : لعله قد ساءك ما يفعل إخوانك فقال: نعم والله يارسول الله لقد كانت أول وقعة أوقعها الله بالمشركين من قريش ، فكان الإثخان فى القتل فيهم أحب إلى من استبقاء الرجال ، فذلك يرهب أعداء الدين . وقال النبي لأصحابه : إنى قد عرفت رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجتهم قريش كرها لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقى منكم أحدا من بنى هاشم فلا يقتله ومن لقى أبا البخترى بن هشام فلا يقتله ، ومن لقى العباس عم رسول الله فلا يقتله فإنه خرج مكرها ، وإنما نهى النبي عليه السلام عن قتل أبى البخترى لأنه كان أبعد الناس عن إيذاء النبي وهو بمكة وما كان يبلغه عنه شىء يكره . وكان أحد الأنصار المسمى المجذر يقاتل ، فعثر بأبى البخترى على ناقة وله زميل اسمه جناده ، فقال الأنصارى : إن رسول الله قد نهانا عن قتلك يا أبا البخترى فقال : وماذا يكون نصيب زميلى هذا فقال له : ما نهانا النبي إلا عنك وحدك ، فقال أبو البخترى إذن أموت أنا وزميلى معا حتى لا تتحدث عنى نساء مكة أنى تركت زميلى حرصا على حياتى ، فاقتتل أبو البخترى والمجذر فقتله المجذر ثم بادر بالخبر إلى النبي فقال له : والذى بعثك بالحق لقد حاولت أن آسره فآتيك به حيا فأبى إلا أن يقاتلنى فقتلته . ويحدثنا الصحابى الجليل عبد الرحمن بن عوف أن أمية بن خلف كان صديقا له منذ القدم وكان عبد الرحمن يحمل دروعا قد سلبها ممن صرعهم فى القتال ، فالتقى بأمية بن خلف وابنه على بن أمية فناداه أمية وقال له : هل لك أن أكون أنا وولدى أسيرين لك فأنا خير لك من هذه الأدرع ، فقلت له: رضيت وطرحت الأدرع أرضا وأخذت بيده ويد ابنه وكان يقول: سأفدى نفسى بإبل كثيرة ، وسألنى عن رجل من المسلمين فى صدره ريشة نعامة فقلت : ذاك حمزة بن عبد المطلب فقال : لقد فعل بنا الأفاعيل ، وقال عبد الرحمن : إنى كنت أقود أمية وولده فرآه بلال بن رباح معى وكان أمية يعذب بلالا بمكة ، فيخرجه إلى رمضائها إذا حميت فيسحبه على ظهره ثم يأمر بالصخرة

العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول : لا تزال هكذا حتى تفارق دين محمد ، فيقول بلال : أحد أحد . فلما رآه بلال معى قال : رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا ، فقلت له: يا بلال هما أسيران بيدى فصاح بلال لا نجوت إن نجا، فقلت إلا تسمع منى يا بن السوداء، فصرخ بأعلى صوته : يا أنصار الله رأس الكفر أمية بن خلف ، فأحاطوا بنا إحاطة السوار وضربوهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما ، وسار عبد الرحمن بن عوف يقول: رحم الله بلالا فبسببه ضيعت أدراعى وفجعنى فى أسيرى. وقتل أبو جهل وقد قتله معاذ بن عمرو الأنصارى .

وجمع رسول الله عليه السلام القتلى من قريش فأتى بهم فى بئر ثم وقف عليهم فقال : يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا فأنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا، فقال له أصحابه : يا رسول الله أتكلم الموتى؟ فقال لهم لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق وما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى . ثم قال قبل منصرفه : يا أهل القليب بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس .

وقد ورد ذكر غزوة بدر فى سورة الأنفال وآل عمران . . وعندما نتصفح أحداث هذه المعركة الكبرى نخرج بهذه العبر والنتائج :

١ — أن المسلمين فى وقعة بدر كانوا قليلين وناقصى العتاد ، بحيث كانوا لا يأملون الانتصار على عدوهم فى كثرة عدده ، وقد عبر الله عن حالتهم ذلك اليوم بأنهم كانوا (أذلة) ، والإنسان لا يشعر بالذل إلا فى حالة العجز واليأس . فإذا لم يكونوا يشعرون بأنهم كانوا ذلك اليوم أذلة ، ساء ظنهم فى الوحى ودخلهم الشك فى مصدره .

٢ — أنهم كانوا ، وهم رجال حرب وجلاد ، لا يتوقعون النصر يوم بدر إلا إذا جاءهم من طريق الإعجاز ، ويدل عليه قوله تعالى : « إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » . ولو كان الأمر ذلك اليوم عاديا لا يتطلب العون الإلهى المباشر ، لكان فى ذكر المدد الملائكى هنا ، توهين للدعوة الإسلامية عند أهلها وعند خصومهم .

٣ — أنهم انتصروا على أعدائهم نصرا مؤزرا ، وهم يعتقدون أنهم منحوه منحا ، ولم يستحقوه بقوتهم استحقاقا ، بدليل قوله تعالى : « فلم تقتلوهم ولكن الله

قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » . ذلك أن رجالا منهم عادوا من المعركة يذكرون أسماء من قتلوهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم عند بدء المعركة تناول حثوة من الحصباء ورمى المشركين بها قائلا : (شاهت الوجوه) ، فردعهم الله عن إسناد هذا النصر وما اقتضاه إلى أنفسهم ، وأمرهم بإسناده إلى الله وحده . ومراده أن يعرفوا أنهم لو كانوا تركوا وشأنهم بدون تأييد سماوى ، لما تمكنوا من قتلهم والتغلب على من بقى منهم . وهذا إذا لم يكن صحيحا فى تقدير رجال الحرب المحنكين ، وناهيك بحرب الجاهلية ، لكان تأثيره فى قلوب سامعيه عكسيا ، أى أنه كان يصد عن الإيمان بصحة الإسلام ، ويوقر فى صدر الناس أنه يعتمد على الإيهام ، وتجسيم الحوادث ، لكسب الأعوان والأنصار لأغراض دنيوية بحتة . وإذا كان الأمر على ما رأيت ، فإن هذه الموقعة جديرة بأن يكون لها من الأثر فى تثبيت إيمان المؤمنين ، وتوثيق ارتباطهم بالإسلام ، ما عزى إليها . وقد أشاد المسلمون بذكرها ، ونوهوا بشأنها ، ما لم يفعلوه بجميع ما تلاها من الوقائع ، حتى إنهم دونوا أسماء من شهدها من المسلمين الأولين ، وذكرها الشعراء فى أشعارهم .

وجانب الإعجاز فى هذه الموقعة يتجلى فى كثير من أحداثها . ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما ندب أصحابه لملاقاة قافلة التجارة التى لقريش ، لم يأخذوا أهبتهم لقتال ، ولكن لمنازلة عصابة من الحراس . والتأهب لمثل هذا الشأن غير التأهب لملاقاة جيش محارب . فإذا كان منازلة العصابة لا تقتضى أكثر من الهجوم عليها بالأسلحة الخفيفة واغتصاب ما بيدها ، ثم تشريدها وأسر من يقع فى اليد منها ، فإن مكافحة جيش يستدعى التذرع له بجميع ما للحروب من أهب آلية ، كالأسلحة والتروس والدروع ، وأدوات للقطع والحفر والتحطيم ، وأهب للتموين والزحف والحصار والمواصلات ؛ وقد ظهر هذا الفرق على أشد حالاته عندما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الله قد وعده إحدى الطائفتين ، إما التجارة وإما جيش قريش ، فاختاروا أن يتحقق وعد الله فى التجارة ، محتجين بأنهم لم يتخذوا للحرب عدتها ، ولم يقل لهم النبي حين ندبهم أنهم قد يدعون لملاقاة جيش مقاتل . فلما أفلتت التجارة تعين عليهم أن ينازلوا الجيش المقاتل ، وكيف يتأتى ذلك وهم مع قلة عددهم لم يتخذوا للحرب عدتها ؟ وقد أدى ذلك إلى موقف من التردد أدركه النبي صلى الله عليه وسلم وعمل على ملافاته ، وهذا الإقدام لا يكون مع وجود هذا

العامل الخطر من التردد فى جيش محارب إلا إذا كانت ثقة قائده بالنصر مطلقة ، وكيف لا تكون كذلك وهو رسول وقد وعده الله إحدى الطائفتين ، وقد أفلتت إحداهما فلا بد أن يكون مصداق وعد الله الأخرى . فإذا لم يكن قائد هذه الفصيلة من المحاربين نبيا ، واثقا كل الثقة من صدق ما ينزل عليه من الوحى ، لما أقدم على الزج بمن تحت إمرته فى الحرب ، وهم على ما هم عليه من الاختلاف والتهيب ، لأنه كان يتحقق أن هزيمتهم لا بد منها لأسباب فنية وجيهة :

١ — تفوق العدو فى العدد بحيث كان على نسبة ٣ على ١ ، وهذا يعتبر فى عرف الحربيين تفوقا ساحقا ، لا يكون فيه للقلة أمل فى الظفر إلا إذا كان لديها من العتاد ما ليس عند الأخرى ، أو من المناعة الطبيعية ما ليس مثله لخصيمتها .

٢ — تفوق العدو فى الأسلحة ، وهى العوامل الفاصلة فى الحروب كما لا يخفى .

٣ — تحقق الجيش المحارب من تفوق عدوه عليه فى عوامل الغلب .

فالقائد الذى يدفع بجيشه فى أتون الحرب مع تحققه من تأثير كل هذه العوامل ، ويقول كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أبشروا والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم » وقوله : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى به » ، قلنا : إن القائد الذى يدفع بجيشه للحرب ، مع توافر أسباب الضعف فى جنوده ، وهو واثق بالفوز هذه الثقة ، لا يعقل أن يكون صادرا فيها عن مغامرة ، إلا إذا كان يريد المجازفة بكل ما يملك من نفس ومال وأهل ، وما الذى كان يدفع محمدا لذلك ولم يكن مضطرا إليه بحال من الأحوال؟ فلا قومه كانوا يقولون له : قد غررت بنا وادعيت أنك فائز ولم نفز ، لأنهم هم الذين كانوا يطلبون إليه الرجعى بدون حرب ؛ ولا مشروعه كان يتعرض للفشل لو رجع بدون قتال ، لأن العدو لم يكن ينوى أن يهاجمه فى عقر داره ، ولو فعل لاستهدف للهزيمة ، لأن القوة التى كانت معه لا تسمح له بالشروع فى حرب استئصال ؛ ولا هو كان يخشى أن يتفرق أصحابه عنه إذا عاد ولم يلق فلجا ، فقد خرج مرارا للاستيلاء على تجارة قريش وعاد دون أن يعمل شيئا لإفلاتها منه ، فلم يؤثر ذلك فى إيمان أصحابه به . فلم يبق إلا أنه دفع مع قومه فى هذه المعركة التى لم يستعدوا لها ، ثقة منه بما وعده الله من الفوز على إحدى الطائفتين ، وقد

أفلتت إحداهما فلا بد أن يصدق وعد ربه فى الأخرى ، فدفع أصحابه إلى منازلتها واثقا بالنصر ثقة لا حد لها ، لأن الله لا يخلف وعده كما قال فى كتابه الكريم : « فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله » . فحقق الله ظنه فيه ، وآتاه نصرا أيد به حجته ، وقوى عزيمته ، وجعله فاتحة لانتصارات أخرى سيكون من آثارها ما ابتنى عليها من الحوادث العالمية الخطيرة . وإذا حاول بعض خصوم الإسلام أن يهونوا من شأن النصر الكبير الذى أحرزه الإسلام فى بدر ، ذاهبين إلى أنه ليس فى انتصار محمد فى وقعة بدر ما يصح أن يجعل فى عداد المعجزات النبوية . لأن جميع عوامل الغلب كانت تنقص المسلمين فى تلك الموقعة ، ولكن كان هناك عامل خطير جدا كان متوافرا لديهم ، وهو الثقة المطلقة فى نبوة قائدهم ، وأنه ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى . وإذا اتفق لقائد أن يكون تحت إمرته رجال يثقون بكلامه ، ويصدقونه كما يصدق أصحاب محمد محمدا ، لاقى بهم الأهوال ولم يبال ، لأن عقيدتهم تضاعف من قوتهم ، وتكسبهم روحا تدفعهم فى الكريهة بغير مبالاة بما يصيب أجسادهم ، وتجعلهم لا يشعرون بما يشعر به الرجال المجردون من مثل هذه الروح من التعب والنصب ، وخاصة إذا كانوا يعتقدون أنهم إذا ماتوا انتهوا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، أعد لهم فيها من ضروب المتع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . فهل تعجب بعد ذلك أن يكسب محمد معركة بدر ولديه من أمثال هؤلاء الرجال ثلاثمائة إزاء ألف ؟ إن العجب كان أن لا تفوز هذه الشرذمة بالغلب على عدو لا يملك من وسائل الكفاح إلا ما لديه من العتد العادية .

ونحن نقول : إن هذه الشبهة فى ظاهرها قوية ، لاستنادها إلى أصول بسيكولوجية ، ولكنها فى الواقع شعرية خيالية ، وقائمة على افتراضات تحكمية ، فإن الأصول النفسانية التى تقوم عليها لو صدقت على عشرة رجال أو عشرين بل خمسين ، فلا تصدق على المئين ، لا سيما وقد كان معظمهم قريبى عهد بالإسلام ، ولم تظهر لهم بعد من مظاهر تأييد الله لرسوله فى الأزمات ، ما يتخذونه مثالا لهم فيما هم بسبيله من منازلة جيش يفوقهم عددا وعدة ، وفيه من الأبطال المعدودين عدد ليس بالقليل . فعناصر الاستماتة فى القتال التى يفترض المشتبه وجودها فى جيش الصحابة إن وجدت فيه ، فلا توجد بالقدر الذى يوجب لهم التغلب على عدو لا ينقصه من عوامل التغلب شىء ، حتى عامل النعرة القومية ، فإن الجاهليين كان

في أمضهم تسفيه أحلامهم ، وتحقير آبائهم . ولو أضفت إلى هذا عامل تنازع البقاء ، وهو مالا بد من أن يكون قد تيقظ فيهم بسبب قيام المسلمين على طريق تجارتهم ، يتصدون لها كلما مرت بهم ، فيضطروا إما إلى زيادة عدد حامياتها ، وإما إلى الإقلاع عن إرسالها ، وكلا الأمرين غير محتمل . فكان من أمس الأمور بمعاشهم أن يستبسلوا في إبادة هذه الطائفة التي قامت عقبة في سبيل مبادلاتهم ، وهم ما آثروا الحياة الحضرية ، في مدينة مبنية ، ليموتوا في حجرات دورها جياعا عارين، ولكنهم تخيروها ليعيشوا عيشة المدنيين ، مع كل ما تقتضيه حياة الاستقرار من المبادلات والمعاوضات ، وهذه لا تكون إلا بتأمين الطرق ومسالمة الجماعات التي تقوم على جانبيها ، أو إخضاعها لسلطانهم . إذا اعتبرت كل هذا وجدت أن جيش الجاهليين لم تكن تنقصه عوامل الاستبسال والاستماتة في القتال ، وإذا أضفت إلى ذلك تفوقه في المدد والعدد ، أدركت أن التغلب عليه بشرذمة لم تتخذ كل عدتها لحرب زبون ، يعتبر آية من الآيات في تلك البيئة التي كان أوهم ما يحرك الهمم فيها إلى حدود التضحية ، عامل الحاجات الأولية لحفظ الذات ، لا عامل الدفاع عن العقائد ، والذياد عن المبادىء . ناهيك أن تلك البيئة التي كانت لا تنقطع سلسلة الغارات فيها بسبب تنازع البقاء ، لم تنشأ فيها حرب واحدة في مدى تاريخها الطويل ، لنصرة دين على دين ، أو مذهب على مذهب . فكانت وقعة بدر أول معركة من نوعها في هذا الركن المنعزل من الأرض .

ووجه مناسبة سورة الأنفال لسورة الأعراف : أنها في بيان حال خاتم المرسلين، مع قومه وسورة الأعراف مبينة لأحوال أشهر الرسل مع أقوامهم ، هذا هو العمدة ، وهناك تناسب خاص بين عدة آيات من السورتين يقوى هذا التناسب ، ولكنه لا يصح أن يكون شيء منه سببا للمقارنة بينهما ، لأن مثل هذا الاتفاق في بعض المعاني مكرر في أكثر السور الكبيرة .

ويقول السيوطي في وضع هذه السورة هنا : « الظاهر أن وضعها هنا توقيفي وكذا وضع براءة بعدها وهما من هذه الحيثية كسائر السور ، وإلى ذلك ذهب غير واحد كما مر في المقدمات ، وذكر السيوطي أن ذكر هذه السورة هنا ليس بتوقيف من الرسول ، للصحابة رضي الله تعالى عنهم ، كما هو المرجح في سائر السور ، بل باجتهاد من عثمان رضي الله تعالى عنه ، وقد كان يظهر في بادىء الرأي أن المناسب

إيلاء الأعراف بيونس وهود لاشتراك كل فى اشتمالها على قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأنها مكية النزول خصوصا أن الحديث ورد فى فضل السبع الطوال، وعدوا السابعة يونس وكانت تسمى بذلك كما أخرجه البيهقى فى الدلائل ، فنى فصلها من الأعراف بسورتين فصل للنظير من سائر نظائره ، هذا مع قصر سورة الأنفال بالنسبة إلى الأعراف وبراءة ، وقد استشكل ذلك قديما حبر الأمة رضى الله تعالى عنه ، فقال لعثمان رضى الله تعالى عنه : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى ، وإلى براءة وهى من المئين ، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا البسملة بينهما ووضعتموهما فى السبع الطوال ؟ ثم ذكر جواب عثمان رضى الله تعالى عنه وقد أسلفنا الخبر بطوله سؤالا وجوابا ثم قال : وأقول : يتم مقصد عثمان رضى الله تعالى عنه فى ذلك بأمور :

١ — أنه جعل الأنفال قبل براءة مع قصرها لكونها مشتملة على البسملة فقدمها لتكون كقطعة منها ومفتتحها ، وتكون براءة - لخلوها من البسملة - كتتمتها وبقيتها ، ولهذا قال جماعة من السلف : إنهما سورة واحدة .

٢ — وضع براءة هنا لمناسبة الطول فإنه ليس بعد الست السابقة سورة أطول منها ، وذلك كاف فى المناسبة .

٣ — أنه أتى بالسورتين أثناء السبع الطوال المعلوم ترتيبها فى العصر الأول للاشارة إلى أن ذلك أمر صادر لا عن توقيف ، وإلى أن رسول الله قبض قبل أن يبين كلبهما فوضعا هنا كالوضع المستعار بخلاف ما لو وضعا بعد السبع الطوال ، فإنه كان يوهم أن ذلك محلهما بتوقيف ، ولا يتوهم هذا على هذا الوضع ، للعلم بترتب .

٤ — أنه لو أخرهما وقدم يونس وأتى بعد براءة بهود كما فى مصحف أبى لمراعاة مناسبة السبع وإيلاء بعضها بعضا لفات مع ماأشرنا إليه أمر آخر آكد فى المناسبة، فإن الأولى بسورة يونس أن يؤتى بالسور الخمس التى بعدها لما اشتركت فيه من المناسبات من القصص ، والافتتاح آلر ، وبذكر الكتاب ، ومن كونها مكيات ، ومن تناسب ماعدا الحجر فى المقدار ، ومن التسمية باسم نبى ، والرعد اسم ملك ، وهو مناسب لأسماء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فهذه عدة مناسبات الاتصال بين يونس وما بعدها ، وهى آكد من هذا الوجه الواحد فى تقديم يونس بعد

الأعراف ، ولبعض هذه الامور قدمت سورة الحجر على النحل مع كونها أقصر منها ، ولو أخرت براءة عن هذه السور الست لبعدت المناسبة جداً لطولها بعد عدة سور أقصر منها ، بخلاف وضع سورة النحل بعد الحجر ، فإنها ليست كبراءة فى الطول . ويشهد لمراعاء الفواتح فى مناسبة الوضع ما ذكرناه من تقديم الحجر على النحل لمناسبة (الر) قبلها وما تقدم من تقديم آل عمران على النساء ، وإن كانت أقصر منها لمناسبتها البقره فى الافتتاح بآلم ، وتوالى الطواسين والحواميم ، وتوالى العنكبوت والروم ولقمان والسجدة لافتتاح كل بآلم ، ولهذا قدمت السجدة على الأحزاب التى هى أطول منها . ثم ذكر أن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قدم فى مصحفه البقرة والنساء وآل عمران والأعراف والأنعام والمائدة ويونس ، راعى السبع الطوال فقدم الأطول منها فالأطول ، ثم ثنى بالمئين ، فقدم براءة ثم النحل ثم يوسف ثم الكهف وهكذا الأطول فالأطول وجعل الأنفال بعد النور ، ووجه المناسبة أن كلا منهما مدنية ومشتملة على أحكام ، وأن فى النور « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض » الآية ، وفى الأنفال « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض » الخ ، ولا يخفى ما بين الآيتين من المناسبة ، فالأولى مشتملة على الوعد بما حصل ذكر به فى الثانية .

وذكر الألوسى عن بعضهم أن السابعة الأنفال وبراءة بناء على القول بأنهما سورة واحدة وقد ذكر ذلك الفيروز أبادى فى قاموسه ، وما ذكره من الأمر الثانى يغنى عنه ما علل به عثمان رضى الله تعالى عنه ، فقد أخرج النحاس فى ناسخه عنه أنه قال : كانت الأنفال وبراءة يدعيان فى زمن رسول الله القرينتين ، فلذلك جعلتهما فى السبع الطوال ، وما ذكره من مراعاة الفواتح فى المناسبة غير مطرد فإن الجن والكافرون والإخلاص مفتتحات (بقل) مع الفصل بعدة سور بين الأولى والثانية ، والفصل بسورتين بين الثانية والثالثة . وبعد هذا كله لا يخلو ما ذكره عن نظر كما لا يخفى على المتأمل .

وروى الشيخ رشيد رضا أن جواب عثمان لابن عباس رضى الله عنهما هو كما رواه أحمد وأصحاب السنن الثلاثة ، وابن حبان والحاكم : «كان رسول الله ينزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشىء دعا من كان يكتب يقول : ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا . وكانت الأنفال من أوائل ما نزل

بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها . فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها . فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتهما فى السبع الطول ، ولاجل هذه الرواية ذهب البيهقى إلى أن ترتيب جميع السور توقيفى عن النبى ، إلا الأنفال وبراءة ، ووافقه السيوطى . ويرد عليه أنه لا يعقل أن يرتب النبى جميع السور إلا الأنفال وبراءة ، وقد صح أنه كان يتلو القرآن كله فى رمضان على جبريل عليه السلام مرة واحدة من كل عام ، فلما كان العام الذى توفى فيه عارضه بالقرآن مرتين ، فأين كان يضع هاتين السورتين فى قراءته ؟ التحقيق أن وضعهما فى موضعهما توقيفى وإن فات عثمان أو نسيه ، ولولا ذلك لعارضه الجمهور أو ناقشوه فيه عند كتابة القرآن، كما روى عن ابن عباس بعد سنين من جمعه ونشره فى الأقطار . وهذا الحديث قال الترمذى حسن لا نعرفه إلا من حديث عوف بن أبى جميلة ، عن يزيد الفارسى عن ابن عباس ، ويزيد الفارسى هذا غير مشهور اختلفوا فيه هل هو يزيد بن هرمز أو غيره ؟ والصحيح أنه غيره ، روى عن ابن عباس وحكى عن عبد الله بن زياد وكان كاتبه ، وعن الحجاج بن يوسف فى أمر المصاحف . وسئل عنه يحيى بن معين فلم يعرفه ، وقال أبو حاتم لا بأس به .

وذهب الجلال السيوطى كما قلنا إلى أن سورة الأنفال هى وسورة التوبة سورة واحدة ، وأنه من أجل هذا لم يفصل بينهما بالبسملة ، وأن وضع هذه السورة بعد الأعراف لم يكن عن توقيف ، وإنما كان باجتهاد من عثمان رضى الله عنه ، ثم عزز هذا بما رواه أحمد وأصحاب السنن الثلاثة وابن حبان والحاكم ، من أن الحبر قال لعثمان رضى الله عنهما : « ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى ، وإلى « براءة » وهى من المئين ، فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا البسملة بينهما ، ووضعتموهما فى السبع الطوال ؟ » وأن عثمان قد أجابه بقوله : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشىء دعا من يكتب ، يقول : « ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا » ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر

« بسم الله الرحمن الرحيم » ، ووضعتهما في السبع الطوال » . . غير أن راوي هذه القصة عن ابن عباس - وهو يزيد الفارسي - ليس بمشهور ، حتى لقد اختلف فيه فلم يعرف : أهو يزيد بن هرمز أم غيره ؟ ، وسئل عنه يحيى بن معين فلم يعرفه ومثل هذا الرجل لا يصح أن تكون القصة التي انفرد بروايتها مما يؤخذ به في ترتيب القرآن المتواتر ، وبخاصة أنها تثير عدة مشاكل لو أنها صحت ، فأين رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع الأنفال والتوبة عندما كان جبريل يعارضه القرآن ؟ وهل يعقل أن يرتب النبي صلى الله عليه وسلم جميع سور القرآن ثم يدع سورتي الأنفال والتوبة فقط دون أن يحدد مكانهما بين السور ؟ وكيف ترك الصحابة لعثمان هذا الأمر الخطير يجتهد فيه برأيه وحده ، فلم يعارضه أو يناقشه أو يؤيده من بينهم أحد ؟ ... إننا نميل إلى قبول ما رجحه قوم : من أن ترتيب السور كان بتوقيف لا باجتهاد ، ومن أن وضع سورتي الأنفال والتوبة من هذه الناحية لا يختلف في كثير أو قليل عن وضع غيرهما من السور(١)

---

(١) ١٢ تفسير سورة الأنفال

بسم الله الرحمن الرحيم

الربع الأول من سورة الأنفال

١ — يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .

قوله تعالى : « يسألونك » يا محمد « عن الأنفال » أى الغنائم لمن هى وكيف مصرفها ، وسميت الغنيمة نفلا لأنها عطية من الله تعالى وفضل منه ، كما يسمى به ما يشرطه الإمام لمقتحم خطر ، عطية له وزيادة على سهمه «قل» يا محمد لهم « الأنفال لله والرسول » يجعلانها حيث شاء ..

وأكثر المفسرين أن سبب نزولها اختلاف المسلمين فى غنائم بدر كيف تقسم : فقال الشبان : هى لنا لأنا باشرنا القتال ، وقال الشيوخ : كنا ردءاً لكم ولو انكشفتم لفئتم إلينا ، فنزلت ، وقيل : شرط رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن كان له غناء ونفع أن ينفله فسارع شبانهم حتى قتلوا سبعين وأسروا سبعين ثم طلبوا أنفالهم وكان المال قليلا ، فقال الشيوخ الذين كانوا عند الرايات : كنا ردءاً أى عونا لكم تنحازون إلينا فنزلت ، فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم على السواء ، رواه الحاكم فى المستدرك ، وعن عبادة بن الصامت : نزلت فينا معاشر أصحاب بدر حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من الدنيا فجعله لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه بين المسلمين على السواء ، وكان فى ذلك تقوى الله وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإصلاح ذات البين ، وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه أنه قال : لما كان يوم بدر وقتل أخى عمير وقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه وأتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم واستوهبته منه فقال : هذا ليس لى ولا لك اطرحه فى القبض (١) فطرحته وبى ما لا يعلمه إلا الله تعالى من قتل أخى وأخذ سلبى ، فما جاوزت إلا قليلا حتى نزلت سورة الأنفال ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : سألتنى السيف وليس لى وإنه قد صار لى، اذهب

---

(١) وهو بفتحتين : ما قبض من الغنائم .

نفذه ، وقيل : إنها نزلت فيما يصل من المشركين إلى المسلمين بغير قتال من عبد أو أمة أو متاع ، فهو للنبي صلى الله عليه وسلم يصنع فيه ما يشاء ، واختلفوا هل هذه الآية منسوخة أولا ؟ فقال مجاهد وعكرمة : هى منسوخة بقوله تعالى « واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول » الآية ، فكانت الغنائم يومئذ للنبى صلى الله عليه وسلم فنسخها الله تعالى بالخمس ، وقال بعضهم هى ناسخة من وجه ومنسوخة من وجه ، وذلك أن الغنائم كانت حراما على الأمم الذين من قبلنا فى شرائع أنبيائهم ، وأباحه الله تعالى بهذه الآية لهذه الأمة وجعلها ناسخة لشرع من قبلنا ، ثم نسخت بآية الخمس ، وقال عبدالله بن زيد بن أسلم : هى ثابتة غير منسوخة ، ومعنى الآية : قل الأنفال لله والرسول يضعها حيث أمره الله تعالى ، وقد بين الله تعالى مصارفها فى قوله « واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه » الآية . ومعنى الجمع بين ذكر الله والرسول أن حكم الغنيمة مختص بالله ورسوله بأمر الله يقسمها على ما تقتضيه حكمته ، ويمتثل الرسول فيها صلى الله عليه وسلم أمر الله تعالى وليس الأمر فى قسمتها مفوضا إلى رأى أحد « فاتقوا الله » بطاعته واتركوا مخالفته واتركوا المخاصمة والمنازعة فى الغنائم « وأصلحوا ذات بينكم » أى وأصلحوا الحال فيما بينكم بالمودة وترك النزاع وتسليم أمر الغنائم إلى الله ورسوله « وأطيعوا الله ورسوله » فيما يأمركم به وينهاكم عنه « إن كنتم مؤمنين » حقا فإن الإيمان يقتضى ذلك .

٢ — إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .

٣ — ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ .

٤ — أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ .

وصف الله المؤمنين بصفات خمس :

أما الصفة الأولى (١) منها فهى وجل القلب ـ أى خشيته ورهبته ـ إذا ما ذكر اسم الله أمامه ، لا خوفا من عقابه ، ولكن إجلالا لذاته وصفاته .. والذى

(١) راجع ص ٥٣ وما بعدها — سورة الأنفال — مصطفى أبو زيد .

لا شك فيه أن ذكر الله يلين القلوب ؛ ويهز المشاعر ، ويثير فى النفوس إحساسات شتى ؛ فإنه الله : خالق كل شىء ، وإليه مرجع كل شىء . وهو الله : الغفور الرحيم ، شديد العقاب ذو الطول ، وهو الله : منح كل النعم ، فاستحق الشكر كله ، وما منا إلا من يقصر فى شكره كل التقصير ، أو نوعا من التقصير .. فكيف إذن لا يقشعر جلد المؤمن فرقا منه ، وفزعا من لقائه كلما ذكر اسمه أمامه ؟ ولكن .. كيف لا يطمئن قلب المؤمن إلى غفرانه ورحمته بعد ذلك ؟ إنه عز وجل يقول : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد » ، فيصف المؤمنين بالوجل منه وبالطمأنينة إلى مغفرته فى آية واحدة . ولا تناقض فى هذا ما دام ذكر الله هو الذى توجل منه القلوب إجلالا ومهابة ، وهو نفسه الذى تطمئن به رجاء فى المغفرة وطمعاً فى الرحمة .

وأما الصفة الثانية من صفات المؤمنين فهى أن يزيدهم الاستماع إلى آيات كتابه إيمانا به ، أى أن يقوى عقيدتهم ، ويزيد تصديقهم رسوخا ؛ فالذى لا شك فيه أن الإيمان يزيد كلما تعددت الأدلة التى تدعو إليه ، أو صارت أقوى . ولقد سأل الله نبيه إبراهيم عليه السلام عندما طلب منه أن يريه كيف يحيي الموتى قائلا : أو لم تؤمن ؟ فكان جواب إبراهيم : « بلى ولكن .. ليطمئن قلبى » ، وماذا تكون طمأنينة القلب بعد الإيمان إلا تمكينا لهذا الإيمان فى القلب أو زيادة فيه ؟ على أن الإيمان يطلق على مجموع الاعتقاد والعمل بموجبه ، كما يطلق على كل منهما منفردا ، ولا مانع من إرادة العمل والاعتقاد معا ، ومن إرادة العمل وحده ؛ إذ للزيادة حينئذ مجال آخر هو العمل ، وقبوله لها أمر يلمسه الجميع .

وأما الصفة الثالثة فهى أن يتوكل المؤمنون على الله وحده ، أى أن يفوضوا أمورهم كلها إليه فلا يعتمدوا على غيره فى شىء ، ولا يسألوا غيره شيئاً . ولا يعنى هذا بحال أن يتواكل المؤمن فلا يعمل ؛ اعتماداً على أن الله هو الرزاق ، وهو الموفق للنجاح ، وهو . . . وهو . . . الخ ؛ إذ العمل وبذل الجهد شرط ضرورى للتوكل لا يتم بدونه . ولن يكون مؤمناً حقاً ذلك الإنسان الذى يخرج على سنة الله ، فينتظر ثمراً من غير غرس ، وشبعا من

غير أكل ، ونجاحا من غير جهد .. لقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير : تغدو خماصا وتروح بطانا » فقرر أن التوكل لا يكون إلا مع السعى ، وقال عمر رضى الله عنه : « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى ، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة » ، فبين أن واجب المؤمن العمل أولا ، ثم التوكل بعد ذلك . وقال الغزالى : « ليس من التوكل الخروج على سنة الله أصلا » فنفى أن يكون التواكل توكلا ؛ لأن التوكل هو أعلى مقامات التوحيد ؛ إذ هو تفويض الأمر كله إلى الله ، واليقين بأنه هو المدبر لأمور العالم كله ، بعد بذل الجهد ، وأداء الواجب بالأسباب ؛ خضوعا لسنن الله التى لا تتخلف ، ولا تتحول.

والصفة الرابعة هى إقامة المؤمنين للصلاة ، أى تأديتهم لها مستوفية للشروط والأركان فى صورتها وفى روحها .. أى انقطاعها بها فترة عن الحياة الدنيا للاتصال بالله . . وفى مناجاة كلها تدبر وخشوع ، وفى دعاء كله إيمان وثقة ، وفى امتثال كله إجلال ورهبة . فهكذا يعرف الإسلام صلاة المؤمنين: إحساسا عميقا بالوقوف بين يدى الله ، وانقطاعا تاما إلى مناجاته ، وتمثلا حيا لجلاله وكبريائه ، واستغراقا كاملا فى دعائه .

والصفة الخامسة من صفات المؤمنين هى إنفاق المال فى سبيل الله : أى فى مصالح الأمة ، ولكفاية المعوزين والمحتاجين من الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ، هى إنفاق المال بالزكاة المفروضة وبالصدقة المندوبة ، وبكل وسائل الإنفاق التى تعود بالخير على الدولة أو على المجتمع . . . وإذا كان المال - كما يقولون - هو شقيق الروح ، فإن إنفاقه فى سبيل الله من ألزم صفات المؤمنين؛ لأن هذا الإنفاق - كما شرعه الله - وسيلة ضرورية لبناء المجتمع السليم .

يقول الله تعالى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » ، الوجل استشعار الخوف . يعنى ما يجعل القلب يشعر به بالفعل ، وعبر غيره عنه بالفزع والخوف ، وذلك أن الخوف توقع أمر مؤلم فى المستقبل قد يصحبه شعور الألم والفزع ، وقد يفارقه لضعفه أو لاعتقاد بعد أجله ، فالوجل والفزع أخص منه . وفى سورة الحجر من حوار إبراهيم مع ضيفه المنكرين:

« قال إنا منكم وجلون ، قالوا لا توجل » ، وفى سورة المؤمنين فى صفة المؤمنين المشفقين من خشية ربهم « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون » ، فالوجل هنا مقترن بالعمل الصالح وهو البذل والعطاء . وفى سورة الحج « وبشر المخبتين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » ، وهى بمعنى آية الأنفال ، وليس للوجل ذكر فى غير هذه الآيات ، ويتفق معنى الوجل فيها بأنه الفزع وشعور الخوف يلم بالقلب ، وقد يكون هـذا الخوف من العاقبة المجهولة ، وقد يكون من الإجلال والمهابة .

وعن ثابت البنانى قال : قال فلان : إنى لأعلم متى يستجاب لى ، قالوا : ومن أين لك ذلك ؟ قال : إذا اقشعر جلدى ، ووجل قلبى ، وفاضت عيناى ، فذلك حين يستجاب لى . والمراد بذكر الله ذكر القلب لعظمته وسلطانه وجلاله أو لوعيده ووعده ، ومحاسبته لخلقه وإدانتهم ، وغير ذلك من صفاته وأفعاله سواء صحبه ذكر اللسان أم لا ، وأعظم ذكر اللسان مع القلب ترتيل القرآن بالتدبر ، وقد يقول المؤمن فى صلاة التهجد فى الخلوة « الله أكبر » مستحضرا لمعنى كبريائه عز وجل فينتفض ويقشعر جلده ، فمن خص الذكر هنا بالوعيد غفل عن كل هذا وظن أن الوجل لا يكون إلا من خوف العذاب ، وكأنه لم يذق طعم الخشية والوجل من مهابة الله وعظمته وكبريائه وعزة سلطانه . « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا » أى تصديقاً ويقينا ، لأن زيادة الإيمان بزيادة التصديق ، وذلك على وجهين :

الوجه الأول وهو الذى عليه عامة أهل العلم على ما حكاه الواحدى أن كل من كانت عنده الدلائل أكثر وأقوى كان أزيد إيمانا ، لأنه عند حصول كثرة الدليل وقوتها يزول الشك ويقوى اليقين ، فتكون معرفته بالله أقوى فيزداد إيمانه وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام : لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان أهل الأرض لرجح .

الوجه الثانى وهو أنهم يصدقون بكل ما يتلى عليهم من عند الله ، ولما كانت التكاليف متوالية فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، فكلما تجدد تكليف كانوا

يزدادون تصديقا وإقرارا ، ومن المعلوم أن من صدق إنسانا فى شيئين كان أكثر ممن يصدقه فى شىء واحد ، فقوله تعالى « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا » معناه أنهم كلما سمعوا آية جديدة أتوا بإقرار جديد فكان ذلك زيادة فى الإيمان والتصديق ، واختلفوا هل الإيمان يقبل الزيادة والنقصان أولا ؟ فالذين قالوا : إن الإيمان عبارة عن التصديق القلبى قالوا لا يقبل الزيادة ولا النقصان، والذين قالوا إنه مجموع الاعتقاد والإقرار والعمل قالوا : يقبل الزيادة والنقصان ، واحتجوا بهذه الآية من وجهين :

الأول أن قوله تعالى «زادتهم إيمانا» يدل على أن الإيمان لا يقبل الزيادة ولو كان عبارة عن التصديق فقط لما قبل الزيادة ، وإذا قبل الزيادة فقد قبل النقص .

الوجه الثانى أنه تعالى ذكر فى هذه الآية أوصافا متعددة من أحوال المؤمنين ، ثم قال بعد ذلك « أولئك هم المؤمنون حقا » ، وذلك يدل على أن تلك الأوصاف داخلة فى مسمى الإيمان ، وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان ، فى الحديث دليل على أن الإيمان أدنى وأعلا فيكون قابلا للزيادة والنقص ، وقال عمير بن حبيب: إن للإيمان زيادة ونقصانا ، قيل له : فما زيادته ومانقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله وحمدناه فذلك زيادته، وإذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه ، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن عدى : إن للإيمان فرائض وشرائط وحدودا وسننا ، فمن استكملها فقد استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان . . ثم وصف الله تعالى الكاملين بصفة أخرى ثالثة وهى الاتكال عليه بقوله « وعلى ربهم يتوكلون » أى يفوضون جميع أمورهم إليه لا يرجون غيره ولا يخافون سواه ، لأن المؤمن إذا كان واثقا بوعد الله ووعيده كان من المتوكلين عليه لا على غيره ، وهذا الحال مرتبة عالية ودرجة شريفة ، وهى أن الإنسان بحيث يصير لا يبقى له اعتماد فى أمر من الأمور على الله تعالى ، وهذه الصفات الثلاث مرتبة على أحسن صفات الترتيب ، فإن

المرتبة الأولى هى الوجل عند ذكر الله ، والمرتبة الثانية هى الانقياد لمقامات التكاليف ، والمرتبة الأخيرة الانقطاع عما سوى الله والاعتماد على فضل الله بل الغناء عما سوى الله ، ثم إن هذه المراتب الثلاث أحوال معتبرة فى القلوب والبواطن ، ثم انتقل منها إلى رعاية أحوال المؤمنين فقال « الذين يقيمون الصلاة » أى يؤدونها بحقوقها « ومما رزقناهم » أى أعطيناهم « ينفقون » فى طاعة الله ، لأن رأس الطاعات المعتبرة فى الظاهر بذل النفس فى الصلاة وبذل المال فى مرضاة الله ، ويدخل فى ذلك صلاة الفرض والنفل والزكاة والصدقات والإنفاق فى الجهاد والإنفاق على المساجد وفى مصالح الوطن والأمة ، ثم قال تعالى « أولئك » أى الموصوفون بهذه الصفات الخمسة « هم المؤمنون حقاً » ، لأنهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل ومحاسن أفعال الجوارح التى عليها المعيار ، وهى الصلاة والصدقة ، و (حقا) مصدر مؤكد للجملة التى هى « أولئك هم المؤمنون » ، كقوله : هو عبدالله حقاً ..

واختلف العلماء فى أنه هل للشخص أن يقول : أنا مؤمن حقا أو لا ؟ فقال أصحاب الشافعى رضى الله عنه : الأولى أن يقول الرجل : أنا مؤمن إن شاء الله ولا يقول : أنا مؤمن حقا ، وقال أصحاب أبى حنيفة : الأولى أن يقول : أنا مؤمن حقا ولا يجوز أن يقول إن شاء الله ، وعلى الأول أن الشخص إذا قال : أنا مؤمن ، فقد مدح نفسه بأعظم المدائح فربما حصل له بذلك عجب ، فإذا قال : إن شاء الله زال ذلك العجب وحصل الانكسار له ، وعن الحسن أن رجلا سأله : أمؤمن أنت ؟ فقال : الإيمان إيمانان : فإن كنت سألتنى عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا مؤمن بها ، وإن كنت سألتنى عن قوله تعالى « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » الآية فلا أدرى أنا مؤمن أم لا ، وقال سفيان الثورى : من زعم أنه مؤمن حقاً عند الله ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة فقد آمن بنصف الآية ، وهذا إلزام منه أى كما لا نقطع أنه من أهل الجنة قطعا فلا نقطع بأنه مؤمن حقاً . « لهم » أى للموصوفين بتلك الصفات « درجات » أى منازل فى الجنة « عند ربهم » بعضها أعلا من بعض لأن المؤمنين تتفاوت أحوالهم

فى الأخذ بتلك الأوصاف المذكورة فلهذا تتفاوت منازلهم فى الجنة على قدر أعمالهم ، قال عطاء : درجات الجنة يرتفعون فيها بأعمالهم ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فى الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مائة عام ، وعن أبى سعيد رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : فى الجنة مائة درجة لو أن العالمين اجتمعوا فى إحداهن لوسعتهم « ومغفرة » أى لما فرط منهم « ورزق كريم » أعد لهم فى الجنة لا ينقطع عدده ولا ينتهى أمده .

٥ — كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ .

٦ — يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ .

٧ — وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ .

٨ — لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ .

٩ — إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ .

١٠ — وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

١١ — إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ .

١٣ — إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ .

١٣ — ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ .

١٤ — ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ .

هذه الآيات الكريمة العشر فى قصة غزوة بدر ، وماحدث فيها من توفيق الله وفضله ونصر للمسلمين ، ومن خذلانه عز وجل للمشركين يقول الله عز وجل فى هذه الآيات : «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون » أى إن الأنفال لله يحكم فيها بالحق ولرسوله ، يقسمها بين من جعل الله لهم الحق فيها بالسوية ، وإن كره ذلك بعض المتنازعين فيها ، والذين كانوا يرون أنهم أحق بها وأهلها ، فهى كاخراج ربك إياك من بيتك بالحق للقاء إحدى الطائفتين من المشركين فى الظاهر ، وكون تلك الطائفة هى المقاتلة فى الواقع ، والحال أن كثيراً من المؤمنين لكارهون لذلك ، لعدم استعدادهم للقتال ، أو له ولغيره من الأسباب التى تعلم مما يأتى .

هذا هو المتبادر من هذا التشبيه ، ولا يظهر المعنى تمام الظهور فى الآيات إلا ببيان ماوقع من ذلك وأجمعه رواية محمد بن اسحق قال : عن عبد الله ابن عباس قال : لما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبى سفيان مقبلا من الشام ندب المسلمين إليه وقال : هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها . فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم ، وذلك أنهم

لم يظنوا أن رسول الله يلقى حرباً ، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز من يتجسس الأخبار ، ويسأل من لقى من الركبان تخوفا على أموال الناس ، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك ، فحذر عند ذلك فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى ، فبعثه إلى أهل مكة وأمره أن يأتى قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها فى أصحابه ، فخرج ضمضم بن عمرو سريعا إلى مكة ، وخرج رسول الله فى أصحابه حتى بلغ واديا يقال له ذفران ، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم ، فاستشار رسول الله الناس وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكر رضى الله عنه فقال فأحسن ، ثم قام عمر رضى الله عنه فقال فأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يارسول الله امض لما أمرك الله به فنحن معك والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فقال له رسول الله خيراً ودعا له بخير ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشيروا على أيها الناس ، وإنما يريد الأنصار ، وذلك أنهم كانوا عدد الناس وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا يارسول الله : إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمامنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، وكان رسول الله يتخوف أن لاتكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من غير بلادهم . فلما قال رسول الله ذلك قال له سعد ابن معاذ : والله لكأنك تريدنا يارسول الله ؟ قال : أجل . فقال : قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله لما أمرك الله به ، فهو الذى بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك مايتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء . ولعل الله يريك منا ماتقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله . فسر رسول الله بقول سعد ونشطه

ذلك ، ثم قال : سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم . والتقدير كما أخرجك ربك من بيتك بالحق على كره فريق من المؤمنين ، كذلك هم يكرهون القتال ويجادلونك فيه . وقيل الكاف : بمعنى على ، وتقديره : امض على الذى أخرجك ربك ، وقيل : الكاف بمعنى إذ وتقديره : واذكر إذا أخرجك ربك من بيتك بالحق « وإن فريقا من المؤمنين لكارهون » الخروج ، والجملة حال من كاف « أخرجك » ، وقيل (كما) خبر مبتدأ محذوف أى هذه الحالة فى كراهتهم لها مثل إخراجك فى حال كراهتهم . وقد كان خيرا لهم ، فكذلك هذا أيضا ، وذلك أن أباسفيان قدم بعير من الشام فى أربعين راكبا منهم عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل الزهرى وفيها تجارة كثيرة ؛ فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبر المسلمين فحبب إليهم لقاء العير لكثرة المال وقلة العدو ، فلما سمع أبو سفيان بمسير النبى صلى الله عليه وسلم إليه استأجر ضمضم وبعثه إلى مكة وذهب ضمضم إلى مكة يستنفر قريشا ويقول: أيها الناس عيركم أموالكم إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبدا ، فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة ، وهو النفير ، وفى المثل : لا فى العير ولا فى النفير ، فقيل له : إن العير أخذت طريق الساحل ونجت فارجع بالناس ، فقال : والله لا يكون ذلك أبدا حتى ننحر الجزور ونشرب الخمور ونقيم المعازف ببدر فيتسامع جميع العرب بمخرجنا ، فمضى بهم إلى بدر ، وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوما فى السنة ، ونزل جبريل عليه السلام ، وقال يا محمد إن الله وعدكم إحدى الطائفتين : إما العير وإما قريش . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه حدثه عن أهل بدر قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس ، فيقول : هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله ، وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله ، قال عمر : فوالذى بعثه بالحق نبيا ما أخطأ الحدود التى حدها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى

انتهى إليهم فقال : يافلان بن فلان هل وجدتم ما وعد الله ورسوله حقاً : فإنى وجدت ما وعدنى الله حقا ، فقال عمر كيف تكلم أجساداً لاأرواح فيها ، فقال: ما أنتم بأسمع لما أقول لهم منهم غير أنهم لا يستطيعوا أن يردوا على شيئا « يجادلونك فى الحق » أى القتال « بعدما تبين » إنك لا تصنع شيئاً إلا بأمر ربك « كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون » إليه أى يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه ، وذلك أن المؤمنين لما أيقنوا بالقتال كرهوا ذلك ، وقالوا: لو يعلمنا أنا نلقى العدو فنستعد للقائهم وإنما خرجنا لطلب العير ، إذ روى أنهم كانوا مشاة وما كان فيهم إلا فارسان ، وفيه إيماء إلى أن مجادلتهم كانت لفرط فزعهم «وإذ» أى واذكر إذ « يعدكم الله أحدى الطائفتين » أى العير أو النفير « أنها لكم وتودون » أى تريدون « أن غير ذات الشوكة » أى القوة والشدة والسلاح وهو العير « تكون لكم » لقلة عددها وعددها إذا لم يكن فيها إلا أربعون فارسا بخلاف النفير لكثرة عددهم وعددهم « ويريد الله أن يحق الحق » أى يظهره « بكلماته » أى بآياته المنزلة فى محاربة ذات الشوكة وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة ، وبما قضى من أسرهم وقتلهم وطرحهم فى قليب بدر « ويقطع دابر الكافرين » أى يستأصلهم ، والمعنى : إنكم تريدون أن تصيبوا مالا ولا تلقوا مكروها ، والله يريد إعلاء الدين وإظهار الحق وما يحصل لكم فوز الدارين « ليحق الحق » أى يثبت الإسلام « ويبطل الباطل » أى يمحق الكفر « ولو كره المجرمون » أى المشركون ذلك ، وليس قوله تعالى : « ليحق الحق » بعد قوله تعالى : « أن يحق الحق » من التكرار لأن المعنيين متباينان ، وذلك أن الأول لبيان المراد وما بينه وبين مرادهم من التفاوت ، والثانى لبيان الداعى إلى حمل الرسول على اختيار ذات الشوكة على غيرها ونصرة عليها « إذ » أى واذكر إذ « تستغيثون ربكم » وذلك أنهم لما علموا أن لا محيص عن القتال أخذوا يقولون : ربنا انصرنا على عدوك اغثنا يا غياث المستغيثين ، وعن عمر رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام نظر إلى المشركين وهم ألف وإلى أصحابه وهم ثلثمائة وبضعة عشر

فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو: اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هـذه العصابة لا تعبد فى الأرض ـ فما زال كذلك حتى سقط رداؤه وأخذه أبو بكر فألقاه على منكبه وقال: يا نبى الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ماوعدك « فاستجاب لكم أنى » أى بأنى « ممدكم بألف من الملائكة مردفين » أى متتابعين يردف بعضهم بعضاً، وقد وعدهم أولا ألفا ثم صارت ثلاثة آلاف ثم صارت خمسة آلاف كما فى آل عمران ، فقيل: نزل جبريل فى خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر رضى الله عنه وميكائيل عليه السلام على الميسرة ، وفيها على رضى الله عنه فى صـور الرجال عليهم عمائم بيض فقاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا يوم الأحزاب ويوم حنين ، وروى أن أبا جهل قال لابن مسعود : من أين كان ذلك الصوت الذى كنا نسمع ولا نرى شخصاً؟ قال : من الملائكة ، فقال أبو جهل : هم غلبونا لا أنتم ، وروى أن رجلا من المسلمين بينما هو يشتد فى طلب رجل من المشركين إذ سمع صوت ضربة بالسوط فوقه ، فنظر إلى المشرك وقد خر مستلقيا وشق وجهه ، فحدث الأنصارى رسول الله صـلى الله عليه وسلم فقال : صدقت ، ذلك من مدد السماء فقتلوا يوم بدر سبعين وأسروا سبعين ؛ وعن أبى داود المازنى: تبعت رجلا من المشركين لأضربه يوم بدر فوقع رأسه بين يدى قبل أن يصل إليه سيفى ، وروى أبو أمامة ابن سهل بن حنيف عن أبيه قال : رأيتنا يوم بدر وأن أحداً ليشير بسيفه إلى المشرك فتقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف ؛ وقيل : إن الملائكة لم يقاتلوا وإنما كانوا يكثرون السواد ، يثبتون المؤمنين وإلا فملك واحد كاف لإهلاك أهل الدنيا كلهم ، فإن جبريل عليه السلام أهلك بريشة من جناحه مدائن قوم لوط وأهلك بلاد ثمود وقوم صالح بصيحة واحدة ، وقيل : يدل على هذا القول قوله تعالى: « وما جعله الله إلا بشرى » أى وما جعل الإرداف بالملائكة إلا بشرى لكم « ولتطمئن به قلوبكم » فيزول ما بها من الوجل لقلتكم وذلتكم « وما النصر إلا من عند الله » أى لا من عند غيره ، وأما إمداد الملائكة وكثرة العدد والعتاد ونحوها فهى وسائل لا تأثير لها فلا تحسبوا أن النصر منها، ولا تيأسوا

منه بفقدها ، « إن الله عزيز » أى أنه تعالى قوى منيع لا يقهره شىء ولا يغلبه غالب بل هو يقهر كل شىء ويغلبه « حكيم » فى تدبيره ونصره، ينصر من يشاء ويخذل من يشاء من عباده « إذ » أى واذكر إذ « يغشاكم النعاس » وهو النوم الخفيف « أمنة » أى بما حصل من الخوف من عدوكم « منه » أى من الله تعالى لأنهم لما خافوا على أنفسهم لكثرة عددهم وعددهم وقلة المسلمين وقلة عددهم وعطشوا عطشاً شديداً ألقى الله عليهم النوم حتى حصلت لهم الراحة وزال عنهم الكلال والعطش وتمكنوا من قتال عدوهم ، كان ذلك النوم نعمة فى حقهم لأنه كان خفيفاً بحيث لو قصدهم العدو فعرفوا وصوله إليهم قدروا على دفعه عنهم ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : النعاس فى القتال أمنة من الله وفى الصلاة وسوسة من الشيطان « وينزل عليكم من السماء ماء » أى مطرا « ليطهركم به » أى من الأحداث ، وذلك أن المسلمين نزلوا يوم بدر على كثيب رمل أعفر تسوخ فيه الأقدام .

وكان المشركون قد سبقوهم على ماء بدر فنزلوا عليه وأصبح المسلمون على غير ماء ، وبعضهم محدث وبعضهم جنب وأصابهم العطش فوسوس إليهم الشيطان فقال لهم المنافقون : تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبى الله ، وأنتم أولياء الله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين، فكيف ترجون أن تظهروا على عدوكم؟وما ينتظرون بكم إلا أن يجهدكم العطش، فإذا قطع العطش أعناقكم مشوا إليكم فقتلوا من أحبو وساقوا بقيتكم إلى مكة ؛ فحزنوا حزنا شديدا وأشفقوا، فأنزل الله تعالى مطرا أسال منه الوادى فشرب منه المؤمنون واغتسلوا وتوضؤوا وسقوا الدواب ، وعظمت النعمة من الله عليهم بذلك،وكان دليلا على حصول النصر والظفر وزالت عنهم وسوسة الشيطان ، كما قال تعالى « ويذهب عنكم رجز الشيطان » أى وسوسة الشيطان التى ألقاها فى قلوبكم « ويثبت به الأقدام » أى يربط قلوبكم ويقوى من عزائمكم ، ويجعلكم أقوياء « إذ يوحى ربك إلى الملائكة » أى الذين أمد بهم المسلمين « أنى » أى بأنى « معكم » أى بالعون والنصرة « فثبتوا الذين آمنوا » أى قووا قلوبهم بأن تقاتلوا

المشركين معهم ، وقيل : بالتبشير والإعانة « سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » أى الخوف فلا يكون لهم ثبات ، وكان ذلك نعمة من الله تعالى على المؤمنين حين ألقى الخوف فى قلوب المشركين « فاضربوا » خطاب للمؤمنين أو للملائكة « فوق الأعناق » أى أعاليها ، وقيل المراد : الأعناق وفوق زائدة أو بمعنى على أى اضربوا على الأعناق « واضربوا منهم كل بنان » قال عطية : يعنى كل مفصل ، وقال ابن عباس يعنى الأطراف ، والبنان جمع بنانة وهى أطراف الأصابع من اليدين والرجلين ، وبضرب الرأس يموت الإنسان ، وبضرب البنان تبطل حركته عن القتال ولا يستطيع إمساك السلاح « ذلك » أى التسليط العظيم الذى وقع من القتل والأسر يوم بدر ، والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد « بأنهم » أى الذين تلبسوا بالكفر «شاقوا الله» الذى لا يطاق انتقامه «ورسوله» أى خالفوهما فى الأوامر والنواهى ، والمشاقة المخالفة وأصلها المجانبة كأنهم صاروا فى شق وجانب غير الذى يرضيانه « ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب » له فإن الذى أصابهم فى ذلك اليوم من الأسر والقتل شىء قليل فى جانب ما أعد الله تعالى لهم من العقاب يوم القيامة « ذلكم » خطاب للكفار ، أى ذلكم الذى عجل لكم ببدر من القتل والأسر « فذوقوه » عاجلا « وإن للكافرين » أى آجلا فى الآخرة « عذاب النار » .

١٥ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ .

١٦ — وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ

هاتان الآيتان الكريمتان فيهما تحريم الفرار من ميدان المعركة ، معركة الجهاد فى سبيل الله لرفع منار الإسلام والمسلمين ، وخذلان الشرك والمشركين

وليس أضر من الفرار من المعركة ؛ إذ هو سبب الهزيمة والفشل ، وباعث الخزى والعار ، ودليل الجبن والخور ، والفرار يؤدى إلى نكسة الأمة ، وهو مظهر لضعف الهمة . يقول الله عز وجل فى هاتين الآيتين الكريمتين ..

« ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا » أى مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون أى يدبون دبيبا ، من زحف الصبى إذا دب على استه قليلا قليلا ، « فلا تولوهم الأدبار » أى منهزمين أمامهم وإن كنتم أقل منهم « ومن يولهم يومئذ » أى يوم لقائهم « دبره » أى يجعل ظهره إليهم منهزما « إلا متحرفا » أى منعطفا « لقتال » بأن يريهم أنه منهزم « خداعا » ، ثم يكر عليهم ، وهو باب من مكائد الحرب « أو متحيزا » أى منضما وصائرا « إلى فئة » أى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التى هو فيها على القرب يستنجد بها ، ومنهم من لايعتبر القرب ، لما روى ابن عمر رضى الله عنهما أنه كان فى سرية بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ففروا إلى المدينة فقلت يارسول الله : نحن الفرارون ، فقال : بل أنتم الكارون » . وفى رواية الكرارون أى المتعاطفون إلى الحرب « فقد باء » أى رجع « بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » أى المرجع هى ، وعن ابن عباس : أن الفرار من الزحف من أكبر الكبائر ؛ هذا إذا لم يزد العدد على الضعف كقوله « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا » وقيل : هذا فى أهل بدر خاصة لأنه ما كان لهم الانهزام يوم بدر ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان معهم .

والآيتان تدلان على أن الفرار من الزحف من كبائر المعاصى ، وقد جاء التصريح بذلك فى أحاديث أصحها عن أبى هريرة مرفوعا عن الشيخين « اجتنبوا السبع الموبقات » أى المهلكات ـ قالوا يارسول الله وماهن ؟ قال: الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات والمؤمنات » وقد قيد بعض العلماء هذا بما إذا كان الكفار لا يزيدون على ضعف المؤمنين ، وعد بعضهم الآية منسوخة بقوله تعالى من هذه السورة (٦٦ ـ الآن خفف

الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، الآية وستأتى . وهذا ظاهر على قول من يسمى التخصيص نسخا كالمتقدمين . قال الشافعى رحمه الله تعالى : إذا غزا المسلمون فلقوا ضعفهم من العدو حرم عليهم أن يولوا إلا متحرفين لقتال أو متحيزين إلى فئة ، وإن كان المشركون أكثر من ضعفهم لم أحب لهم أن يولوا ولا يستوجبون السخط عندى من الله لو ولوا عنهم على غير تحرف للقتال أو التحيز إلى فئة ، وروى هو وابن أبى شيبة عن ابن عباس قال : من فر من ثلاثة فلم يفر ، ومن فر من اثنين فقد فر .

وقد روى عن عمر وابنه وابن عباس وأبى هريرة وأبى سعيد الخدرى وأبى بصرة وعكرمة ونافع والحسن وقتادة وزيد بن أبى حبيب والضحاك أن تحريم الفرار من الزحف فى هذه الآية خاص بيوم بدر ؛ قيل إنه بناء على أن قوله تعالى « يومئذ » يراد به يوم بدر ، ولكن هذا خلاف قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ويؤيده نزول الآية بعد انتهاء الغزوة ، فانه ليس فيها ذكر « يوم بدر » وإنما المراد بتنوين يومئذ مافهم من أول الآية أى يوم لقائهم زحفا كما تقدم فاليوم فيه بمعنى الوقت . وإنما قد يتجه بناء التخصيص على قرينة الحال لو كانت الآية قد نزلت قبل اشتباك القتال - خلافا للجمهور - مع ما لغزوة بدر من الخصائص ككونها أول غزوة فى الإسلام لو انهزم فيها المسلمون والنبى صلى الله عليه وسلم فيهم لكانت الفتنة كبيرة ، وتأييد المسلمين فيها بالملائكة يثبتونهم ، ووعده تعالى بنصرهم بإلقاء الرعب فى قلوب أعدائهم - فاذا نظرنا إلى مجموع الخصائص وقرينة الحال فى النهى اتجه كون التحريم المقرون بالوعيد الشديد الذى فى الآية خاصا بها ، أضف إلى ذلك أن الله تعالى امتحن الصحابة بالتولى والإدبار فى القتال مرتين مع وجوده صلى الله عليه وسلم معهم يوم أحد ، وفيه يقول الله تعالى : ٣ : ١٥٥ - إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم ، ويوم حنين ، وفيه يقول الله تعالى ٩ : ٢٦ - لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم

فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، الخ وهذا لا ينافى كون التولى حراما ومن الكبائر ، ولا يقتضى أن يكون كل تول لغير السببين المستثنيين فى آية الأنفال يبوء صاحبه بغضب عظيم من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ، بل قد يكون دون ذلك ، ويتقيد بآية رخصة الضعف الآتية فى هذه السورة وبالنهى عن إلقاء النفس فى التهلكة من حيث عمومها كما تقدم فى سورة البقرة وسيأتى تفصيله قريباً .

وقد روى أحمد وأصحاب السنن إلا النسائى من حديث ابن عمر قال « كنت فى سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحاص الناس حيصة [1] وكنت فيمن حاص ، فقلنا : كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا : لو دخلنا المدينة فبتنا ، ثم قلنا : لو عرضنا نفوسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فان كان لنا توبة وإلا ذهبنا . فأتيناه قبل صلاة الغداة [2] فخرج فقال : من الفرارون ؟ فقلنا : نحن الفرارون . قال : بل أنتم العكارون [3] أنا فئتكم وفئة المسلمين . قال : فأتيناه حتى قبلنا يده . ولفظ أبى داود - فقلنا ندخل المدينة فنبيت فيها لنذهب ولا يرانا أحد ، فدخلنا فقلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فان كانت لنا توبة أقمنا وإن كان غير ذلك ذهبنا ، فجلسنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل صلاة الفجر فلما خرج قمنا إليه فقلنا: نحن الفرارون الخ » تأول بعضهم هذا الحديث بتوسع فى معنى التحيز إلى فئة : لا يبقى معه للوعيد معنى ولا للغة حكم ، وقد قال الترمذى فيه : حسن لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن أبى زياد . أقول : وهو مختلف فيه ، ضعفه الكثيرون وقال ابن حبان: كان صدوقا إلا أنه لما كبر ساء حفظه وتغير فوقعت المناكير فى حديثه ، فمن سمع منه قبل التغير فسماعه صحيح ، وجملة القول

---

(١) حاص عن الشيء حاد وهرب (٢) أى الصبح
(٣) العكار كالعطاف والكرار لفظا ومعنى .

أن هذا الحديث لا وزن له فى هذه المسألة لا متنا ولا سنداً ، وفى معناه أثر عن عمر هو دونه فلا يوضع فى ميزان هذه المسألة .

١٧ — فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

١٨ — ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ .

١٩ — إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

٢٠ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ .

٢١ — وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ .

هذه الآيات الخمس الكريمة ، هى فى امتنان الله عز وجل على المسلمين بنصرهم يوم بدر ، هذا النصر الأكبر . الذى كان فيه عزة للإسلام ، ومجد للمسلمين : وقد كان هذا النصر عونا من الله للرسول وأصحابه ، وفتحا مبينا أعز الإسلام وأهله . . وفى الآيات وعد كريم من الله بخذلان الشرك ، وتحذير للمسلمين من العصيان حتى لا يستوجبوا غضب الله ، وحتى لا يزول عنهم نصره ، وفيها أمر لهم بطاعة الله ورسوله ونهى عن الفرار ، وعن الشرك ومتابعة المشركين .

قوله تعالى : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم » يقول لهم : يا أيها المؤمنون

لا تولوا الكفار [1] ظهوركم فى القتال أبداً ؛ فأنتم أولى منهم بالثبات والصبر ثم بنصر الله تعالى ؛ فما أنتم أولاء قد انتصرتم عليهم ، على قلة عددكم وعددكم وكثرتهم واستعدادهم ، وإنما ذلك بتأييد الله تعالى لكم ، وربطه على قلوبكم ، وتثبيته أقدامكم . « فلم تقتلوهم » ذلك القتل الذريع بمحض قوتكم واستعدادكم المادى ، « ولكن الله قتلهم » بأيديكم ، بما كان من تثبيت قلوبكم بمخالطة الملائكة وملابستها لأرواحكم وبإلقاء الرعب فى قلوبهم ، فهو بمعنى « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم وينصركم عليهم » والمؤمن أجدر من الكافر بالصبر الذى هو الركن الأعظم للنصر ؛ لأنه أقل حرصاً على متاع الدنيا ، وأعظم رجاء بالله واليوم الآخر كما قال الله تعالى « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم . إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليما حكيما » وقال حكاية لرد المؤمنين بهذا الرجاء على الخائفين من كثرة الأعداء « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » .

ولقد روى ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قال فى استغاثته يوم بدر : اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبدا — قال جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها فى وجوههم ؛ ففعل ، فما من أحد من المشركين إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة ، فولوا مدبرين . وفى هذا يقول الله بعد أن يلتفت إلى رسوله : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » غير أنه ينفى رمى الرسول إذ يثبته له تعالى ، فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى وما رمى ، وإنه لكذلك فعلا !

لقد رمى رسول الله تلك القبضة من التراب ، أما الذى وصل التراب إلى وجوه المشركين فهو الله عز وجل . وكان رمى الرسول عاديا لا يمتاز على رمى غيره من الناس بشىء ، أما الذى أحدث برميه تلك الآثار البليغة فهو الله ! . « ومارميت إذ رميت » أى مارميت أحداً من المشركين فى الوقت الذى

---

(١) ص ٧٧ تفسير سورة الأنفال .

رميت فيه التراب فأصاب وجوههم . أو مارميت بالرعب فى قلوبهم إذ رميت التراب أو ما رميت حقيقة إذ رميت صورة . أو مارميت التراب إذ رميته ، ولكن الله رمى ، لأنه هو الذى أوصل المرمىّ به مع بعد المسافة ، وهو الذى أصاب به على قلته جميع المشركين على كثرتهم ، وهو الذى جعله بهذا أحد أسباب هزيمتهم ! . . واختلف فى سبب نزول قوله تعالى ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، على ثلاثة أقوال :

الأول : وهو قول المفسرين . نزلت فى يوم بدر ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ندب إلى قتال بدر نزلوا بدراً ووردت عليهم قريش وفيهم ، أسلم ، غلام أسود لبنى الحجاج ، وأبو يسار غلام لبنى العاص بن سعد فأتوا بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال لهما : أين قريش ؟ فقالا : هم وراء هذا الكثيب الذى بالعدوة القصوى ، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما عدد القوم ؟ قالا : كثير ، قال : ما عدتهم ؟ قالا لا ندرى قال : كم تنحرون كل يوم ؟ قالا : يوما عشرة ويوما تسعة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : القوم ما بين التسعمائة إلى الألف ، ثم قال لهما : فمن فيهم من أشراف قريش ؟ قالا : عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البحترى بن هشام وأبو جهل بن هشام وعدا جماعة أخر ، فقال صلى الله عليه وسلم : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها ، فلما طلعت قريش قال عليه الصلاة والسلام : هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك ، اللهم إنى أسألك ما وعدتنى ، فأتاه جبريل عليه السلام وقال له : خذ قبضة من تراب فارمهم بها ، فلما التقى الجمعان قال لعلى رضى الله عنه أعطنى قبضة من حصباء الوادى فرمى بها فى وجوههم ، وقال : شاهت الوجوه أى قبحت ، فلم يبق مشرك إلا دخل فى عينه وفمه ومنخره ، فانهزموا وردفهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم ، والمعنى أن الرمية التى رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة ، لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر البشر ، ولكنها كانت رمى الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم ، لأن كفا من الحصباء لا يملأ عيون الجيش الكثير برمية البشر ، فأثبت الرمية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن صورتها

وجدت منه ، ونفاها عنه لأن أثرها الذى لا يطيقه البشر من فعل الله تعالى ، فكأن الله تعالى هو فاعل الرمية على الحقيقة وكأنها لم توجد من الرسول صلى الله عليه وسلم .

والقول الثانى : أنها نزلت يوم خيبر ، روى أنه عليه الصلاة والسلام أخذ قوساً وهو على باب خيبر فرمى سهما فأقبل السهم حتى قتل لبانة بن أبى الحقيق وهو على فرسه .. فنزلت .

والقول الثالث : أنها نزلت فى يوم أحد فى قتل أبى بن خلف ، وذلك أنه أتى النبى صلى الله عليه وسلم بعظم رميم وفتته وقال : يا محمد من يحيى هذه وهى رميم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم يحييها الله ، ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك النار فأسر يوم بدر . فلما افتدى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن عندى فرساً أعلفها كل يوم فرقا من ذرة أقتلك عليه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل أنا أقتلك إن شاء الله تعالى ، فلما كان يوم أحد أقبل أبى يركض على ذلك الفرس حتى دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعترض له رجال من المسلمين ليقتلوه فقال صلى الله عليه وسلم : استأخروا ورماه بحربة كسرت ضلعا من أضلاعه فمات ببعض الطريق فنزلت ، والأصح الأول .. ولذا دخل فى أثناء القصة كلام أجنبى عنها وذلك لا يليق ، وقال الرازى لا يبعد أن يدخل تحته سائر الوقائع ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب « وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا » معطوف على قوله « ولكن الله رمى » أى ولينعم عليهم نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة ، ثم ختم الله تعالى هذه الآية بقوله « إن الله سميع » لأقوالكم « عليم » بأحوال قلوبكم ، وهذا جرى مجرى التحذير والترهيب لئلا يغتر العبد بظواهر الأمور ، ويعلم أن الخالق تعالى يطلع على ما فى الضمائر والقلوب « ذلكم » إشارة إلى البلاء الحسن أى الفرض ذلكم « وأن الله موهن كيد الكافرين » معطوف على ذلكم ، أى المقصود إبلاء المؤمنين وتوهين الكافرين وإبطال حيلهم « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح » أكثر المفسرين على أنه خطاب للكفار ، روى أن أبا جهل لعنه الله قال يوم

بدر: اللهم أينا كان أقطع للرحم وأفجر فأهلكه الغداة ، وقال السدى: إن المشركين لما أرادوا الخروج إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى القبلتين وأكرم الحزبين ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، أى إن تستنصروا لأهدى القبلتين وتستقصوا فقد جاءكم النصر والقضاء بهلاك من هو كذلك وهو أبو جهل، ومن قتل معه دون النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، وقيل : خطاب للمؤمنين وذلك أنه صلى الله عليه وسلم لما رأى المشركين وكثرة عددهم وعددهم ، استغاث بالله تعالى وطلب ما وعده الله تعالى به من إحدى الطائفتين، وتضرع إلى الله تعالى وكذلك الصحابة رضى الله عنهم ، فقال تعالى: إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح أى إن تطلبوا النصر الذى تقدم به الوعد فقد جاءكم الفتح أى حصل ما وعدتم فاشكروا الله تعالى والزموا الطاعة، وقال القاضى عياض: وهذا القول أولى لأن قوله تعالى فقد جاءكم الفتح لا يليق إلا بالمؤمنين . وقال البيضاوى : إنه خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم ويدل له قوله تعالى « وإن تنتهوا » عن الكفر ومعاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم « فهو خير لكم » أى لتضمنه سلامة الدارين وخير المنزلتين « وإن تعودوا » أى لقتال النبى صلى الله عليه وسلم « نعد » أى لنصرته عليكم « ولن تغنى » أى تدفع « عنكم » « فئتكم » أى جماعتكم « شيئا » لأن الله تعالى على الكافرين فيخذلهم « ولو كثرت » أى فئتكم « وأن الله مع المؤمنين » بالنصر والمعونة « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا » أى تعرضوا « عنه » أى الرسول صلى الله عليه وسلم بمخالفة أمره ، فإن المراد من الآية الأمر بطاعته والنهى عن الإعراض عنه ، وذكر طاعة الله للتنبيه على أن طاعته فى طاعة الرسول لقوله تعالى « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، وقيل: الضمير للجهاد « وأنتم تسمعون » أى القرآن والمواعظ سماع فهم وتصديق « ولا تكونوا كالذين قالوا » أى بألسنتهم « سمعنا وهم لا يسمعون » سماعا ينتفعون به وهذه صفة المنافقين .

* * *

وبهذا ينتهى الربع الأول من سورة الأنفال . وقد تضمن من الأصول الجليلة ما يلى :

١ - بيان حكم غنائم الحرب وطرق توزيعها بصفة عامة .

٢ — الأمر بتقوى الله وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله .

٣ — تعريف المؤمنين بأنهم الذين جمعوا هذه الصفات الجليلة : خشية الله والاهتزاز لذكره ، والتأثر بآيات القرآن الكريم وامتلاء القلب خشية وإيمانا بسماعها ، والتوكل على الله وحده ، وبأنهم الذين يقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله . فهؤلاء هم المؤمنون حقا ، وأولئك لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم .

٤ — ذكر غزوة بدر وتردد بعض المسلمين فيها . ونصرة الله عز وجل للرسول وأصحابه .

٥ — النهى عن الفرار من المعركة لأى سبب من الأسباب .

٦ — بيان فضل الله على المسلمين بنصره إياهم فى بدر وبهزيمة الشرك والمشركين الساحقة .

٧ — تحذير المسلمين من المعصية ، وأمرهم بالتزام طاعة الله ورسوله ، وترك التولى عن نصرة الرسول ، وترك مخالفته والتحذير من عصيانه .

طلب الله فى هذا الربع من المؤمنين تقوى الله وإصلاح ذات البين بالوفاق والتعاون والمواساة وترك الإثرة ، ووصف المؤمنين بأنهم إذا ذكر الله وجلت قلوبهم أى شعرت بالخشية والخوف من الله ، وبأنهم إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، أى سعة فى العرفان ، وقوة فى طمأنينة النفس ، وبأنهم متوكلون على الله يفوضون أمرهم إليه وحده بعد الأخذ بالأسباب ، ويفوضون إليه الأمر ليهديهم إلى الأسباب فيما لا يعلمون له أسبابا ، وبأنهم يقيمون الصلاة ، وينفقون مما رزقهم الله ، كل هذا تضمنه قوله سبحانه : فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين . إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله

وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » .

وطلب منهم أيضاً الثبات فى القتال ، وحرم عليهم الفرار ، وقال : «ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقدباء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » . ومعناه : أنه لا يجوز أن يولى المسلم ظهره للأعداء إلا إذا رأى الانتقال إلى مكان آخر هو أصلح للقتال ، أو رأى أن ينضم إلى فئة أخرى من المؤمنين .

وطلب اليهم ترك النزاع وقال : « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين » .

الربع الثانى من سورة الأنفال

٢٢ — إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ .

٢٣ — وَلَوْ عَلِمَ ٱللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ .

قوله تعالى : « إن شر الدواب عند الله » أى إن شر من دب على وجه الأرض من خلق الله عنده « الصم » عن سماع الحق « البكم » عن النطق فلا يقولونه « الذين لا يعقلون » أى ليس لهم عقل ، ولا عندهم دراية ولا فهم ، سماهم دوابا لقلة انتفاعهم بعقولهم كما قال تعالى : « أولئك كالأنعام بل هم أضل » ، قال ابن عباس : هم نفر من بنى عبد الدار بن قصى كانوا يقولون : نحن صم بكم عما جاء به محمد فقتلوا جميعاً بأحد ، وكانوا أصحاب اللواء ولم يسلم منهم إلا رجلان : مصعب بن عمير وسـويبط بن حرملة « ولو علم الله فيهم خيراً » أى سعادة كتبت لهم وانتفاعا بالآيات « لأسمعهم » أى سماع تفهم « ولو أسمعهم » على

سبيل الفرض وقد علم أن لاخير فيهم « لتولوا » عنه ولم ينتفعوا به وارتدوا بعد التصديق والقبول « وهم معرضون » لعنادهم وجحودهم عن الحق بعد ظهوره ؛ وقيل : إنهم كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أحي لنا قصياً فإنه كان شيخا مباركا يشهد لك بالنبوة فنؤمن بك ، فقال الله تعالى : ولو سمعهم كلام قصي لتولوا وهم معرضون .

٢٤ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ.

٢٥ — وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ .

٢٦ — وَٱذْكُرُوٓا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

٢٧ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ .

٢٨ — وَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ .

٢٩ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن تَتَّقُوا ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ .

فى هذه الآيات الكريمة الست حث على طاعة الله ورسوله ، وعلى اتقاء الفتن ، وعلى تذكير المسلمين بنصر الله لهم ، وفيها نهى عن خيانة الله ورسوله وخيانة شرف الإنسان وكرامته ، ونهى عن الافتتان بالأموال والأولاد وأمر بتقوى الله ، فتقوى الله تجعل فى قلب المسلم هداية ونورا يفرق بهما بين الحق والباطل .

إن هذه الآيات الست هى من أمهات أصول القرآن الكريم ، ومن جلائل دعواته إلى الهدى والنور والطاعة والتقوى . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات : « يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول » أى أجيبوهما بالطاعة ، ووحد الضمير فى قوله تعالى « إذا دعاكم » لأن دعوة الله تسمع من الرسول « لما يحييكم » فإن طاعة الله والعمل بشريعته والعلم بها حياة للقلوب أو لما يورثكم الحياة الأبدية فى النعيم الدائم من العقائد ، وقال السدى : هو الإيمان لأن الكافر ميت ، وحياته بالإيمان ، وقال ابن إسحق : هو الجهاد أعزكم الله تعالى به بعد الذل ، وقال العتبى : هو الشهادة لقوله تعالى : « بل أحياء عند ربهم يرزقون » . « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » أى أنه يميته فتفوته الفرصة وهو التمكن من إخلاص القلب ، وقال الضحاك : يحول بين المرء والمعصية وبين الكافر والطاعة ، وقال السدى : يحول بين المرء وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا أن يكفر إلا بإذنه ، وقال مجاهد : يحول بين المرء وقلبه فلا يعقل ولا يدرى مايعمل . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول : يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك ، قالوا : يارسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟ قال : القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء « وأنه » أى واعلموا أنه تعالى « إليه تحشرون » لا إلى غيره ولا تتركون مهملين معطلين فيجازيكم بأعمالكم ، وفى هذا تشديد فى الأمر بالعمل وتحذير عن الكسل .

هذا والاستجابة : هى الإجابة ، ومنه : فلم يستجبه عند ذاك مجيب . أو هى الإجابة بعناية وقوة ، فتكون السين والتاء للمبالغة ، والأصل فيها أنها

التحرى والتهيؤ للجواب ، وعبر بها عما سبق ، لأن التحرى للإجابة قل أن ينفك عن الإجابة بعناية .

أما الحول بين الشيء والشيء : فهو الحجز بينهما . والدعاء : الطلب مع الحث والتحريض . وما به الحياة هو العلم بالله . والعـــلم بسننه فى الخلق ، وبأحكامه الشرعية ، والتزين بالحكمة والفضيلة والأعمال الصالحة التى تكمل بها الفطرة الإنسانية ، وتسعد بها فى الآخرة ، فهو يشمل جميع ما فى القرآن الكريم من حكم وأحكام وعقائد وأخلاق وآداب ، ويشمل ما فيـه من نظام الحرب والسلم وقواعد الاجتماع ، ويعم كل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الهدى القولى والعملى . كل ذلك يحيى من عمل به حياة طيبة ، يعزه فى الدنيا ويسعده برغد من العيش ، ويعلى قدره ، ويرفع ذكره ، ويجعله فى الآخرة مع الذين أنعم الله عليهم فى جنات تجرى من تحتها الأنهار . وبعد أن طلب الله إجابة دعائه ودعاء الرسول ، نبه إلى أمرين جليلين يبعث التنبه لهما إلى الانقياد والطاعة والإقبال عليهما بالجد والعزم :

أحدهما أن الله سبحانه قريب من العبد مطلع على مكنونات صدره ، يعلم منه ما قد يخفى عليه « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » .

والثانى أن العباد يحشرون إليه وحده ، وبيده الجزاء على الأعمال « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

وقوله تعالى « يحول بين المرء وقلبه » تحذير من العصيان وحث على الإخلاص وتصفية القلوب ، وطاعة الرسول واجبة فى حياته وبعد مماته ، فيما علم أنه دعا إليه دعوة عامة من السنن العملية المبينة للكتاب ، ومن السنن القولية القطعية فى الرواية والدلالة . أما غير ذلك مما هو محل الاجتهاد فعلى كل مجتهد أن يعمل بما صح عنده وبما ترجح عنده . أما العادات من اللباس والطعام والشراب والنوم وما أشبه ذلك فلم يعده أحد من السلف من أمور الدين . وكما يجب أن نهتدى بالهدى النبوى ينبغى أن نهتدى بهدى الخلفاء الراشدين والصحابة

وعلماء الأمة في اجتهادهم وأدبهم ، مع مراعاة أصول الدين العامة ومصالح المسلمين ، لكن ذلك لا يسمى دينا إلا إذا كان ثابتا في كتاب أو سنة .

« واتقوا فتنة » أي ذنبا قيل : هو إقرار المنكر حتى يستباح دون نكير أو زجر . وقيل : افتراق الكلمة ، وقيل : الفتنة العذاب . وقوله تعالى « لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » جواب الأمر . والمعنى : إن إصابتكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم ، كما يحكى أن علماء بني إسرائيل لم ينهوا عن المنكر فعمهم الله تعالى بالعذاب « واعلموا أن الله شديد العقاب » لمن خالفه .

والمعنى : احذروا ابتلاء واختبارا من الله سبحانه يبتليكم به فلا يخص المذنب الذي ارتكب المعصية واقترف الذنب بل يعم غيره . هذا ومن المعاصي ما هو خفي بين العبد وربه يحاسبه عليه وليس للعباد أن يبحثوا عنه ، وقد نهى الله سبحانه عن التجسس بقوله : « ولا تجسسوا » ومنها ما يظهر ويفشو ، وهو على أنواع : بدعة في العقيدة والرأي ، وبدعة في الأعمال ، وفرقة عن الجماعة لمحض الهوى لا لدليل من كتاب أو سنة . وأشد هذه الأنواع الفتن الملية والقومية التي تقع بين الأمم عند التنازع على المصالح العامة من السيادة والملك وعند التنازع في السياسة على الحكم ، وقد تحصل تبعا لذلك فرقة في الدين والشريعة حيث يتخذ الدين وسيلة للفوز والغلب . وقد طالب الله سبحانه المؤمنين أن يحذروا هذه المعاصي الظاهرة ، وبخاصة ما كان عاما منها ، وما يوجد الفرقة بين الأمة ويصدع وحدة الجماعة سواء أكانت الوحدة في العقيدة أو العمل أو في السياسة وقواعد الاجتماع ، لأن الفرقة في ذلك كله تضيع الجهود ، وتذهب القوة ، وتطمع الأعداء في المسلمين حتى ينتهي أمرهم إلى الضعف والوهن ، وينتهي أمرهم بتسلط الأعداء عليهم . فعلى كل فرد وعلى كل جماعة الحذر من هذه الفتن ، طالبهم الله بهذا وبقطع دابرها وعدم تركها تبيض وتفرخ وتعشش ، ومن أجل هذا أوجب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وشدد في ذلك في مواضع كثيرة من كتابه . من ذلك : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » ،

فقد جعل الأمر بالمعروف فرضا إذا تركه المسلمون أثموا جميعهم ، وركبهم الحرج . وقد علق الله سبحانه الفلاح على ذلك وقال : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وقال : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » . فقد استحق هؤلاء اللعنة لأنهم تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وقال : « فلما نسوا ماذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون » وقال : « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » . والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وظيفة الأنبياء وخلفائهم . ووظيفة ولاة الأمور جميعهم ، وإذا تعطل فشت الضلالة ، وشاعت البدعة ، وسرى الفساد واسترسل الناس فى الشهوات ، وقلت مراقبة الخالق ، واستولت على النفوس مداهنة الخلق ، ومن واجب الحكومات الضرب على أيدى المفسدين ، وسن القوانين الصارمة ، وخلق حياة اجتماعية للروح فيها نصيب ولله نصيب . وما انحطت أمة إلى الدرك الأسفل إلا بتهاون الجماعة وتهاون أصحاب السلطان فى تقويم الأفراد والجماعات . ولن يبسط سلطان ولن ترفرف سعادة وعزة ومجد حيث يعلو سلطان الشهوة ويسود سلطان الشيطان . وعقاب الأمم على الذنوب العامة والمعاصى الظاهرة لازم فى الدنيا ، وهو أثر من آثارها الطبيعية كما هو مشاهد ومعروف فى التاريخ ، وعقابه فى الآخرة شديد يعاقب من يعصى أمره ويركب رأسه ، ويطيع شيطانه ، ويخالف نظام الله فى خلقه ، وسنن الكون وهدى الاجتماع . وقد بدأت الفتن السياسية أيام على ومعاوية ، ولبست ثوبا دينيا أوجد فى الأمة فرقا ، ثم تبعتها فتن أخرى أضاعت مجد الإسلام وعزه . ولا علاج إلا باتباع القرآن والرد إلى الله ورسوله ، ومحاولة التوحد فى جميع الشئون الإسلامية . وهذا ما ندعو إليه ، ونطلب من الله تحقيقه . وفى الحديث الشريف : « مامن قوم عملوا بالمعاصى وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل

إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده ، وقيل : يارسول الله ، أيهلك القرية وفيها الصالحون ؟ قال: نعم ، بتهاونهم وسكوتهم على معاصى الله ، واذكروا ، يامعشر المهاجرين ، إذ أنتم ، فى أوائل الإسلام ، قليل ، أى عددكم ، مستضعفون ، أى لامنعة عندكم ، فى الأرض ، أى أرض مكة ، تخافون أن يتخطفكم الناس ، أى تأخذكم الكفار بسرعة كما تتخطف الجوارح الصيد ، فآواكم ، إلى المدينة أو جعل لكم مأوى تتحصنون به على أعدائكم ، وأيدكم ، أى قواكم ، بنصره ، أى بإمداد الملائكة يوم بدر وبمظاهرة الأنصار ، ورزقكم من الطيبات ، أى الغنائم التى أحلها لكم ولم يحلها لأحد قبلكم ، لعلكم تشكرون ، هذه النعم العظيمة .

يذكر الله عز وجل المسلمين فى الآية بنصر الله لهم ، وإعزازه إياهم ، رغم قلتهم وضعفهم ، وخوفهم ، فأصبحوا سادة الجزيرة ثم صاروا سادة العالم والشعوب ، وهذا التذكير كأنه دليل على صحة الطلب ، وعلى وجوب الطاعة ، وعن قتادة : كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلا ، وأشقاه عيشا ، وأجوعه بطنا ، وأعراه جلودا ، وأبينه ضلالا ، يؤكلون ولا يأكلون ، والله ما نعلم قبيلا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منهم منزلا حتى جاء الله بالإسلام ، فمكن به البلاد ، ووسع به الرزق ، وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس.

، ياأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول ، أى بأن تضمروا خلاف ماتظهرون ، روى أنه صلى الله عليه وسلم حاصر يهود بنى قريظة إحدى وعشرين ليلة ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح كما صالح إخوانهم من بنى النضير ، على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرعات وأريحاء من الشام ، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا : أرسل إلينا أبا لبابة ، واسمه رفاعة أو مروان بن عبد المنذر ، وكان مناصحا لهم لأن ماله وعياله عندهم ، فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، فقالوا: ياأبا لبابة ماترى أننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه أنه الذبح ، أى إن حكم سعد هو القتل فلا تفعلوا ، فقال أبو لبابة : والله مازالت قدماى من مكانهما حتى علمت أنى قد خنت الله ورسوله ، ثم انطلق على

وجهه، لم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشد نفسه على سارية من سوارى المسجد وقال : والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله على، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أما لو جاءنى لاستغفرت له وأما إذ فعل ما فعل فإنى لا أطلقه حتى يتوب الله تعالى عليه. فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاما ولا شرابا حتى خر مغشيا عليه ثم تاب الله عليه ؛ فقيل له : قد تاب الله عليك فحل نفسك . فقال : لا والله لا أحلها حتى يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلنى ، فجاءه فحله بيده فقال : إن من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالى ، فقال له صلى الله عليه وسلم: يجزئك الثلث أن تتصدق به ؛ فنزلت هذه الآية . وعن جابر بن عبد الله أن أبا سفيان خرج من مكة فعلم النبى صلى الله عليه وسلم خروجه وعزم على الذهاب إليه فكتب رجل من المنافقين إليه : إن محمدا يريدكم فخذوا حذركم فنزلت . وقيل : معنى لا تخونوا الله بأن تقطعوا فرائض الله ورسوله ، وتخونوا أماناتكم ، أى ما اؤتمنتم عليه من الدين وغيره ، وأنتم تعلمون ، أنكم تخونون وأنتم علماء تميزون الحسن من القبيح . هذا ومعنى الخون : النقص : كما أن معنى الوفاء التمام ، ومنه تخونه إذا تنقصه ، ثم استعمل فى ضد الأمانة والوفاء ، لأنك إذا خنت الرجل فى شىء فقد أدخلت عليه النقصان فيه .

والمعنى : لا تعطلوا فرائض الله وما جاء به رسوله ، ولا تضيعوا الأمانات فيما بينكم وأنتم على علم بأن ما تعملونه خيانة ، أى لا تفعلوا ذلك عن عمد . أما الخطأ والنسيان فهذا مما اغتفره الله لعباده . وكما تكون الخيانة بترك الطاعة ، تكون بعدم بيان الأحكام . وخيانة الأمانة تكون بين الرعية والراعى ، وبين الأفراد بعضهم مع بعض . والأمانة من الصفات الدينية التى قام عليها بناء المجتمع ، وأسس عليها العمران والمدنية ، ولا صلاح لأمة ولا بقاء لدولة إلا بها ، وعليها مدار الثقة فى جميع المعاملات . ومن الأمانة إقامة العدل بين الناس ، وأن يقوم كل فرد بما هو موكول إليه بجد واجتهاد وإخلاص .

ولا إيمان لمن لا عهد له ، ولا دين لمن لا عهد له ، وآية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان ، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم .

ومن الخيانة إفشاء سر الدولة ، وإخراجه للأعداء ، سواء فى ذلك السلم والحرب ، والاستعانة على المسلمين بغيرهم . ومن الخيانة أكل أموال الناس بالباطل ، وعدم التحرى فى إنفاق أموال الدولة فى المرافق العامة . ومن الخيانة عدم تولية الأكفاء ، وعدم النصح لأولياء الأمور . كل ذلك خيانة ، والله يطلب أن يكون المسلم ناصحاً أمينا ، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر . ومن الخيانة أيضاً إهمال الدفاع عن البلاد . ومن الخيانة أن لا يعد كل مسلم نفسه ليكون جنديا يدافع عن دينه وعن وطنه . فالآية عامة تشمل كل خيانة ، وإن كان سبب النزول خاصا .

« واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة » أى محنة من الله تعالى ليبلوكم بها ، فلا يحملنكم حبهم على الخيانة كأبى لبابة ، لأنه شغل القلب بالدنيا « وإن الله عنده أجر عظيم » فسعادة الآخرة خير من سعادة الدنيا لأنها أعظم فى الشرف وأعظم فى القوة وأعظم فى المدة ، لأنها تبقى بقاء لا نهاية له ، وهذا هو المراد من وصف الآخرة الذى عنده بالعظم .

والأموال محبوبة للنفس ، ركز فى طبيعة الإنسان الحرص عليها ، فهى الوقاية ، وهى العدة عند الشدة ، بها الحياة ، وبها الاستمتاع بما تتنازع إليه النفس وتتقاضاه الطبيعة من اللذات والشهوات وبها يدرك العز ، وينال الفخر والجاه . والأولاد عزيزة على النفس يرى الإنسان فيها صورته ، ويحتفظ بها كما يحتفظه بنفسه أو أشد ، ويدرك أن فى بقائها بقاءه . وقد جبل الإنسان بل الحيوان على الحرص عليها ، والضن بها ، والدفاع عنها ، وقد يضيع الحيوان حياته دفاعا عن حياة ولده . المال والولد كلاهما فتنة ، وقد يكون سبباً من أسباب عدم الطاعة ، ومن أسباب الخيانة ، فلا يتحرى العبد مورد الرزق والكسب ، ولا يقوم بحق الله فى المال ليوفر لنفسه لذته ، ويدخر

لأولاده بعد موته ما يقيم أودهم ، ويسهل عليهم العيش ويقيهم الفاقة وذل السؤال . من أجل ذلك نبه الله سبحانه إلى أن ما ادخره لعباده من الأجر عظيم ، فلا يليق بالعاقل أن يتركه ويفتن بالعاجل ، فليس مما يرضاه العقل أن يترك نعيم مقيم ، وعز دائم ، وجنات تجرى من تحتها الأنهار ، ورضوان الله ، من أجل متاع قليل فى هذه الحياة الفانية .

« يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » ، الفرقان : الفارق بين الحق والباطل ، فيشمل كل ما خص الله به عباده المؤمنين من المعرفة والهداية ، وشرح الصدر ، والأخلاق الفاضلة : من الشجاعة والصبر والكرم والحلم ، والنصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وعدم موالاة الأعداء ، وترك الغل والحقد والحسد وكل الأخلاق الذميمة . ويشمل أيضا إعلاء كلمة الله ، والظهور على الأعداء والثواب فى الدنيا والآخرة ، بتقوى الله يحصل هذا كله ، ويستر الله السيئات ويمحوها فلا يؤاخذ عليها ، ويغفر الذنوب ، ويضاعف الأجر ، فهو ذو الفضل العظيم . ومعنى الآية أن العمل على مقتضى الدين والشرع وسنن الله فى الخلق ونظام الاجتماع يورث ملكة العلم والحكمة ، وبذلك يفرق الإنسان بين الحق والباطل ، ويميز بين النافع والضار ، وإذ ذاك يرزقه الله النصر على الأعداء بما يعز به المؤمن ، ويكبت به العدو . والتقوى تشمل اتقاء الذنوب ، واتقاء الأسباب الدنيوية المانعة من الكمال والسعادة حسبما ترشد اليه السنن الكونية ، وذلك يتوقف على علم بسنن الله فى الإنسان منفرداً ومجتمعا ، وعلى معرفة ما ينبغى أن يفعل ، وما ينبغى أن يترك « ويكفر عنكم سيآتكم ويغفر لكم » أى يمحو ما كان منكم غير صالح ، وقيل : السيئات الصغائر والذنوب الكبائر ، وقيل المراد : ما تقدم وما تأخر لأنها فى أهل بدر وقد غفرها الله تعالى لهم « والله ذو الفضل العظيم » تنبيه على أن ما وعده الله تعالى لهم على التقوى تفضل منه وإحسان ، وأنه ليس مما توجبه تقواهم عليه .

٣٠ — وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ

يُخْـرِجُوكَ وَيَمْـكُرُونَ وَيَمْـكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَـيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ .

٣١ — وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَـآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ .

٣٢ — وَإِذْ قَالُوا ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

٣٣ — وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ .

٣٤ — وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

٣٥ — وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ .

٣٦ — إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ .

٣٧ — لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ .

٣٨ — قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ .

٣٩ — وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

٤٠ — وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ .

فى هذه الآيات الإحدى عشرة بيان لمدى إيذاء المشركين لرسول الله صلوات الله عليه ، ومدى معارضتهم لدعوته ، واستخفافهم بالرسالة والقرآن واستهزائهم بكتاب الله ، وما كانوا عليه من بذل وسخاء فى مقاومة الدعوة ومناهضة الرسول ، وفيها إذن من الله عز وجل لرسوله وللمؤمنين بقتال المشركين حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله . . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات ... « وإذ يمكر بك الذين كفروا » فى هذا تذكير لرسول الله صلى الله عليه وسلم بنعم الله عز وجل عليه وهو رفع كيد المشركين ومكر الماكرين عنه ، وهذه السورة مدنية وهذا المكر كان بمكة ليشكر نعمة الله فى نجاته من مكرهم ، وكان ذلك المكر على ماذكره ابن عباس وغيره من المفسرين أن قريشا لما أسلمت الأنصار وبايعوه خافوا أن يتفاقم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجتمع رؤساؤهم كأبى جهل وعتبة وشيبة ابنى ربيعة وأبى سفيان وهشام بن عمرو وطعيمة بن عدى والنضر بن الحارث وأبى البحترى ابن هشام فى دار الندوة متشاورين فى أمره صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو البحترى : رأيى أن تحبسوه فى بيت ويسد باب البيت غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها ، وتتربصوا به ريب المنون حتى يهلك مثل من هلك قبله من الشعراء ، وقال شيخ نجدى : بئس الرأى رأيتم ، والله لئن حبستموه فى بيت ليأتينكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم ، قالوا : صدق الشيخ

النجدى ، فقال هشام بن عمرو : رأيى أن تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم فلا يضركم ما صنع واسترحتم ، فقال النجدى : بئس الرأى ، تعمدون إلى رجل قد أفسد سفهاءكم فتخرجونه إلى غيركم فيفسدهم ، ألم تروا إلى حلاوة منطقه وطلاوة لسانه ؟ والله لئن فعلتم ذلك ليذهبن ويستميل قلوب قوم ثم يسير بهم إليكم ويخرجكم من بلادكم ، قالوا : صدق والله ، فقال أبو جهل لعنه الله تعالى : والله لأشيرن عليكم برأى لا أرى غيره ، إنى أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شابا وتعطوه سيفا صارما فيضربونه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل فلا تقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم ، فإذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا ، فقال النجدى : صدق هذا الفتى هو أجودكم رأيا ، القول ما قال لا أرى غيره ، فتفرقوا على قول أبى جهل مجمعين على قتله ، فأتى جبريل عليه السلام النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك ، وأمره أن لا يبيت فى مضجعه الذى كان يبيت فيه ، وأذن الله تعالى له عند ذلك بالخروج إلى المدينة ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا رضى الله عنه فنام فى مضجعه وقال له : اتشح ببردى فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه ، ثم خرج النبى صلى الله عليه وسلم فأخذ قبضة من تراب وأخذ الله تعالى أبصارهم عنه وجعل ينثر التراب على رؤسهم وهو يقرأ : « إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا » الآية إلى قوله تعالى « فهم لا يبصرون » ، ومضى إلى الغار هو وأبو بكر وخلف عليا بمكة حتى يؤدى عنه الودائع التى كانت عنده ، وكانت الودائع تودع عنده لصدقه وأمانته ، وبات المشركون يحرسون عليا على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم يحسبونه النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما أصبحوا بادروا إليه فرأوا عليا فقالوا له : وأين صاحبك ؟ قال لا أدرى ، فاقتصوا أثره وأرسلوا فى طلبه ، فلما بلغوا الغار رأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا : لو دخله لم تكن تنسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاثا ثم قدم المدينة وأبطل الله مكرهم ، وهذا معنى قوله تعالى : وإذ يمكر بك الذين كفروا « ليثبتوك » أى ليوثقوك ويحبسوك « أو يقتلوك » كلهم قتلة رجل واحد « أو يخرجوك » من مكة

« ويمكرون » بك « ويمكر الله » أى يرد الله مكرهم عليهم بتدبير أمرك بأن يوحى إليك ما دبروه وأمرك بالخروج إلى المدينة وأخرجهم إلى بدر ، وقلل المسلمين فى أعينهم حتى حملوا عليهم فقتلوا « والله خير الماكرين » أى أعلمهم به فلا يؤبه بمكرهم دون مكره ، وهذا الأسلوب من باب المشاكلة ، ويجوز أن يكون استعارة لأن إطلاق المكر على إخفاء الله تعالى ما أوعد به لمن استوجبه بأن جعلت صورته تشبه صورة المكر استعارة ، وعن على رضى الله عنه : من وسع الله تعالى عليه فى دنياه ولم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع فى عقله « وإذا تتلى عليهم آياتنا » أى القرآن « قالوا » أى هؤلاء الذين ائتمروا فى أمره صلى الله عليه وسلم « قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا » وهذا غاية مكابرتهم وفرط عنادهم ؛ إذ لو استطاعوا ذلك لفعلوا وإلا فما منعهم لو كانوا مستطيعين ، قد تحداهم وقرعهم بالعجز عشر سنين ثم قارعهم بالسيف فلم يعارضوه ولو بسورة ، مع أنفتهم وفرط استنكافهم أن يغلبوا خصوصا فى باب البيان . وقيل : قائله النضر بن الحارث وكان يأتى الحيرة يتجر فيشترى كتب أخبار العجم ويحدث بها أهل مكة . وكان النضر رئيس القوم وقاضيهم وقد اسره المقداد يوم بدر فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتله . فقال المقداد : أسيرى يارسول الله ، فقال : إنه كان يقول فى كتاب الله مايقول . فعاد المقداد لقوله ، فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم اغن المقداد من فضلك ، فقال : ذلك الذى أردت يارسول الله ، فقتله النبى صلى الله عليه وسلم فأنشدت أخته ترثيه :

ما كان ضرك لو مننت وربما ... من الفتى وهو المغيظ المحنق

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لو بلغنى هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه « إن » أى ما « هذا » أى القرآن « إلا أساطير الأولين » أى أخبار الأمم الماضية وأسمارهم وما سطر الأولون فى كتبهم ، والأساطير جمع أسطورة وهى المكتوبة من قولهم سطرت ، أى كتبت وقيل : أساطير جمع أسطور وأسطور جمع سطر « وإذ قالوا اللهم إن كان هذا » أى الذى يقرؤه محمد

« هو الحق » المنزل « من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » أى مؤلم ، قاله النضر أو غيره استهزاء أو إيهاما أنه على بصيرة . وعن معاوية رضى الله عنه أنه قال لرجل من سبأ : ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة . قال : أجهل من قومى قومك قالوا « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك » الآية ، وما قالوا إن كان هذا هو الحق فاهدنا إليه . وقد يقال : إن الله تعالى قال هذه المقالة عن الكفار وهى من حسن نظم القرآن فقد حصلت المعارضة فى هذا القدر ؛ وأيضاً حكى عنهم أنهم قالوا فى شأن بنى إسرائيل « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا الأرض ينبوعا » ـ الآية ، وذلك أيضاً كلام الكفار ، فقد حصل من كلامهم ما يشبه نظم القرآن وذلك يدل على حصول المعارضة ، وجواب ذلك أن الإتيان بهذا القدر لا يكفى فى حصول المعارضة لأنه كلام قليل لا يظهر فيه وجوه الفصاحة والبلاغة ، لأن أقل ما وقع به التحدى سورة أو قدرها قال الله تعالى : « وما كان الله ليعذبهم » أى بما سألوه « وأنت فيهم » لأن العذاب إذا نزل عم ولم يعذب أمة إلا بعد خروج نبيها والمؤمنين منها « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » أى وفيهم من يستغفر الله ، وهم المسلمون بين أظهرهم من تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من المستضعفين وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه : كان فى هذه الأمة أمانات النبى والاستغفار ، فأما النبى صلى الله عليه وسلم فقد مضى وأما الاستغفار فهو كائن فيكم إلى يوم القيامة « وما لهم أن لا يعذبهم الله » بالسيف بعد خروجك والمستضعفين ، واختلفوا فى هذا العذاب فقال بعضهم : لحقهم العذاب المتوعد به يوم بدر ، وقيل يوم فتح مكة ، وقال ابن عباس : هذا العذاب هو عذاب الآخرة والعذاب الذى نفى عنهم هو عذاب الدنيا ، ففى الآية السابقة نفى الله أن يعذبهم ما دام الرسول فيهم ، وفى الآية التى هنا يثبت الله عز وجل لهم العذاب « وهم يصدون » أى يمنعون النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين « عن المسجد الحرام » أن يطوفوا به وذلك عام الحديبية ، ونبه تعالى على أنهم يصدون لا دعائهم أنهم أولياؤه ، فكانوا يقولون : نحن

ولاة البيت فنصد من نشاء وندخل من نشاء ، ثم بين تعالى بطلان هذه الدعوة بقوله تعالى : « وما كانوا أولياءه ، أى كما زعموا « إن » أى ما « أولياؤه إلا المتقون » الذين يحذرون غضب الله « ولكن أكثرهم » أى الناس «لا يعلمون» أن لا ولاية لهم عليه ، وكأنه نبه بالأكثر على أن منهم من يعلم ويعاند أو أراد به الكل كما يراد بالقلة العدم « وما كان صلاتهم عند البيت » أى دعاؤهم أو ما يسمونه صلاة أو مايضعون موضعا « إلا مكاء » أى صفيرا «وتصدية» أى تصفيقاً ، قال ابن عباس : كانت قريش يطوفون بالبيت عراة يصفرون ويصفقون ، وقال مجاهد : كان نفر من بنى عبد الدار يعارضون النبي صلى الله عليه وسلم فى الطواف ويستهزؤن به ويدخلون أصابعهم فى أفواههم ويصفرون ويخلطون عليه طوافه وصلاته ، فالمكاء جعل الأصابع فى الشدق والتصدية الصفير ، وقال مقاتل : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد الحرام قام رجلان عن يمينه ورجلان عن يساره يصفران ويصفقان ليخلطوا على النبي صلى الله عليه وسلم صلاته « فذوقوا العذاب » أى عذاب القتل والأسر ببدر فى الدنيا وعذاب النار فى الآخرة « بما » أى بسبب ما « كنتم تكفرون » اعتقادا وعملا ، ولما ذكر الله تعالى عبادة الكفار البدنية وهى المكاء والتصدية ذكر عقبه عبادتهم المالية التى لا جدوى لها فى الآخرة بقوله تعالى : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم » فى حرب النبي صلى الله عليه وسلم « ليصدوا عن سبيل الله » أى ليصرفوا عن دين الله ، نزلت فى المطعمين يوم بدر ، وكانوا اثنى عشر رجلا منهم أبو جهل بن هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وكلهم من قريش ، وكان يطعم كل واحد منهم يوم بدر عشر نياق ، وفى أبى سفيان استأجر يوم أحد الفين من العرب سوى من اتخذه جيشا وأنفق عليهم ، وقيل : نزلت فى أصحاب العير ؛ فإنه لما أصيب قريش ببدر قيل لهم : أعينوا بهذا المال على حرب محمد لعلنا ندرك منه ثأرنا ففعلوا « فسينفقونها ثم تكون » أى عاقبة الأمر « عليهم حسرة » أى ندامة لفواتها وفوات ما قصدوه « ثم يغلبون » أى آخر الأمر ، وإن كانت الحرب بينهم سجالا قبيل ذلك كما اتفق

بينهم فى بدر فإنهم هزموا مع الكثرة والقوة ولم تغن عنهم شيئا من ذلك بل كان وبالا عليهم « والذين كفروا » أى ثبتوا على الكفر « إلى جهنم يحشرون » أى يساقون إليها يوم القيامة فهم فى خزى فى الدنيا والآخرة ، ولم يقل الله تعالى : وإلى جهنم يحشرون ؛ لأنه أسلم منهم جماعة كأبى سفيان بن حرب والحارث بن هشام وحكيم بن حزام ، بل ذكر أن الذين ثبتوا على الكفر يكونون كذلك «ليميز الله الخبيث» أى الفريق الكافر «من الطيب» أى من الفريق المؤمن « ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا » أى يجمعه متراكما بعضه على بعض كقوله تعالى « كادوا يكونون عليه لبدا » ، أى لفرط زحامهم وقيل : ليميز المال الخبيث الذى أنفقه الكافر على عداوة محمد صلى الله عليه وسلم من المال الطيب الذى أنفقه المؤمن فى جهاد الكفار كإنفاق أبى بكر وعثمان فى نصرة النبى صلى الله عليه وسلم فيركمه جميعا « فيجعله فى جهنم » فى جملة مايعذبون به كقوله تعالى « فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » الآية « أولئك » إشارة إلى الذين كفروا « هم الخاسرون » أى الكاملون فى الخسران لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم ، ولما بين ضلالهم فى عبادتهم البدنية والمالية أرشدهم إلى طريق الصواب ، فقال « قل » يامحمد « للذين كفروا » كأبى سفيان بن حرب وأصحابه « إن ينتهوا يغفرلهم ماقد سلف » أى قل لأجلهم هذا القول ، وهو إن ينتهوا عن الكفر وقتال محمد صلى الله عليه وسلم يغفر لهم ماقد سلف من ذلك « وإن يعودوا » إلى الكفر ومعاداة النبى صلى الله عليه وسلم « فقد مضت سنة الأولين » أى بإهلاك أعدائه ونصر أنبيائه وأوليائه . واختلفوا : هل الكافر الأصلى مخاطب بفروع الشريعة؟ وهل يسقط عن المرتد مامضى فى حال ردته كالكافر الأصلى كما هو ظاهر الآية ؟ ، وهل الردة تحبط مامضى من العبادات قبلها ؟ فذهب أصحاب الشافعى رضى الله عنه إلى أنه مخاطب بدليل قوله تعالى « ما سلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين » الآية ، وإلى أن المرتد لا تسقط عنه العبادات الفائتة فى الردة تغليظا عليه ، وإلى أن الردة لا تحبط مامضى .

ولما بين الله تعالى أن هؤلاء الكفار إن انتهوا عن كفرهم حصل لهم الغفران وإن عادوا فهم متوعدون سنة الأولين ، أتبعه بالأمر بقتالهم إذا أصروا فقال : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » أى شرك كما قال ابن عباس ، وقال الربيع حتى لا يفتن أحدكم عن دينه ، لأن المؤمنين كانوا يفتنون عن دين الله فى مبدأ الدعوة فافتتن من المسلمين بعضهم وأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا إلى الحبشة ، وفتنة ثانية وهو أنه لما بايعت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة جهدت قريش أن يفتنوا المؤمنين بمكة عن دينهم فأصاب المؤمنين جهد شديد ؛ فأمر الله تعالى بقتالهم حتى تزول هـذه الفتنة « ويكون الدين كله » خالصاً « لله » وحده لا يعبد غيره « فإن انتهوا » عن الكفر « فإن الله بما يعملون بصير » أى فيجازيهم به « وإن تولوا » عن الإيمان « فاعلموا أن الله مولاكم » أى ناصركم ومتولى أموركم « نعم المولى » فإنه لا يضيع من تولاه « ونعم النصير » أى الناصر فلا يغلب من ينصره ، فمن كان فى حماية المولى وفى حفظه وكفايته كان آمنا فى الدنيا والآخرة .

* * *

وبهذا ينتهى الربع الثانى من سورة الأنفال . وقد تضمن أصولا كثيرة من أهمها مايلى :

١ — الكافرون عند الله كالدواب ، بل هم شر من الدواب ، لأنهم لا يميزون بين الحق والباطل ، ولا يفرقون بين الشر والخير ، ولا يعيشون مؤمنين بدين من الأديان ، ولا يعرفون المثل النبيلة فى الحياة ، ولا يفرقون بين جميل وقبيح ؛ إن الفطرة الإنسانية قد طمست من قلوبهم ، وفسدت طباعهم ، وضلوا عن سبيل الله .

٢ — على المؤمنين أن يستجيبوا لدعاء الله ، وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم ويعزهم وينهض بهم ، ويقوى من كيانهم ، من أصول الشريعة وقواعد الدين .

٣ — على المسلمين أن يحذروا الفتن ، التى إن وقعت عم أثرها الصالح والطالح ، وكانت وبالا كبيراً.

٤ — على المسلمين أن يذكروا نعمة الله عليهم ، إذ أعزهم بالإسلام بعد أن كانوا أذلة ، وقواهم بعد أن كانوا مستضعفين ، وأيدهم بروح من عنده ، ورزقهم من الطيبات .

٥ — النهى عن خيانة الله والرسول وخيانة الأمانات والمواثيق والعهود.

٦ — التحذير من فتنة الأموال والأولاد ففتنتهما عظيمة عند الله ، والله عنده أجر عظيم .

٧ — تقوى الله تجعل فى قلب المسلم فرقانا يفرق به بين الحق والباطل ، وتقوى فى نفسه نزعات الضمير الحى الإنسانى ، الضمير اليقظ ، الذى يرشد الناس إلى الخير ، وينأى بهم عن الشر ، وتقوى الله يكفر الله بها عن المسلم السيئات ، ويغفر الذنوب

٨ — الامتنان على رسول الله بنصر الله له ، وبإعزازه إياه ، وبانجائه من كيد المشركين ، وبحفظه له وهو مهاجر من مكة إلى المدينة .

٩ — تصوير عنت المشركين وضلالهم ومدى مقاومتهم للإسلام ولرسوله الكريم ، ومدى ما أنفقوا من مال ، فى سبيل مقاومة دعوته الكريمة .

١٠ — إنذار الله للمشركين بأن مصيرهم الهزيمة والفشل والخيبة والخسران المبين ، ودعوتهم إلى الإيمان قبل فوات الأوان .

١١ — الإذن بقتال المشركين حتى يعودوا إلى الله وإلى دينه القويم .

الربع الثالث من سورة الأنفال

٤١ — وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

٤٢ — إِذْ أَنتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ .

٤٣ — إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

٤٤ — وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

فى هذه الآيات الأربع الكريمة التى هى مطلع الربع الثالث من سورة الأنفال يتحدث الله عز وجل عن الغنائم . وكيفية توزيعها ، ويجعل الله عز وجل الخمس منها للفقراء والمساكين واليتامى وابن السبيل . . ويؤكد الله عز وجل حق هؤلاء فى الخمس فيجعل إخراجه مشروطا بالإيمان بالله ورسوله ، ووقفا على الذين آمنوا بما أنزل الله على محمد صلوات الله عليه يوم الفرقان ، وهو يوم بدر الفاصل بين الحق والباطل ، وبين الشر والخير ، وبين التوحيد والشرك ، ثم يصف الله عز وجل المعركة نفسها ووسائل القوة المعنوية التى أيد الله عز وجل بها المسلمين ، وكيف جعل روحهم المعنوية قوية غاية القوة، حتى استطاعوا أن ينتزعوا النصر انتزاعا من براثن المشركين . . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة . . . « واعلموا أنما غنمتم » أى أخذتم من الكفار فى الحرب من غنائم وأموال « من شىء » مما يقع عليه اسم شىء « فإن

لله خمسه وللرسول ، الغنيمة والفيء اسمان لما يصيبه المسلمون من الكفار في الحرب ، والصحيح أنهما مختلفان ، فالفيء ما حصل لنا مما هو لهم بلا إخافة كجزية وعشر تجارة،وسيأتي حكمه عند قوله تعالى : « ما أفاء الله على رسوله »، وأما الغنيمة فهي ما حصل لنا منهم مما هو لهم بإخافة أو غلبة أو التقاط ، وكذا ما أخذناه من أموالهم في المعارك ولو قبل شهر السلاح ، أو أهداه الكافر لنا والحرب قائمة . . ولم تحل الغنائم لأحد قبل الإسلام ، بل كانت الأنبياء إذا غنموا مالا جمعوه فتأتي نار من السماء فتأخذه ، ثم أحلت للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت في صدر الإسلام للنبي خاصة لأنه كالمقاتلين بل أعظم ، ثم نسخ ذلك واستقر الأمر على أنها تجعل خمسة أقسام متساوية:فخمس لله أو للمصالح ويجعل بين أهل الخمس على خمسة أصناف وهو النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه ، وذكر الله تعالى في الآية للتبرك ، وإما ما كان له صلى الله عليه وسلم فهو لمصالح المسلمين كسد الثغور ودفع مرتبات للعلماء ، والصنف الثاني ما ذكره الله تعالى بقوله : « ولذي القربى » أي قرابة النبي صلى الله عليه وسلم من بني هاشم وبني المطلب دون من عداهم ، لاقتصاره صلى الله عليه وسلم في القسمة عليهم مع سؤال غيرهم من بني نوفل وعبد شمس له ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : اما بنوهاشم وبنوالمطلب فشيء واحد ـ وشبك بين أصابعه ـ فيعطون ولو أغنياء ويفضل الذكر على الأنثى كالإرث .. والصنف الثالث هو ما ذكره الله تعالى في قوله : « واليتامى » واليتيم الصغير لا أب له ولو أنثى ، وورد الخبر : لا يتم بعد احتلام . وإن كان له أم وجد ، ومن فقد أمه فقط يقال له منقطع لا يتيم . . والصنف الرابع ما ذكره الله تعالى بقوله : « والمساكين » الصادقين بالفقراء ، والمسكين من له مال أو كسب لائق به لا يقع موقعا من كفايته ولا يكفيه ، والفقير من لا مال له أو له ذلك ولا يقع موقعا من كفايته ، كمن يحتاج إلى عشرة ولا يملك أولا يلبس إلا درهمين أو ثلاثة . والخامس ما ذكره الله تعالى بقوله : « وابن السبيل » وهو المسافر المحتاج

ولا معصية بسفره ، والأخماس الأربعة الباقية للغانمين ، وهم من حضر القتال ولو فى أثنائه بنية القتال « إن كنتم آمنتم بالله » متعلق بمحذوف دل عليه (واعلموا) أى إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنه جعل الخمس لهؤلاء فسلموه إليهم واقنعوا بالأخماس الأربعة الباقية ، فإن العلم إذا أمر به لم يرد منه العلم المجرد لأنه مقصود بالفرض ، والمقصود بالذات هو العمل «وما» عطف على (بالله) «أنزلنا على عبدنا» محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات والملائكة والنصر « يوم الفرقان » أى يوم بدر فإنه فرق فيه بين الحق والباطل « يوم التقى الجمعان » أى جمع المؤمنين وجمع الكافرين وهو يوم بدر ، وهو أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة ، فالتقوا يوم الجمعة لتسعة عشر أو لسبعة عشر من رمضان ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلثمائة وبضعة عشر رجلا ، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة ؛ فهزم الله تعالى المشركين ، وقتل منهم سبعون وأسر منهم مثل ذلك « والله على كل شىء قدير » فيقدر على نصر القليل على الكثير والذليل على العزيز كما فعل ذلك بكم ذلك اليوم « إذ أنتم بالعدوة الدنيا » أى القربى من المدينة والعدوة الدنيا مما يلى المدينة «وهم بالعدوة القصوى» أى البعيدة من المدينة وهو مما يلى مكة ، وكان الماء بها، وكان استظهار المشركين من هذا الوجه أشد . « والركب » أى القافلة التى خرجوا لها والتى كان يقودها أبو سفيان « أسفل منكم » أى أسفل منكم على ساحل البحر على ثلاثة أميال من بدر « ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد » وذلك أن المسلمين خرجوا ليأخذوا قافلة التجارة راغبين فى الخروج ، وخرج الكفار لما بلغهم من تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأموالهم فيمنعونها من المسلمين ، فالتقوا على غير ميعاد ، ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد لقلتهم وكثرة عدوهم « ولكن» جمع الله تعالى بينهم على هذه الحالة من غير ميعاد « ليقضى الله أمرا كان مفعولا » فى علمه وهو نصر أوليائه وإعزاز دينه وإعلاء كلمته وقهر أعدائه، وقوله تعالى « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة » استعير الهلاك

والحياة للكفر والإسلام أى ليصدر كفر من كفر عن وضوح بينة لاعن شبهة حتى لا يبقى له على الله حجة ، ويصدر إسلام من أسلم أيضا عن يقين وعلم بأنه دين الحق الذى يجب الدخول فيه والتمسك به، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحات التى من كفر بعدها كان مكابرا لنفسه مغالطا لها «وإن الله لسميع عليم» أى يسمع دعاءكم ويعلم حاجتكم وضعفكم ولا يخفى عليه خافية «إذ» أى واذكر يا محمد نعمة الله عليك إذ «يريكهم الله» أى المشركين «فى منامك» أى نومك «قليلا» فأخبرت به أصحابك فسروا وقالوا رؤيا النبى حق ، وصار ذلك سببا لجرأتهم على عدوهم وقوة لقلوبهم «ولو أراكهم كثيرا لفشلتم» أى ولو أراكهم كثيرا لذكرته للقوم ولو سمعوا ذلك لفشلوا أى جبنوا «ولتنازعتم» أى اختلفتم «فى الأمر» أى أمر القتال وتفرقت آراؤكم بين الفرار والقتال «ولكن الله سلم» أى سلمكم من الفشل والتنازع فيما بينكم وقيل: سلمكم من الهزيمة والقتل «إنه» تعالى «عليم» أى بالغ العلم «بذات الصدور» أى بما فى القلوب من الجرأة والجبن والجزع وغير ذلك «وإذ يريكموهم» أيها المؤمنون «إذ التقيتم فى أعينكم قليلا» أى إن الله تعالى قلل عدد المشركين فى أعين المؤمنين يوم التقوا فى القتال ليتأكد فى اليقظة ما رآه النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه وأخبر به أصحابه ، وتقوى بذلك قلوب المؤمنين وتزداد جرأتهم ولا يجبنوا عن قتالهم ، قال ابن مسعود : لقد قللوا فى أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبى : أتراهم سبعين ؟ قال : أراهم مائة ، فأسرنا رجلا منهم فقلنا : كم كنتم ؟ قال: ألفا «ويقللكم فى أعينهم» أى ويقللكم يامعشر المؤمنين فى أعينهم أى المشركين لئلا يهربوا إذا استقلوا عدد المسلمين لم يبالغوا فى الاستعداد والتأهب لقتالهم ، فيكون ذلك سببا لظهور المؤمنين، قال السدى ، قال ناس من المشركين : إن قافلة التجارة قد انصرفت فارجعوا ، فقال أبو جهل : الآن إذ برز لكم محمد وأصحابه ، فلا ترجعوا حتى تستأصلوهم وإنما محمد وأصحابه آكلة جزور، أى قليل يشبعهم جزور واحد - يضرب مثلا فى القلة والأمر الذى لا يعبأ به ، ثم قال : فلا تقتلوهم واربطوهم بالحبال، أراد بقوله ذلك القدرة والقوة . وتقليل الكثير وتكثير القليل ممكن فى قدرة الله

تعالى ، والله تعالى على مايشاء قدير ، وذلك معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم ، والمعجزة هى من خوارق العادات فلا ينكر ذلك « ليقضى الله أمرا كان مفعولا » أى فى علمه وهو إعلاء الإسلام ونصر أهله وإذلال كلمة الشرك وخذلان أهله . والمقصود أنه تعالى ذكر هنا أنه قلل عدد المؤمنين فى أعين الكفار فبين تعالى هنا أنه إنما فعل ذلك لئلا يبالغ الكفار فى تحصيل الاستعداد والحذر فيكون ذلك سببا لانكسارهم « وإلى الله ترجع الأمور » كلها فلا ينفذ إلا مايريد إنفاذه فلا تجرى الأمور على مايظنه العباد ، وفى هذا تنبيه على أن الأمور الدنيا غير مقصودة ، وإنما المراد منها مايصلح أن يكون مرادا ليوم المعاد .

٤٥ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

٤٦ — وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ .

٤٧ — وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ .

٤٨ — وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ .

٤٩ — إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

٥٠ — وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ .

٥١ — ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ .

فى هذه الآيات السبع الكريمة يأمر الله عز وجل المؤمنين بالثبات فى المعركة ، وعدم التزحزح منها ، ويأمرهم بطاعة الله عز وجل ، وباتحاد الكلمة وبعدم التنازع حتى لا يصيبهم الفشل ، وتدركهم الهزيمة ، كما أنه عز وجل يأمرهم بالصبر فى المعركة ؛ وينهى الله عز وجل المؤمنين أن يكونوا مثل المشركين فى جزعهم وبطرهم وريائهم وصدهم عن سبيل الله ، وفى عنادهم ولجاجهم وكفرهم وتزيين الشيطان لهم بالكفر والشرك ومقاومة الرسالة الإلهية ؛ ويصور الله عز وجل موقف المنافقين فى المعركة وسخريتهم بالرسول والمؤمنين ، وسخرية الله عز وجل بهم ، بسبب أعمالهم وما اقترفته جوارحهم .

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمات : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم » أى قاتلتم ، لأن اللقاء اسم للقتال غالباً « فئة » أى جماعة كافرة « فاثبتوا » لقتالهم كما ثبتم فى بدر ولا تحدثوا أنفسكم بفرار « واذكروا الله كثيرا » بقلوبكم وألسنتكم ، قال ابن عباس : أمر الله تعالى أولياءه بذكره فى أشد أحوالهم تنبيهاً على أن الإنسان لا يجوز له أن يخلو قلبه ولسانه عن ذكر الله ، وقيل : المراد من هذا الذكر الدعاء بالنصر والظفر ؛ لأن ذلك لا يحصل إلا بمعونة الله تعالى « لعلكم تفلحون » أى تظفرون بمرادكم من النصر .. « وأطيعوا الله ورسوله » فى سائر ما يأمران به ، لأن الجهاد لا ينفع إلا مع التمسك بسائر الطاعات « ولا تنازعوا » أى تختلفوا فيما بينكم « فتفشلوا » أى تجبنوا « وتذهب ريحكم » أى قوتكم ودولتكم ، فالريح مستعارة للدولة ، شبهها فى نفوذ أثرها بالريح ، وقيل : المراد بها الحقيقة لأنه لم يكن قط نصر إلا بريح يبعثها الله تعالى ، وفى حديث للشيخين : نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور ، « واصبروا » أى عند لقاء العدو ولا تنهزموا عنه « إن الله مع الصابرين »

بالنصر والمعونة ، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم « ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم » أى ليمنعوا غيرهم ولم يرجعوا بعد نجاتها « بطرا » أى فخرا وطغيانا فى النعمة ، وذلك أن النعم إذا كثرت من الله تعالى على العبد ؛ فإذا صرفها فى المفاخرة وكاثر بها الناس وأنفقها فى غير طاعة الله ، فذلك هو البطر فى النعمة ، وإن صرفها فى طاعته وابتغاء مرضاته فذلك شكرها « ورئاء الناس » أى ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة ، وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة وأتاهم رسول أبى سفيان أن ارجعوا فقد سلمت عيركم ، فقال أبو جهل : لا والله حتى نقدم بدرا ـ وكان بدر موسما من مواسم العرب يجتمع لهم فيها سوق فى كل عام ـ ونشرب الخمور وتعزف علينا القيان ونطعم بها من حضرنا من العرب فذلك بطرهم ورياؤهم الناس بإطعامهم ، فوافوها فسقوا المنايا ، فنهى الله تعالى المؤمنين أن يكونوا أمثالهم بطرين مرائين ، وأمرهم أن يكونوا أهل تقوى وإخلاص من حيث أن النهى عن الشىء أمر بضده « ويصدون عن سبيل الله » أى ويمنعون الناس الدخول فى دين الله « والله بما يعملون محيط » لا يخفى عليه شىء لأنه محيط بأعمال العباد كلها فيجازيهم بأعمالهم ، « وإذ » أى واذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم إذ « زين لهم » أى المشركين « الشيطان » أى إبليس « أعمالهم » الخبيثة بأن شجعهم على لقاء المسلمين لما خافوا الخروج من أعدائهم بنى بكر بن الحارث فتبدى لهم فى صورة سراقة بن مالك بن جشعم الشاعر الكنانى وكان من أشرافهم ، وقال : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ـ أى مجير لكم من كنانة « فلما تراءت الفئتان » أى التقى الفريقان « نكص على عقبيه » قال الضحاك : ولى مدبرا ، وقال النضر بن سهيل : رجع القهقرى على قفاه هاربا « وقال إنى برىء منكم » أى من جمعكم « إنى أرى ما ترون » من تأييد الله لمحمد بالملائكة ، ودفع فى صدر الحارث

وانطلق فانهزموا ، قال الحسن : رأى إبليس جبريل بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال قتادة : قال إبليس إنى أرى مالا ترون وقال « إنى أخاف الله » وكذب ، والله ما به مخافة الله ، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة وردهم وأسلمهم ، وقال عطاء : خاف إبليس أن يهلكه الله تعالى فيمن هلك ، وقيل : إنه لما رأى جبريل خافه ، وقيل : لما رأى الملائكة تنزل من السماء خاف أن الوقت الذى أنظر إليه قد حضر ، فقال ما قال إشفاقا على نفسه ، ولما انهزموا وبلغوا مكة قالوا هزم الناس سراقة ، فبلغه ذلك فقال : والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتنى هزيمتكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان ، « والله شديد العقاب » من كلام الشيطان أى إنى أخاف الله لأنه شديد العقاب ، أو كلام مستأنف ، أى والله شديد العقاب لمن خالفه وكفر به ؛ والله تعالى قد أعطى الشيطان قوة ، وأقدره على فعل ذلك كما أعطى الملائكة قوة وأقدرهم على أن يتشكلوا بصورة البشر ، لكن النفس الباطنية لم تتغير فلم يلزم من تغير الصورة تغير الحقيقة ، « إذ » أى واذكر إذ « يقول المنافقون » أى من أهل المدينة ، والمنافق هو من يظهر الإسلام ويخفى الكفر ، كما أن المرائى هو من يظهر الطاعة ويخفى المعصية « والذين فى قلوبهم مرض » أى شك وارتياب وهم قوم من أهل مكة تكلموا بالإسلام ولم يقو الإسلام فى قلوبهم ولم يتمكن ، فلما خرجت قريش إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا معهم إلى بدر ، فلما نظروا إلى قلة المسلمين ارتابوا وارتدوا وقالوا « غر هؤلاء » المسلمين « دينهم » إذ خرجوا مع قلتهم يقاتلون الجمع الكثير توهما أنهم ينصرون بسببه ؛ فقتلوا جميعاً ، منهم قيس بن الوليد بن المغيرة وعلى بن أمية ابن خلف الجمحى والعاصم بن أمية بن الحجاج ، قال الله تعالى فى جوابهم « ومن يتوكل على الله » أى يثق به يغلب « فإن الله عزيز » أى غالب على أمره « حكيم » أى فى صنعه ، يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقل ويعجز عن تصوره بقوله تعالى « ولو ترى » أى عاينت وشاهدت يا محمد « إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة » أى يقبض أرواحهم عند الموت « يضربون وجوههم وأدبارهم »

أى ظهورهم ووجوههم «و» يقولون لهم «ذوقوا عذاب الحريق» أى النار قال ابن عباس : كان المشركون إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيف وإذا ولوا ضربوا أدبارهم ، فلا جرم قابلهم الله بمثله فى وقت نزوع الروح ، وجواب (لو) محذوف، والتقدير لرأيت منظرا هائلا وأمرا فظيعا وعقابا شديدا «ذلك» أى الذى نزل بكم من القتل والضرب والحريق «بما» أى بسبب ما «قدمت أيديكم» من الكفر والمعاصى ، وإنما عبر بالأيدى دون غيرها لأن أكثر الأفعال يكون بها «وأن الله ليس بظلام للعبيد» فلا يعذب أحدا من خلقه بغير ذنب و (ظلام) للتكثير لأجل العبيد أى إنه بمعنى ذى ظلم ..

٥٢ — كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

٥٣ — ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

٥٤ — كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ .

يبين الله عز وجل فى هذه الآيات الثلاث مصير الأمم من قبل حين كفرت بالله ورسالاته فأهلكها الله . ويذكر أن عمل مشركى مكة فى عنادهم ومقاومتهم للرسالة والرسول يشبه عمل آل فرعون فى مقاومتهم لموسى ورسالته ، ويشبه عمل الأمم البائدة التى أقامت على الشرك والطغيان وكفرت بالله ورسله ، فأهلكهم الله بذنوبهم ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر . . والله عز وجل لا يبتدىء الأمم بالعقاب ، وإنما يجازيهم على أعمالهم ، فهو لا يسلب الأمم

نعمه عليها ابتداء ، وإنما يتركها لضميرها ، حتى تبدل الإيمان بالكفر ، وتغير في دين الله ، وتقف مع الشيطان ، فيأخذها الله أخذ عزيز مقتدر ، كما صنع الله عز جل مع آل فرعون والذين من قبلهم حين كذبوا بآيات الله فأهلكهم الله بذنوبهم ، وأغرق آل فرعون ، وهؤلاء كانوا ظالمين مسرفين . .
وفي هذه الآيات الكريمات أصلان عظيمان يجب تدبرهما :

وأول هذين الأصلين أن الله عز وجل لا يغير نعمة أنعمها على أمة حتى تغير الأمة ما بنفسها ، فهو لا يصيب أمة بالمحن والشدائد إلا إذا خرجت على العقيدة الصالحة والأخلاق المثلى وكفرت بالله ورسالته ، وهو عز وجل لا يبتلى شعبا من الشعوب بنقص الرزق والبركة ، ولا يسلبه الحرية والأمن والسلام إلا بسبب أعمال هذا الشعب نفسه ، وبسبب كفره وشركه وخروجه على طاعة الله . . فالأمم لا تمتحن بزوال حريتها واستقلالها ، وبذهاب عزها ومجدها ، وبانقراض غناها وثرائها وحريتها ، إلا بسبب ما تقترف من خروج على الناموس الإلهي ، ونشوز على الله ودينه ، وبسبب ما ترتكب من معاص وذنوب وسيئات . . إن كفر الأمة وشركها وتركها لإقامة العدل هو سبب ما يصيبها من محن في مالها ورزقها وفي حريتها وكرامتها وعزتها .

والأصل الثاني يؤيد هذا الأصل ، وهو أن دمار الأمم والشعوب إنما هو بسبب معاصيهم وذنوبهم وما يقترفون من سيئات ؛ فالذنوب صغيرها وكبيرها وفي مقدمها الشرك والجور ، هي سبب فناء الأمم وهلاكها واضمحلالها ، وتسلط الأمم الأخرى عليها ، ولو وعى ذلك حكام الأمم والشعوب لأراحوا واستراحوا ، واستبداد الحاكمين وجورهم وظلمهم لشعوبهم هو سبب لهلاك أممهم معهم ، وتكون المصيبة أفدح لو كان الشعب نفسه هو الذي اقترف الذنوب والمعاصي والسيئات . . حينئذ يسلط الله عليه أمة أخرى تتحكم في مصيره ، تمحو حريته واستقلاله وعزته وكرامته محوا . . وينتقم الله منه انتقاما مروعا مدمرا ، كما حدث لفرعون وقومه ، ولغيرهم من الشعوب والأمم والمدنيات والحضارات خلال عصور التاريخ .

قوله تعالى «كدأب» أى دأب هؤلاء الكفار مثل دأب «آل فرعون» وهو عادتهم وعلمهم الذى دأبوا فيه أى داوموا عليه فجوزى هؤلاء بالقتل والأسر يوم بدر، كما جوزى آل فرعون بالإغراق، وأصل الدأب فى اللغة إدامة العمل، يقال: فلان دأب فى كذا أى داوم عليه، وسميت العادة دأبا لأن الإنسان مداوم على عادته مواظب عليها «والذين من قبلهم» أى من قبل فرعون، وقوله تعالى «كفروا بآيات الله» تفسير لدأب آل فرعون «فأخذهم الله بذنوبهم» أى بسبب كفرهم كما أخذ الله آل فرعون «إن الله قوى» أى على ما يريده فينتقم ممن كفر وكذب رسله «شديد العقاب» لمن كفر وكذب رسله «ذلك» إشارة إلى ما حل بهم من العقاب «بأن» أى بسبب أن «الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم» أى مبدلا لها بالنعمة «حتى يغيروا ما بأنفسهم» أى بأن يبدلوا ما بهم من الحال إلى حال أسوأ منه، وكان المشركون قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم عبدة أوثان، فلما بعث إليهم رسول الله بالآيات البينات كذبوه وعادوه وتحزبوا عليه ساعين فى إراقة دمه، وغيروا حالهم إلى أسوأ ما كانت عليه، فغير الله تعالى ما أنعم به عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب «وأن الله سميع» لما يقولون «عليم» بما يفعلون.. «كدأب آل فرعون» أى قوم فرعون «والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم» أى المنزلة من السماء على الرسل صلوات الله عليهم «فأهلكناهم بذنوبهم» أى أهلكنا بعضهم بالرجف، وبعضهم بالخسف، وبعضهم بالحجارة، وبعضهم بالرياح العاتية، وكذلك أهلك الله عز وجل قريشا بالسيف «وأغرقنا آل فرعون» أى فرعون وقومه.

وفائدة تكرير هذه الآية مرة ثانية أن فيها فوائد: منها أن الكلام الثانى يجرى مجرى التفصيل للكلام الأول، لأن الكلام الأول فيه ذكر أخذهم، وفى الثانى ذكر إغراقهم وذلك تفصيل؛ ومنها أنه ذكر فى الآية الأولى أنهم كفروا بآيات الله، وفى الآية الثانية أنهم كذبوا بآيات ربهم، «وكل» أى من

الفرق المكذبة أو من آل فرعون وقريش ، كانوا ظالمين ، أنفسهم بالكفر والمعاصى .

وأصل الدأب الاستمرار على الشيء ، لكن المراد به هنا الشأن والعادة ، فهى سنة الله فى الكفار إذن .. كفر آل فرعون بموسى ، وكفر بنوح قومه ، وكذبت عاد هودا ، فأخذ الله هذه الأقوام بما كان من تكذيبهم الرسل الذين أرسل إليهم . لم يظلم أحدا منهم مثقال ذرة ، ونصر رسله والمؤمنين عليهم ، لم تمنعه من ذلك قوة أو كثرة .. وكذلك كان موقف مشركى قريش من رسوله محمد ، فنصره عليهم فى بدر ، وكان نصره له هو مقتضى سنته ! .. وإن الله لقوى شديد العقاب لمن يستحق هذا العقاب ، غير أنه يملى الظالم ؛ لأن لكل شيء أجلا عنده ، فإذا ما أخذ الظالم بعد ذلك لم يفلته كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حقيقة لم يكونوا مؤمنين فكفروا بعد إيمان ولكنهم لم يكونوا يجدون رسلا تهديهم ، فلما وجدوا الرسل ولم يهتدوا ـ صاروا فى حال أسوأ من التى كانوا فيها ، واستوجبوا بسبب هذه الذنوب الهلاك .. ثم كانت الطريقة التى أهلك بها آل فرعون خاصة هى الإغراق . وقد كانوا جميعا ظالمين : لم ينصفوا أنفسهم فيستجيبوا لدعوة الله ، ولم ينصفوا الرسل فيعفوهم من التكذيب والاتهام ، ولم ينصفوا المنعم بالحياة وبالصحة وبالرزق وبسائر النعم ، فيؤمنوا به ويشكروا له .

٥٥ — إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

٥٦ — ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ .

٥٧ — فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ .

٥٨ — وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ .

٥٩ — وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ .

٦٠ — وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ

فى هذه الآيات الست يبين الله عز وجل أن الكافرين شر من الدواب التى لا تفهم شيئاً ، ولا تعى شيئاً ، وأن المشركين الذين قاوموا محمدا ورسالته هم والحيوانات العجم سواء ، ويذكر الله عز وجل بعض أعمال المشركين من نقضهم للعهود التى أبرموها مع الرسول ، ومن تركهم للطاعة والتقوى . . ويوصى الله عز وجل رسوله بأن يشردهم تشريداً إذا ما التقى بهم فى حرب جامعة، لأنهم يؤخرون سير العالم ، ويعوقون ركب التقدم ، ويثبطون همم العاملين والمصلحين ، ويقفون حجر عثرة فى سبيل المجد والكرامة والحرية للشعوب ؛ ويرسم الله عز وجل لرسوله الخطط التى يسير عليها فى علاقاته الدولية بالأمم والشعوب ، فيبين أن الأصل فى المواثيق الدولية أن تؤدى لاستقرار السلم وذهاب شبح الحرب بين الدولتين المتعاقدتين ، فإذا كانت المواثيق التى يوقعها الرسول الكريم مع غير المسلمين لا تؤدى إلى استقرار العلاقات السياسية بينه وبين هؤلاء القوم ، فللرسول صلوات الله عليه حق إعلان انتهاء هذه المواثيق . . بشرط أن يعلن القوم الذى تعاقد معهم بإلغاء هذه المواثيق وزوال مفعولها . . وفى ختام هذه الآيات الست ينذر الله عز وجل المشركين إنذارا شديداً ، ويأمر الرسول بالاستعداد الدائم لملاقاة الأعداء . . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة . « إن شر الدواب عند الله » فى حكمه

وعلمه « الذين كفروا » أي أصروا على الكفر «فهم لا يؤمنون» أي لا يتوقع منهم إيمان « الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة » هم يهود قريظة عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يساعدوا عليه ، فنكثوا ومالوا مع قريش يوم الخندق ، وانطلق كعب بن الأشراف إلى أهل مكة فحالفهم ، وإنما جعلهم الله تعالى شر الدواب ؛ لأن شر الناس الكفار وشر الكفار المصرون منهم ، وشر المصرين الناكثون العهود « وهم لا يتقون » الله فى حذرهم « فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد » قال ابن عباس : فنكل « بهم » أى بهؤلاء الذين نقضوا العهد « من خلفهم » أى من وراءهم من أهل مكة واليمن وغيرهما فيخافون أن تفعل بهم كفعل هؤلاء ، وقال عطاء : أثخن فيهم القتل حتى يخافك غيرهم « لعلهم » أى الذين خلفهم « يذكرون » أى يتعظون بهم « وإما تخافن » أى تعلمن يا محمد « من قوم » عاهدتهم « خيانة » فى العهد بأمارات تلوح لك كما ظهر من قريظة والنضير « فانبذ » أى اطرح عهدهم « إليهم » أى إلى هؤلاء الخائنين « على سواء » أى مستويا أنت وهم فى العلم بنقض العهد بأن تعلمهم به لئلا يكون لهم عذر إذا نشبت الحرب معهم « إن الله لا يحب الخائنين » أى فى نقض العهد أو غيره ، روى أن معاوية كان بينه وبين الروم عهد ، وكان يسير نحو بلادهم حتى إذا انقضى العهد غزاهم ، فجاء رجل على فرس ، يقول : الله أكبر الله أكبر ، فإذا هو عمرو بن عبسة ، فأرسل إليه معاوية يسأله ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من كان بينه وبين قوم عهد فلا ينبذ عقدة ولا يحلها حتى ينقضى أمدها أو ينبذ إليهم على سواء » ، فرجع معاوية ، قال الرازى : وحاصل الكلام فى هذه الآية أنه تعالى أمره بقتال من ينقض العهد على أقبح الوجوه ، وأمره أن يتباعد على أقصى الوجوه من كل ما يوهم نكث العهد ونقضه ، قال المفسرون : إذا ظهرت آثار نقض العهد ممن عاداهم الإمام من المشركين بأمر ظاهر مستفيض ، فإما أن يظهر ظهورا محتملا أو ظهورا مقطوعا به ، فإن كان الأول وجب الإعلام عليه على ما هو مذكور فى هذه الآية ، وذلك أن

قريظة عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أجابوا أباسفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على النبي صلى الله عليه وسلم فحصل للنبي صلى الله عليه وسلم خوف الغدر به وبأصحابه ، فهاهنا يجب على الإمام أن ينبذ إليهم على سواء ويعلمهم بالحرب . وأما إذا ظهر نقض العهد ظهورا مقطوعا به فهاهنا لاحاجة إلى نبذ العهد ؛ بفعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم فى ذمة النبى صلى الله عليه وسلم فلم يرعهم إلا وجيش النبي صلى الله عليه وسلم بمر الظهران ، وذلك على أربعة فراسخ من مكة ؛ ولما بين تعالى مايفعله صلى الله عليه وسلم فى حق من يجده فى الحرب ويتمكن منه ، وذكر أيضا مايجب أن يفعله فيمن ظهر منه نقض العهد ، بين أيضا حال من فاته فى يوم بدر فقد كان فيهم من بلغ فى أذية النبي صلى الله عليه وسلم مبلغا عظيما ، وذلك فى قوله تعالى « ولاتحسبن الذين كفروا سبقوا » أى خلصوا من القتل والأسر يوم بدر « أنهم لايعجزون » الله أى لايفوتونه بهذا السيف فى الانتقام منهم ، إما فى الدنيا بالقتل وإما فى الآخرة بعذاب النار ، وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فيمن فاته من المشركين ولم ينتقم منهم ، فأعلمه الله تعالى أنهم لا يعجزونه (ويحسبن) بالياء وقرىء بالتاء على الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يشرد من صدر منه نقض العهد ، واتفق لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قصدوا الكفار بلا عتاد ولا عدة ، أمرهم فى هذه الآية بالإعداد لهؤلاء الكفار بقوله تعالى « وأعدوا لهم » أى لقتالهم « ما استطعتم من قوة » والإعداد اتخاذ الشيء لوقت الحاجة إليه .. وأسباب القوة متعددة ، من تجهيز الجيوش وتدريبها وتنظيمها ، ومن كثرة عتادها وعددها ، ومن الاختراعات العسكرية الجديدة التى تزيد الجيش قوة ، ومن تعليم شباب الأمة التعليم العسكرى ، وتدريبهم على السلاح والقتال والرمى ، ومن إقامة الحصون وشق الطرق العسكرية وسواها ؛ وفى رواية : ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة : تأديب الرجل فرسه وملاعبة أهله ورميه بقوسه ـ أى نبله ؛ فإنهن من الحق ،

وقيل القوة : التدريب على القتال ، وقيل : إنها الحصون ، وقيل : إنها جميع الأسلحة والآلات التى تكون لنا قوة فى الحرب على قتال الأعداء « ومن رباط الخيل » مصدر بمعنى حبسها فى سبيل الله سواء كانت ذكورا أو إناثا ، وقال عكرمة : المراد الإناث ، وروى عن خالد بن الوليد أنه قال : لا يركب فى القتال إلا الإناث لقلة صهيلها ، وعن أبى محيريز أنه قال كانت الصحابة يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف وإناث الخيل عند الغارة ، وقيل: ربط الفحول أولى لأنها أقوى على الكر والفر ، ويدل للأول ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من حبس فرساً فى سبيل الله إيمانا بالله وتصديقا بوعده فإنه فى ميزانه يوم القيامة ، يعنى فى حسناته ، وعن عروة البارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، الأجر والمغنم « ترهبون » أى تخوفون « به » أى بتلك القوة وبذلك الرباط « عدو الله وعدوكم » أى الكفار من أهل مكة وغيرهم ، وذلك أن الكفار إذا علموا أن المسلمين متأهبون للجهاد مستعدون له مستكملون بجميع الأسلحة وآلات الحرب «و» ترهبون « آخرين من دونهم » أى غيرهم وهم المنافقون لقوله تعالى : « لا تعلمونهم » لأنهم معكم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم « الله يعلمهم » أى إنهم منافقون، والمنافقون إذا شاهدوا قوة المسلمين وكثرة آلاتهم وأسلحتهم كان ذلك مما يخوفهم ويقطع طمعهم من أن يصيروا غالبين ، وقيل : هم اليهود وقيل الفرس : « وما تنفقوا من شىء » وإن قل : « فى سبيل الله » أى طاعته جهاداً كان أو غيره « يوف إليكم » قال ابن عباس : يوفى الله أجره أى لا يضيع فى الآخرة أجره ويعجل الله عوضه فى الدنيا « وأنتم لا تظلمون » أى لا تنقصون من الثواب شيئاً .

هذا هو نهاية الربع الثالث من سورة الأنفال ، وقد تضمن من الأصول الجليلة فى بناء الدولة والمجتمع ما يلى :

١ — أرشد هذا الربع إلى طريقة توزيع الغنائم توزيعا يرضى عنه الله

ورسوله : خمسها يصرف فى مصالح الدولة على خدمة الشعب ، ومن الخمس جزء يصرف للرسول وأهل بيته باعتباره القائد الأعلى لجيش المسلمين . ويحل محل الرسول فى أخذ هذا الحق الحاكم الشرعى الذى بايعه المسلمون بالولاية عليهم عن رضا واختيار وطواعية ، وأربعة أخماس الغنيمة يصرف للجيش الفاتح المنتصر ، تشجيعا ومؤازرة وتكريما .

٢ — التذكير بنعمة الله على المسلمين بنصرهم يوم بدر ، وبإمداده إياهم بالروح المعنوية القوية ، التى هزموا بها المشركين .

٣ — الأمر بالثبات والصمود فى المعركة والنهى عن الفرار ، وتأكيد الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله باعتباره القائد الروحى والقائد العسكرى الأعلى للمسلمين فى حياته صلى الله عليه وسلم ، وكذلك النهى عن التنازع لما يؤدى إليه من فشل .

٤ — نهى المسلمين عن أن يتشبهوا بالمشركين فى البطر والرياء والغرور ، وبيان أمر المشركين وأمر المنافقين ومصيرهما الفظيع فى الآخرة عند الله .

٥ — تذكير المسلمين بمصرع قريش وبمصرع الأمم البائدة من قبل ، ومن بينهم الفراعنة القدامى وسواهم .

٦ — التذكير بأن تمرد الأمم وعصيانها ولجاجها فى مقاومة الرسالة ودعوات السماء ، وخروجها على القوانين التى من شأنها أن تثبت الأمة وتقوى شأنها فى الحياة ، كل ذلك يؤدى إلى فنائها وهلاكها ودمارها .

٧ — الكافرون والمشركون شر عند الله من الدواب ؛ وخاصة هؤلاء الذين ينقضون العهود ، ويخلفون المواثيق .

٨ — أمر الرسول بأن يبيد المشركين إبادة إذا حاربوا الله ورسوله ، لأنهم يعوقون تقدم الحضارة والإنسانية .

٩ — إلغاء العهود المعطاة للمشركين والكافرين إذا حاولوا تدبير الدسائس للإسلام والمسلمين ، وإعلامهم بهذا الإلغاء .

١٠ — الأمر بالاستعداد العسكرى الدائم لملاقاة أعداء الرسالة والدين .

وهكذا تصل الآيات بين الماضى والحاضر ، فتشبه كفرا بكفرا ، وعقابا بعقاب ، ثم تتحدث عن اليهود فتقضى فى موقف المسلمين منهم قضاء حاسما ، ثم تضع هذه القواعد الحربية الهامة :

١ — وجوب الشدة فى معاملة ناقضى العهد ، حتى يعتبر بهم غيرهم ، فتكون للعهود حرمتها .

٢ — نبذ العهد إذا خيف من الطرف الآخر أن يخون فيه . وظهر ذلك فى قوله ، أو عمله ، على أن يتم ذلك بطريقة صريحة واضحة لا تشبه الخيانة فى شىء .

٣ — على الدولة المسلمة أن تعد كل ما تستطيعه من قوة لقتال أعدائها . وأن تدرب الشبان وتزودهم بالسلاح ، وأن تمكن للنظام فى كل مرافقها .

٤ — على المسلمين أن يحصنوا الثغور ، لتكون حدودهم آمنة .

٥ — ليس للسلم المسلح فى الإسلام من هدف إلا تأمين مصالح المسلمين .

٦ — على المسلمين أن ينفقوا فى سبيل تسليح الدولة تسليحاً كاملا ، وإلا ألقوا بأيديهم إلى التهلكة .

الربع الرابع من سورة الأنفال

٦١ — وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

٦٢ — وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ .

٦٣ — وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

ثلاث آيات كريمات فى الدعوة إلى السلام العالمى وفرضه بقوة التشريع والعمل من أجله ، وفى الاحتراز من خداع أعداء الإسلام وخصومه ومكائدهم ، وفى ملء قلوب الرسول والمسلمين بالثقة بأنفسهم وبالله الذى أيد المؤمنين بنصره ، والذى جمع بين المسلمين ، وألف بين قلوبهم ، وقد كانوا قبل الإسلام أعداء وفرقاً متخالفة وعصبيات متنافرة . . ومن كان يصدق أن الأوس والخزرج يجتمعون جميعاً فى وحدة واحدة ، وفى رباط واحد ؟ . وفى الآية الثانية دليل على أن وحدة المسلمين - فضلا عن وحدة العرب - مطلوبة شرعا ، وأن الله عز وجل يحب للمسلمين الاتحاد والتعاون ، ويكره لهم التفرق والاختلاف ؛ والآية الأولى أصل عظيم من أصول القانون الدولى فى الإسلام ، ودعوة جليلة للتعاون الدولى ، وللعمل على حفظ السلام العالمى وحمايته .

والسلام العالمى دعوة إلى التعاون بين الأمم والشعوب ، وحل مشكلاتها بالوسائل السلمية ، وتحريم الحروب التى تقوم للاستعمار والاستغلال ، بل تحريمها لغرض نشر الدين أيضاً : « لكل أمة جعلنا منسكاهم ناسكوه فلا ينازعنك فى الأمر وادع إلى ربك[1] » ، والإسلام بنظمه وروحه وأهدافه يعمل على نشر هذا السلام ويدعو إليه ، ويجعله هدفا من أهداف الإنسان ، « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها[2] » : ويؤيد هذا المبدأ بأن الناس يجمعهم أصل واحد ، وأن التعارف والتآلف والتعاون يجب أن يسودهم ، « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا[3] » . ولذلك ألغى الإسلام العصبيات وفوارق الألوان والأجناس داعيا إلى الوحدة الإنسانية ، وإلى أن يعيش الناس كما بدأوا أمة واحدة : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا[4] » ، « وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم[5] » ، ولم يشرع الإسلام الحرب إلا للدفاع عن النفس أو العقيدة .

---

(١) ٦٧ الحج . (٢) ٦١ الأنفال . (٣) ١٢ الحجرات .
(٤) ١٩ يونس . (٥) ١٤ الشورى .

إن السلام - فى رأى الإسلام - ضرورى للإنسانية ، وتلك قضية لاريب فيها . فالسلام هو أنشودة البشر ، وأمل الإنسانية ، لأنه ضرورى لتقدمها ، هو الذى يساعد على الإنتاج ، وعلى رفاهية الناس وتقدم التجارة والصناعة والزراعة ، وعلى نشر العلوم والفنون والآداب ، وعلى سير الحضارة والمدنية والرقى . أما الحرب فتهدم ولا تبنى ؛ وهى وسيلة للتدمير والتخريب ، تبعث على الذعر والخوف والاضطراب ؛ وتدع الملايين من بنى البشر فى شقاء وظلام ، وتحط من مستوى التفكير والعمل والنشاط بما تنشره من فزع وأحزان ، وتوقف سير المدنية وتعوق تقدم بنى الإنسان . وأنت ترى المفكرين ينادون بتحريم الحروب وتوطيد دعائم السلام بنزع السلاح ، وتحريم شن الحروب ، وبالعمل على توثيق الروابط الفكرية والاقتصادية بين أمم العالم ، وعلى إيجاد أخوة عالمية وزمالة إنسانية ، بل بإيجاد حكومة عالمية . السلام هو المدنية والحضارة ، والحرب هى الدمار والخراب ، والسلام هو أهم عامل يساعد الإنسان فى الحياة على التقدم ، والحرب أفظع ما شهده الإنسان وخاصة فى العصر الحديث الذى كشفت فيه القنبلة الذرية الصاروخية وسواها من وسائل الإفناء . ولقد دعا الإسلام إلى السلام ، وحث عليه ، وأوجب السلام فى المجتمع ، كما أوجبه بين الأمم والشعوب ، وحمل المسلمون رسالة السلام إلى الأمم والشعوب وبشروا بها الإنسانية داعين إلى الرحمة والمحبة والتعاون والخير العام .

وفكرة السلام جزء من العقيدة الإسلامية ، وأساسها أن المجتمع مهما كبر أسرة واحدة ، والناس إخوة فى الله والإنسانية ، وعلى كل فرد أن يعمل على نشر الأمن والسلام والمحبة والتعاون بين الناس ، وأن يؤمن بالإيثار وبالبذل وبالتكافل والتعاون الإنسانى . والإسلام يدعو إلى السلام العالمى وإلى أن تقوم العلاقات بين الأمم والشعوب على التعاون والإخاء والتعارف، وألغى العصبيات وفوارق الألوان والأجناس . فالدين الإسلامى فى جوهره، شريعة السلام والوئام ، ودين الحرية الشخصية والأمن الاجتماعى والإخاء

البشرى ، وهو من أجل ذلك يحارب الفوضى واضطراب والشقاء ، ويحارب الطغيان والإرهاب وكل ما يحول دون تمتع الفرد بحريته ، والمجتمع بأمنه والبشرية بالسلام والإخاء المنشودين . والدين الإسلامى فى اشتراكيته العادلة ، ومبادئه السمحة الواضحة ، وفى عمله على النهوض بالمجتمعات والشعوب فى ظلال التعاون والمحبة ، وفى رعايته لمصلحة الفقير والغنى جميعا ، وفى وضعه للمبادىء العامة التى تكفل للإنسانية الأمن والتقدم والرقى ، هو فى ذلك كله يعزز السلام ، ويعمل على خلق جو جديد ترفرف فيه أجنحة السلام والإخاء والحرية والحضارة والنور والعلم والعرفان . وأنى نظرنا إلى المبادىء الغربية المتصارعة من حولنا ، هالنا الأمر، وأدركنا سمو الإسلام عليها جميعا وعظمته ، فالشيوعية مثلا وهى التى تدعى أنها دعوة للسلام ، تؤمن بالحرب وتدعو إليها ، وتقضى على السلم العالمى ، بإنشائها وتشجيعها للشيوعية الدولية (الكومنترن) التى تحدد أهدافها فى نشر الشيوعية فى العالم ، وتحويل العمال فيه إلى شيوعيين ، وإثارة الاضطرابات والقلاقل السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية فى الدول تمهيدا لثورة الطبقة العاملة . وسيادة الشيوعية ، وإذا كانت هذه الشيوعية الدولية قد ألغيت عام ١٩٤٣ تقربا للغرب والديمقراطيات . فقد حل محلها مكتب الاستعلام الشيوعى (الكومنفورم) ، وموسكو وإن تظاهرت بحل الدولية الشيوعية لاتزال توجه الحركات الشيوعية فى جميع أنحاء العالم[1] ، ولا يترك ستالين فى كتابه (مشاكل اللينينية) أثرا للشك فى اعتقاده الذى لا يتزعزع فى أن من حق روسيا بل من واجبها المقدس أن تستخدم القوة فى إشعال نار الثورة فى البلاد الأجنبية إذا ما لاحت الفرصة لإشعالها ، وجاء فى مقدمة الكتاب : إن دراسة تاريخ الحرب لتقوى الاعتقاد فى النصر النهائى للهدف الجليل الذى عمل له لينين وستالين وهو انتصار الشيوعية فى العالم كله[2] .. وهذه الأفكار

---

(١) ٦٤٢ آثرت الحرية لكرافتشنكو

(٢) ٦٤٧ المرجع السابق

كلها تهدم صرح السلام العالمى ، وتناقض ما يؤمن به الإسلام ويدعو اليه ، والإسلام يحرم أن توجد علاقات دولية قائمة على غير المحبة والتعاون الإنسانى ، ويحارب بذر الشقاق بين الأمم ، ويعادى اللصوصية المستترة ، والجاسوسية المتخفية ، والتمرد على النظام العام فى الجماعات والشعوب .

فأين هذا السمو الإلهى الإسلامى فى الفلسفات القديمة والحديثة على السواء ؟ لقد كان أرسطو وأفلاطون يقرران أن العلاقة بين الدول هى علاقة العداء والمنافسة ، ويقرر أرسطو أن غير اليونانيين أعداء خارجون على القانون ، وإخضاعهم واجب سياسى ، فأين هذا من سماحة الإسلام وجلال مبادئه وأهدافه ؟ . يقول الله تعالى فى هذه الآيات الثلاث الكريمة « وإن جنحوا » أى مالوا « للسلم فاجنح » أى فمل « لها » وعاهدهم ، وتأنيث الضمير فى لها لحمل السلم مع أنه مذكر على ضده وهو الحرب ، قال الشاعر :

السلم تأخذ منها مارضيت به   والحرب يكفيك من أنفاسها الجزع

فأنث ضمير السلم فى تأخذ حملا على ضده وهو الحرب ، وعن ابن عباس : هذه الآية منسوخة بقوله تعالى « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله » ، وعن مجاهد بقوله تعالى « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » وقال غيرهما : الصحيح أن الأمر موقوف على مايرى فيه الإمام صلاح الإسلام ، وأهله من حرب أو سلم ، وليس بحتم أن يقاتلوا أبدا ويجابوا إلى الهدنة أبدا ، وهذا ظاهر ، والسلم بكسر السين ، وقرىء بالفتح « وتوكل على الله » أى فوض أمرك إليه فيما عقدته معهم ليكون عونا لك فى جميع أحوالك « إنه هو السميع » لأقوالهم فهو يسمع لأقوالهم كل ما أبرموه فى ذلك وفى غيره كما يسمعه علانية « العليم » بنياتهم فهو يعلم كل ما أخفوه ، كما أنه يعلم كل ما أعلنوه « وإن يريدوا » أى الكفار « أن يخدعوك » أى بإظهار الصلح ليستعدوا لك « فان حسبك » أى كافيك « الله هو الذى أيدك بنصره » فى سائر أيامك ، وإن أمر النبى صلى الله عليه وسلم من أول حياته إلى وقت وفاته كان أمرا إلهيا وتدبيرا علويا ،

وما كان لكسب الخلق فيه مدخل «و«أيدك» بالمؤمنين» أى الأنصار ، وإذا كان الله تعالى مؤيده بنصره فأى حاجة مع نصره تعالى إلى المؤمنين ؟ الجواب على ذلك أن التأييد ليس إلا من الله تعالى دائما لكنه على قسمين: أحدهما ما يحصل من غير واسطة أسباب معلومة معتادة ، والثانى ما يحصل بذلك ، فالأول هو المراد من قوله تعالى (أيدك بنصره) والثانى هو المراد من قوله تعالى (وبالمؤمنين) والله تعالى هو مسبب الأسباب وهو الذى أقامهم بنصره ، ثم بين تعالى كيف أيده بالمؤمنين بقوله تعالى «وألف» أى جمع «بين قلوبهم» وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث إلى قوم أنفتهم شديدة ، وحميتهم عظيمة ، حتى لو أن الرجل من قبيلة لطم لطمة واحدة قاتلت عنه قبيلته حتى يدركوا ثأره ، ثم إنهم انقلبوا عن تلك الحالة حتى قاتل الرجل أباه وأخاه وابنه ، واتفقوا على الطاعة وصاروا أنصارا ، فإزالة تلك العداوة الشديدة وتبديلها بالمحبة القوية مما لا يقدر عليها إلا الله تعالى ، وصارت تلك معجزة ظاهرة على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال تعالى «لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم» أى تناهت عداوتهم إلى حد لو أنفق فى إصلاح ذات بينهم ما فى الأرض من الأموال لم يقدر على الألفة والصلاح بينهم «ولكن الله ألف بينهم» بقدرته البالغة ؛ فإنه تعالى المالك للقلوب يقلبها كيف يشاء «إنه» أى الله تعالى «عزيز» أى غالب على أمره لا ينفذ فى ملكه إلا ما يريد «حكيم» لا يخرج شىء عن حكمته ، وقيل: الآية فى الأوس والخزرج كان بينهم من الحروب والوقائع ما أهلك سادتهم ورؤساءهم، فأنساهم الله ذلك وألف بين قلوبهم بالإسلام حتى تصادقوا وصاروا أنصارا ، وما ذاك إلا بلطف صنعته وبليغ قدرته .

٦٤ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

٦٥ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم

مِّائَةٌ يَغْلِبُوٓا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ .

٦٦ – الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ .

فى هذه الآيات الثلاث زيادة للروح المعنوية فى نفوس المؤمنين ، ورفع للقوة الروحية ، وتحميس لهم ، وبعث لأرواحهم ونفوسهم وقلوبهم للعمل من أجل الإسلام وخدمته ونشره فى الآفاق .. فالآية الأولى مضمونها أن نصرة الله والتفاف المؤمنين حول الرسول فيه الكفاية كل الكفاية ، وهما سبب النصر بإذن الله ، والآية الثانية والثالثة يدلان على أن القوة المعنوية العالية عند المسلمين تغنى عن الكثرة فى العدد وفى العدد .. يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الثلاث الكريمة .. « يا أيها النبى حسبك » أى كافيك « الله » فهو وحده ولى المؤمنين ، ونصير المخلصين . وليس هذا مكرراً ؛ لأنه تعالى لما وعده بالنصر عند مخادعة الأعداء وعده بالنصر والظفر فى هذه الآية مطلقا على جميع الأحوال ، فلا يلزم حصول التكرار ، لأن المعنى فى الآية الأولى إن أرادوا خداعك كفاك الله تعالى أمرهم ، والمعنى فى هذه الآية عام فى كل ما يحتاج إليه فى الدين ، وقوله تعالى « ومن اتبعك من المؤمنين » المعنى : كفاك الله ، وكفاك المؤمنون .. وهذه الآية نزلت بالبيداء فى غزوة بدر قبل القتال ، وعن سعيد بن جبير : أسلم مع النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث وثلاثون رجلا وست نسوة ثم أسلم عمر ، فتم الله به الأربعين فنزلت هذه الآية « يا أيها النبى حرض المؤمنين » أى حثهم « على القتال » للكفار ، والتحريض فى اللغة كالتحضيض ، وهو الحث على الشىء « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » منهم « وإن يكن منكم مائة » صابرة « يغلبوا

ألفا من الذين كفروا ، وهذا خبر بمعنى الأمر ، أى ليقاتل العشرون منكم المـائتين ، والمائة الألف فالمسلم بعشرة أمثاله ، وذلك يوحى بالصبر ، ويدل على وجوب تدريب المسلمين على شئون الحرب وإعدادهم لخوض المعارك ، وتـكوين جيش منظم ضخم مسلم مستعد لسحق الأعداء. ذلك «بأنهم» أى بسبب أنهم «قوم لا يفقهون» أى جهلة بالله تعالى واليوم الآخر فلا يقاتلون لطلب ثواب وخوف عقاب ، إنما يقاتلون حمية فإذا صدقتموهم فى القتال لا يثبتون معكم ، وكان هذا يوم بدر ، فرض الله تعالى على الرجل الواحد من المسلمين قتال عشرة من الـكافرين فثقلت على المؤمنين ، قال عطاء عن ابن عباس : لمـا نزل التـكليف بهذه الآية صاح المهاجرون ، وقالوا : يارب نحن جياع وعدونا يجد الطعام والشراب ، ونحن فى غربة وعدونا فى أهليهم ، ونحن قد أخرجنا من ديارنا وأموالنا وعدونا ليس كذلك ، فنسخها الله تعالى بقوله : «الآن خفف الله عنكم» أيها المؤمنون «وعلم أن فيكم ضعفا» أى فى قتال الواحد للعشرة «فإن تـكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين» منهم «وإن يكن منكم ألفا يغلبوا ألفين» منهم «بإذن الله» أى بإرادته فردوا من العشرة إلى اثنين ، وقال عكرمة : إنما امر الرجل أن يصبر لعشرة والعشرة لمائة عندما كان المسلمون قليلين. فلما كثروا خفف الله تعالى عنهم ، وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أيما رجل فر من ثلاثة فلم يفر فإن فر من اثنين فقد فر «والله مع الصابرين» بالنصر والمعونة فكيف لا يغلبون ؟

٦٧ — مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

٦٨ — لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

٦٩ — فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

٧٠ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

٧١ — وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

هذه الآيات الخمس (٦٧ — ٧١) فيها بيان لطريقة معاملة الرسول للأسرى فى معركة بدر ، وعتاب له صلى الله عليه وسلم ، لرأفته بالمشركين وإبقائه عليهم ، وتحليل للغنائم وإباحة لأخذها والانتفاع بها ، وعبر عن الانتفاع بالأكل للمبالغة ، وفيها مواساة للأخيار من الأسرى ، وتهديد للخائنين منهم .. ويقول بعض الكتاب ـ فى غزوة بدر خاصة : كان للأسرى قصة لم تتكرر فى الحروب الإسلامية ، فقد كانت أول غزوة فى الإسلام ، وما كان المسلمون حتى وقتها قد اشتد بأسهم . وتمت لهم القوة والسيادة . . ومن ثم لم يكن ينبغى أن يأسروا أحداً من المشركين ، بل كان واجبا أن يقتلوا كل من يقع فى أيديهم ... حتى إذا قوى بأسهم واشتد أمرهم ، وعظم شأنهم فى الأرض ، أصبح من حقهم أن يأسروا ، حيث يمنون على الأسرى أو يقبلون منهم الفداء ! . . « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » : أى ما كان من شأن الأنبياء فى حروبهم أن يأسروا عدوا ، إلا بعد أن يعظم شأنهم فى الأرض ، فلا يكون اتخاذ الأسرى سببا فى ضعفهم وقوة أعدائهم . . وقد ذكر معظم المفسرين أن معنى الإثخان فى الأرض المبالغة فى القتل ، ولكن مجاهدا يرى أن هذا تفسير بالسبب لا بمدلول اللفظ ... على أن للإثخان فى الأرض — أى للتمكن والقوة وعظمة السلطان فيها — سببين لا سببا

واحدا : أحدهما الاستعداد التام للقتال ، وهو الذى يرهب الأعداء ، والثانى تقتيل الأعداء فى الحروب ، وهو الذى يمكن للمنتصر فى الأرض .. ولكن الإسراف فى التقتيل قد يكون عاملا على جمع كلمة الأعداء واستبسالهم ، ومن أجل هذا — ومن أجل أن لقوة المسلمين سببا آخر هو الاستعداد الكامل — قال الله تعالى : « حتى يثخن فى الأرض » ، ولم يقل حتى يثخن فى القتل ! . . روى أنه صلى الله عليه وسلم أتى يوم بدر بسبعين أسيراً ، فيهم العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم وعقيل بن أبى طالب ، فاستشار فيهم ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : قومك وأهلك ، استبقهم لعل الله يتوب عليهم وخذ منهم الفدية تقو بها أصحابك ، فقال عمر رضى الله عنه : كذبوك وأخرجوك فقدمهم واضرب أعناقهم ، فإن هؤلاء أئمة الكفر ، وإن الله تعالى أغناك عن الفداء : مكن عليا من عقيل ، وحمزة من العباس ، ومكنى من فلان — وهو نسيب لهم — فنضرب أعناقهم ، وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله انظر واديا كثير الحطب فأدخلهم فيه ، ثم اضرم عليهم نارا ، فقال له العباس : قطعت رحمك ؛ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يجبهم ، ثم دخل فقال ناس : يأخذ بقول أبى بكر ، وقال ناس : يأخذ بقول عمر ، وقال ناس : يأخذ بقول ابن رواحة ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن الله لين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ، قال : « فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم » ، ومثل عيسى فى قوله « وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » ، ومثلك يا عمر مثل نوح قال « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » ، ومثل موسى حيث قال « ربنا اطمس على أموالهم » ، ثم قال الرسول لعمر : يا أبا حفص — وكان ذلك أول ما كناه — أتأمرنى أن أقتل العباس ؟ فجعل عمر يقول : ويل عمر ثكلته أمه ، ثم قال لأصحابه : أنتم اليوم عالة ولا يفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق ، فقال ابن مسعود : إلا سهيل بن عمر فإنى سمعته يذكر الإسلام . فسكت رسول

الله صلى الله عليه وسلم واشتد حزنى ، فما رأيتنى فى يوم أخوف من أن تقع على الحجارة من السماء من ذلك اليوم ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلا سهيل وعبيدة ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن شئتم قتلتموهم وإن شئتم فديتموهم ، فقالوا : بلى نأخذ الفداء ، وكان فداء الأسارى أربعين درهما ، وقال قتادة : كان الفداء يومئذ لكل أسير أربعة آلاف ، قال عمر : فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضى الله عنه يبكيان ، قلت : يا رسول الله أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد تباكيت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبكى أصحابك فى أخذ الفداء ، ولقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة ، يشير إلى شجرة قريبة منه « تريدون » أيها المؤمنون « عرض الدنيا » بأخذ الفداء من المشركين « والله يريد الآخرة » وإنما سمى منافع الدنيا عرضا لأنها لاثبات لها ولادوام ، فكأنها تعرض ثم تزول بخلاف منافع الآخرة « والله عزيز » لايقهر ولا يغلب « حكيم » أى لا يصدر منه فعل إلا وهو فى غاية الإتقان ، قال ابن عباس : كان هذا يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل ، فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله تعالى فى الأسرى : « فإما منا بعد وإما فداء » ، فجعل نبيه والمؤمنين فى أمر الأسرى بالخيار : إن شاءوا قتلوهم وإن شاءوا فادوهم وإن شاءوا أعتقوهم ، فهذه الآية نسخت تلك ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : كانت الغنائم حراما على الأنبياء والأمم ، وكانوا إذا أصابوا مغنما جعلوه للقربان ، وكانت تنزل صاعقة من السماء فتأكله ، فلما كان يوم بدر أسرع المؤمنون فى الغنائم وأخذ الفداء ، فأنزل الله تعالى « لولا كتاب من الله سبق » أى لولا قضاء سبق فى اللوح المحفوظ بأن يحل لكم الغنائم « لمسكم » أى لنالكم « فيما أخذتم » أى من الفداء « عذاب عظيم » ، وقال الحسن ومجاهد : لولا كتاب من الله سبق أنه لا يعذب أحدا ممن شهد بدرا مع النبى صلى الله عليه وسلم ، قال ابن إسحق : لم يكن من المسلمين أحد إلا أحب الغنائم إلا عمر ، فإنه أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الأسرى ، وسعد

فقال ابن معاذ قال : يا رسول الله كان الإثخان فى القتل أحب إلى من استبقاء الرجال، فقال صلى الله عليه وسلم: لو نزل من السماء عذاب مانجا منه غير عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ ، وروى : لما نزلت هذه الآية كف رسول الله صلى الله عليه وسلم أيديهم أن يأخذوا من الفداء « فكلوا مما غنمتم » أى من الفداء فإنه من جملة الغنائم ، « حلالا طيبا » فأحل الله الغنائم بهذه الآية لهذه الأمة ، وقال صلى الله عليه وسلم : أحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : لم تحل الغنائم لأحد قبلنا ثم أحل لنا الغنائم ، ذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا ، والفاء فى قوله تعالى (فكلوا) للسبب ، والسبب محذوف تقديره : أبحت لكم الغنائم فكلوا ، وفائدة (حلال) إزاحة ما وقع فى نفوسهم منه بسبب تلك المعاتبة ، ولذلك وصفه بقوله (طيبا) ، « واتقوا الله » فى مخالفته « إن الله غفور » غفر ذنوبكم « رحيم » أباح لكم ما أخذتم ؛ وقوله تعالى (واتقوا الله) إشارة إلى المستقبل وقوله تعالى « إن الله غفور رحيم) إشارة إلى الحال الماضية . ولما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الفداء من الأسرى وشق أخذ أموالهم منهم ذكر الله تعالى هذه الآية مواساة ، فقال عز من قائل « يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا » أى خلوص إيمان وصحة نية « يؤتكم خيرا مما أخذ منكم » من الفداء ،قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : نزلت فى العباس وعقيل ابن أبى طالب ونوفل بن الحارث ، كان العباس أسيرا يوم بدر ومعه عشرون أوقية من الذهب أخرجها ليطعم الناس ، فكان أحد العشرة الذين ضمنوا الطعام لأهل بدر ، فلم تبلغه التوبة حتى أسر ، فقال العباس : كنت مسلما إلا أنهم ألزمونى ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن تكن ما تذكره حقا فالله يجزيك، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، قال العباس : وكلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرد عن ذلك الذهب لى فقال : أما شىء خرجت به تستعين به علينا فلا ، قال : فكلفنى فداء ابن أخى عقيل بن أبى طالب عشرين أوقية ، وفدى نوفل بن الحارث ، فقال العباس : تركتنى يا محمد أتكفف قريشا ،

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنت دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها : ما أدرى ما يصيبنى فإن حدث بى حادث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل ، فقال العباس : أنا أشهد أنك صادق وأن لا إله إلا الله وانك عبده ورسوله ، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله ، ولقد دفعت إليها فى سواد الليل، ولقد كنت مرتابا فى أمرك، فأما إذ أخبرتنى بذلك فلا ريب ، قال العباس : فابدلنى الله خيرا من ذلك وأعطانى زمزم ما أحب أن لى بها جميع أموال مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربى ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفا فتوضأ لصلاة الظهر ، ما صلى حتى فرقه ، وأمر العباس أن يأخذ منه فأخذ ما قدر على حمله وكان يقول : هذا خير مما أخذ منى وانا أرجو المغفرة « ويغفر لكم والله غفور رحيم » اختلف المفسرون فى أن الآية نزلت فى العباس خاصة أو فيه وفى غيره ، فقال البعض : إنها نزلت فى الجميع ، قال الرازى : وهذا أولى لأن ظاهر الآية يقتضى العموم من ستة أوجه :

أحدها : قوله تعالى « قل لمن فى أيديكم » .

ثانيها : قوله تعالى « من الأسرى » .

ثالثها : قوله تعالى « إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا » .

رابعها : قوله تعالى « يؤتكم خيرا » .

خامسها : قوله تعالى « مما أخذ منكم » .

سادسها : قوله تعالى « ويغفر لكم » .

فدلت هذه الألفاظ الستة على العموم ، فما الموجب للتخصيص ؟ وأقصى ما فى الباب أن يقال: سبب نزول هذه الآية هو العباس إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب « وإن يريدوا » أى الأسرى « خيانتك » أى بما أظهروا من القول « فقد خانوا الله » بالكفر ونقض ميثاقه المأخوذ بالعهد « من قبل » أى قبل بدر « فأمكن منهم » ببدر قتلا وأسرا فليتوقعوا مثل ذلك

إن عادوا ، والله عليم حكيم ، أى بالغ الحكمة فهو يوهن كيدهم ويفل عزمهم . ويروى أن المراد بذلك هو أبو عزة الجمحى ، فإنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم فى المن عليه بغير شىء لفقره ثم خان ، فظفر به فى غزوة حمراء الأسد عقب يوم أحد أسيرا فاعتذر له ، وسأله فى العفو عنه فقال : (لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين) ولم يعف عنه .

٧٢ — إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

٧٣ — وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ .

٧٤ — وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ .

٧٥ — وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

فى هذه الآيات الأربع بيان للصلات بين المهاجرين والأنصار وولاية[1] المؤمنين بعضهم بعضا من مهاجرين أولين وأنصار ، ومهاجرين بعد الحديبية، ومؤمنين فى دار الكفر . . . ثم ولاية الكفار بعضهم لبعض . . . والمراد بالولاية هنا ـ التعاون فى شئون الحياة ، والتناصر فى القتال ؛ لاشتراك الحقوق والمرافق والمصالح ، حتى ليرث الولى وليه إن لم يكن له وراث ، ويكفيه إذا كان محتاجا ويغيثه حين يضطرب . . لا الولاية بولاية الإرث ؛ لأن المسلمين كانوا يتوارثون فى أول الأمر بالإسلام والهجرة دون القرابة . وذلك أن السورة التى نزلت فى بدر ـ كما قال ابن عباس وغيره ـ قد عالجت شئون الحرب والسلم ، فكان من الطبيعى أن تعالج علاقة المسلمين بعضهم ببعض ، وعلاقتهم بالكفار فى الحرب والسلم على السواء ، ويقتضى هذا بطبيعة الحال أن تكون الولاية هنا عامة ، ليست مقصورة على حكم مدنى جزئى ، من أحكام الأموال فقط . ولقد تحدثت عن المؤمنين بأنواعهم الأربعة ، فوصفت ثلاثة منها بخير ما فى كل منها ، ليترتب على هذه الأوصاف إثبات الولاية له ، وما نحسب هذه الولاية هى ولاية الميراث فقط بأى حال ، فإن ولاية الميراث لا يحتاج إثباتها إلى كل هذا ؟ . . وأنذرت الآيات المؤمنين إن لم يكن بعضهم أولياء بعض بوقوع الفتنة والفساد الكبير فى الأرض ، وهو إنذار بشىء لا يترتب على عدم التوارث بحال ؟ إذ المال فى ذلك الوقت لم يكن شيئا ذا بال بجانب العقيدة، فما كان اختلال نظام التوارث فيه ليحدث فتنة فى الأرض، ويسبب فسادا كبيرا ! . .

وفى الحديث عن النوع الثالث من المؤمنين ـ وهم المؤمنون الذين لم يهاجروا ـ قررت الآيات أنه ليس للمؤمنين من المهاجرين والأنصار شىء من ولايتهم ، وأن على هؤلاء المؤمنين أنفسهم أن ينصروهم فى الدين إذا طلبوا منهم ذلك ، ضد قوم ليس بين المؤمنين وبينهم ميثاق . . . فجعلت لهم على المهاجرين والأنصار حقا ليس لهؤلاء وأولئك عليهم ، وعبرت عن هذا الحق بصورتين هما الولاية والنصرة ، فهما إذن شىء واحد ، والولاية عامة إذن لا خاصة ! . .

(١) ١٦٢ تفسير سورة الأنفال

أما ولاية أولى الأرحام بعضهم لبعض ، فهى ولاية منشؤها الفطرة السليمة ، وفى تقرير هذه الولاية تقول الآية : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » ؛ فكل قريب ولى لقريبه إذن ، ولكن على أن يكونا مؤمنين فى دار الإسلام ؛ لأن ذلك هو ما يقتضيه السياق ويستلزمه !.. نعم إن المؤمنين فى دار الإسلام متناصرون متعاونون ، فهم أولياء دون قرابة ، وهذا هو ما تقرره الآيات من قبل .. لكنهم أكثر تناصرا وتعاونا عندما يكونون أقارب ؛ يجمعهم رحم واحد ، وتربط بعضهم ببعض - إلى صلة الإيمان — صلة الرحم ، وهذا هو مايشعر به (التفضيل) هنا ! .. إن صلة الرحم والبر بهم والشعور بأنهم أولى من سواهم بهذا البر وهذه الصلة — أمر توجبه الفطرة ، وقد تحتمه الغريزة .. ثم هو (فى كتاب الله) أى فى حكمه الذى كتبه على عباده المؤمنين، وأكده عندما قال فى كتابه الحكيم فى سورة النساء: «واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام !.. وأخيراً يختم الله سورة الأنفال فيقول: «إن الله بكل شىء عليم» وإنه لواسع العلم ، عظيم الإحاطة بكل شئون المؤمنين والكفار ، فليعلم المؤمنون والكفار ذلك ، وليحسبوا حسابه .. يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الأربع الكريمة :

« إن الذين آمنوا » أى بالله ورسوله « وهاجروا » أى من بلاد الشرك وهم المهاجرون الأولون هجروا أوطانهم وعشائرهم وأحبابهم ، حبا لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم « وجاهدوا » أعداء الإسلام « بأموالهم » مهما كانت قليلة « وأنفسهم » بإقدامهم على القتال مع شدة الأعداء وكثرتهم ، وقدم المال لأنه سبب قيام النفس « فى سبيل الله » أى فى سبيل إعزاز دين الله ونشره والتمكين له والدفاع عن الرسول « والذين آووا » أى من هاجر إليهم من النبى وأصحابه ، فأسكنوهم فى ديارهم وقسموا لهم من أموالهم وعرضوا عليهم أن ينزلوا لهم عن بعض نسائهم ليتزوجوهن ؛ وهم الأنصار « ونصروا » أى الله ورسوله والمؤمنين ، نالوا هذين الوصفين الشريفين فكانوا فى الذروة من المجد فى الدنيا والآخرة ، وإن كان المهاجرون الأولون

أعلى منهم لسبقهم فى الإيمان الذى هو أس الفضائل ولحلهم الأذى من الكفار زمانا طويلا ، وصبرهم على فرقة الأهل والأوطان « أولئك » أى المهاجرون والأنصار « بعضهم أولياء بعض » أى دون أقاربهم من الكفار ، وقد نزلت فى الميراث . فكانوا يتوارثون بالهجرة. فكان المهاجرون والأنصار يتوارثون دون ذوى الأرحام حتى إذا كان فتح مكة انقطعت الهجرة، وتوارث ذوو الأرحام حيث كانوا ، وصار ذلك منسوخا بقوله تعالى « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » والذين آمنوا ولم يهاجروا » أى امنوا وأقاموا بمكة « مالكم من ولايتهم من شىء » أى فلا إرث بينكم وبينهم ولا نصيب لهم فى الغنيمة « حتى يهاجروا » أى إلى المدينة « وإن استنصروكم فى الدين » ولم يهاجروا « فعليكم النصر » أى فيجب عليكم أن ينصروكم على المشركين « إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » أى عهد فلا تنصروهم عليهم وتنقضوا عهدكم « والله بما تعملون بصير » فى ذلك ترغيب فى العمل بما حث عليه فى الإيمان والهجرة وغير ذلك مما تقدم .. وفيه أيضا ترهيب من العمل بأضدادها « والذين كفروا بعضهم أولياء بعض » أى فى النصرة لأن كفار قريش كانوا يخاصمون اليهود . فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم تعاونوا عليه جميعا .. وبعضهم أولياء بعض كذلك فى الميراث ، فيرث بعضهم بعضا ولا إرث بينكم وبينهم « إلا تفعلوه » أى ما أمرتم به من التواصل بينكم وتولى بعضكم لبعض حتى فى الميراث . وقطع العلائق بينكم وبين الكفار « تكن » أى تحصل « فتنة » أى عظيمة « فى الأرض » بضعف الإيمان وقوة الكفر « وفساد كبير » فى الدين ، ولما تقدمت أنواع المؤمنين: المهاجر والناصر والقاعد ، وذكر أحكام موالاتهم ، أخذ يبين تفاوتهم فى الفضل بقوله تعالى : « والذين آمنوا » أى بالله ورسوله وما أتى به « وهاجروا » فى الله « وجاهدوا فى سبيل الله » بما تقدم من المال والنفس وغيرهما فبذلوا الجهد فى إذلال الكفار « والذين آووا » أى من هاجر إليهم « ونصروا » أى حزب الله « أولئك هم المؤمنون » أى الكاملون فى الإيمان « حقا » أى لأنهم حققوا إيمانهم بتحقيق مقتضاه

من الهجرة والجهاد وبذل المال ونصرة الحق، ثم وعدهم الله عز وجل وعدا كريما بقوله تعالى «لهم مغفرة» أى لزلاتهم وهفواتهم، ولما ذكر تطهيرهم بالمغفرة ذكر تزكيتهم بالرحمة بقوله تعالى «ورزق» أى من الغنائم وغيرها فى الدنيا والآخرة «كريم» أى لا تبعة ولا منة منه، ثم ألحق بهم فى الأمرين من استلحق بهم ويتسم بسمتهم بقوله تعالى: «والذين آمنوا من بعد» أى بعد السابقين إلى الإيمان والهجرة «وهاجروا» أى لاحقين السابقين، وعن ابن عباس رضى الله عنهم أنهم من هاجر بعد الحديبية، قال: وهى الهجرة الثانية «وجاهدوا معكم» أى من تجاهدونه من أعداء الإسلام ومن حزب الشيطان «فأولئك منكم» أى من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار فلهم مالكم وعليهم ماعليكم من المواريث والمغانم وغيرهما. لأن الوصف الجامع هو المدار للأحكام وإن تأخرت رتبتهم عنكم بما أفهمته أداة البعد «وأولو الأرحام» أى ذوو القرابات «بعضهم أولى ببعض» قال ابن العباس: كانوا يتوارثون بالهجرة والإخاء حتى نزلت هذه الآية، فبين الله تعالى بها أن سبب القرابة أقوى وأولى من سبب الهجرة والإخاء، ونسخ بها ذلك التوارث «فى كتاب الله» أى القرآن، وتمسك أصحاب أبى حنيفة رحمه الله بهذه الآية على توريث ذوى الأرحام، وأجاب عنه الشافعى رحمه الله تعالى بأنه لما قال: (فى كتاب الله)، كان معناه فى حكم الله الذى بينه فى سورة النساء، فصارت هذه السورة مقيدة بالأحكام التى ذكرها فى سورة النساء فى قسمة المواريث وإعطاء أهل الفروض فروضهم وما بقى فللعصبات، فوجب أن يكون المراد من هذا هو ذاك فقط فلا يتعدى إلى توريث ذوى الأرحام «إن الله بكل شىء عليم» أى إن هذه الأحكام التى ذكرتها وفصلتها كلها حكمة وثواب وصلاح، وليس فيها شىء من العبث والباطل، لأن العالم بجميع المعلومات لا يحكم إلا بالصواب، ونظيره أن الملائكة لما قالوا «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء» قال تعالى مجيبا لهم: «إنى أعلم مالا تعلمون» أى كما علمتم بكونى عالما بكل المعلومات، فاعلموا أن حكمى يكون منزها عن الغلط .. فكذلك ما هنا.

* * *

هـذه هى نهاية الربع الرابع والأخير من سورة الأنفال ، وقد تضمن من الأصول الكريمة الجليلة ما يلى :

١ — الدعوة إلى السلام ، والحرص عليه ، والإيمان به ، والعمل من أجله . .

٢ — وعد الله عز وجل لرسوله الكريم بنصره نصرا مؤزرا على أعدائه وخصومه ، حتى يكون هذا معجزة من الله ، كما كان تأليف الله عز وجل لقلوب المسلمين ـ على الرغم من اختلافهم إلى عصبيات وأهواء وفرق متخالفة ـ معجزة كذلك .

٣ — تحميس المسلمين ، ودعوتهم إلى الصبر والجلد والثبات والإصرار فى قتال المشركين ، وأن يصمدوا فى المعارك حتى لو كان الواحد من المسلمين أمامه عشرة من المشركين ، فضلا عن أن يكون أمامه اثنان .

٤ — تصريف أمر الأسرى ، وبيان الوجوه التى يعاملهم الرسول صلى الله عليه وسلم بمقتضاها .

٥ — تحليل الأكل من الغنائم ، والانتفاع بها فى مختلف وجوه الانتفاع .

٦ — مواساة الأسرى الذين أخلصوا لله ووعدهم بتعويض الله الكامل لهم عما بذلوه من فداء ، وتهديد الخائنين منهم تهديداً شديداً .

٧ — بيان الولاية بين المؤمنين بعضهم والبعض الآخر ، وبين الكافرين بعضهم والبعض الآخر ، وبين أولى الأرحام .

وبذلك ينتهى الربع الأخير من هـذه السورة ، وتنتهى بانتهائه سورة الأنفال . . .

نظرة عامة فى سورة الأنفال

(١)

سورة الأنفال اشتملت على خمس وسبعين آية ، تقع فى أربعة أرباع أو نصف الجزء . وتنتظم أحكاما كثيرة وأصولا جليلة ، وقواعد عامة لبناء الدول وعمرانها وحضارتها ؛ كما تنتظم تحذيرا مما نزل بالأمم السابقة من عذاب ودمار ، ونصحا بالإقلاع عن الذنوب التى هى سبب غضب الله وعذابه .

(٢)

وقد رأينا فى الربع الأول من سورة الأنفال ، كيف تحدث الله عزوجل عن غنائم الحروب الإسلامية المشروعة للجهاد فى سبيل الله وفى سبيل دينه الحق ، وأنها لله ورسوله . . ويدعو الله عز وجل المؤمنين إلى التقوى وإصلاح ذات البين ، وإلى طاعة الله ورسوله . . ثم يصف القرآن الكريم المؤمنين بصفاتهم الحقيقية الجدير بهم أن يكونوا عليها ، والجديرة بهم أن يتبعوها ويتصفوا بها : من خشية الله ، ومن ازديادهم إيمانا كلما سمعوا كتاب الله ، ومن التوكل على الله حق التوكل ، ومن إقامة الصلاة ، وأداء الزكاة . . ووعدهم الله عزوجل بالمغفرة والرزق الكريم فى الدنيا والآخرة . ثم يتحدث الله عز وجل عن نصره للرسول وللمؤمنين فى بدر الكبرى ، وعن هزيمته للشرك والمشركين . . ويدعو إلى الثبات فى المعارك ، والصمود فى وجه شدائد الحروب . . ويدعو المؤمنين إلى طاعة الله ورسوله ، وإلى ترك الفرار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحروب والأزمات والشدائد .

وفى هذا الربع نداءان جليلان للمؤمنين ، فالنداء الأول هو « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار » ، وفى هذا أعظم النهى عن الفرار من ميدان المعركة ، وقوانين الدول الحديثة تجعل جزاء الفار من المعركة الإعدام فوراً دون تردد أو إبطاء .

والنداء الثانى هو قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون » أمر الله عز وجل بطاعة الله ورسوله ، وأمر بالوقوف معه فى المعركة ، وأمر بعدم الفرار .. وهذا كله من أعظم توجيهات القرآن الكريم فى شأن الحروب .

(٣)

أما الربع الثانى من هذه السورة ففيه يذكر الله عز وجل المشركين ويصفهم بالدواب ، وهم على الحقيقة شر منها ، لأنهم لا يسمعون الحق ولا يعتبرون به ، ولا يعملون به . ويدعو الله عز وجل المؤمنين إلى الاستجابة لله والرسول ، والرسول لا يدعوهم إلا لما يحييهم ، وإلى الحذر من الفتن التى لا تصيب الظالمين خاصة ، بل تؤثر على كيان الأمة عامة .. ويدعوهم الله عز وجل إلى التذكر بنعم الله عليهم ، إذ أيدهم بنصره وأعزهم وقد كانوا ضعفاء مستضعفين فى الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس من حولهم .. كما ينهاهم عن خيانة الله وخيانة العهود والمواثيق . ويرشدهم إلى أن لا يغتروا بالأموال والأولاد ، فالأموال والأولاد قد تكون فتنة من الله ، والله عنده أجر عظيم . ثم يطلب الله عز وجل من المسلمين تقوى الله ، فتقوى الله الحقة تكون وقاية لهم وحاجزاً يمنعهم من الشر ، وفرقانا يفرق لهم بين الحق والباطل . وبها يكفر الله عنهم السيئات ، ويغفر لهم الذنوب . ثم يذكر الله عز وجل رسوله بفضله عليه حين نصره وأعزه وحماه ومنعه من مكر المشركين وإيذائهم واضطهادهم وكفرهم برسالته ، ولجاجهم وعنادهم واستمرارهم على مقاومة دعوته ، ويذكر الله عز وجل المشركين وكيف كانوا يقابلون دعوة الإسلام بالسخرية والهزء ، وكيف كانوا ينفقون الأموال الطائلة فى سبيل مقاومة الإسلام والمسلمين ، ويحذرهم الله عز وجل من سوء المصير ، ويأمر الله عز وجل رسوله بقتالهم حتى يعودوا إلى الله وإلى الحق وإلى الدين المستقيم .

وفى هذا الربع ثلاثة نداءات جليلة من الله عز وجل للمؤمنين :

١ — يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم .

٢ — يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ، واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم.

٣ — يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ، ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم .

وهى كلها ذات مغزى جليل ، بل إن هذه النداءات هى أهم شعائر الإسلام وأصوله وأركانه وقواعده .

والأمر الجليل الذى اشتمل عليه هذا الربع هو الاستجابة لله وللرسول إذا دعا المسلمين لما يحييهم ، وهو أمر عظيم الأهمية ، كبير الخطر ، جليل الأثر . . فالله عز وجل يأمر المؤمنين برسالة محمد عليه السلام أن يستجيبوا لرسوله إذا دعاهم ، وإن الرسول ليدعو المؤمنين إلى ما يحييهم . فمن يرفض الدعوة إلى الحياة ؟ إنه يقول لهم : استجيبوا أيها الأحياء وأيها المؤمنون للرسول إذا يحييكم . وإذن فالحياة التى يدعوهم إلى ما يمنحهم إياها ليست هى الحياة التى يشاركهم فى الاتصاف بها الكفار والدواب . وهذا الذى يدعوهم إليه الرسول فيحييهم ليس هو الإيمان ، لأنهم لم يدعوا إليه إلا بسبب أنهم مؤمنون . ومع هذا لم يتفق المفسرون على معناه ، فتعددت أقوالهم فيه ، قيل : هو الجهاد فى سبيل الله ، إذ هو الذى يكفل للمؤمنين حياة القوة والعزة والسلطان ، وهو الذى يحمى هذه الحياة ويصونها بعد أن يظفروا بها . وقيل : بل هو القرآن ، إذ هو والسنة المبينة له وسيلة المؤمنين إلى الحياة ، وفيهما كل مقوّمات الحياة الحرة القوية الكريمة التى يدعو إليها الرسول . . وقيل : بل هو الإسلام والإيمان ، باعتبار ما كان يتجدد من الأحكام ، وثمرته فى القلوب والأعمال ، وباعتبار ما فى كلمة « استجيبوا » من قوة ومبالغة فى الإجابة .. وقيل : بل هو العلم بالله وسننه فى خلقه ، وبأحكام شرعه ، وبالحكمة والفضيلة والأعمال النبيلة التى تكمل بها الفطرة الإنسانية فى الدنيا ، وبها تستعد

للحياة الأبدية فى الآخرة .. وحقيقة يكفل الجهاد للمؤمنين حياة القوة والعزة، ولكن لم لا يكون الجهاد عملا من أعمال كثيرة أمرت الآية بها ؟ وكانت الأحكام تتجدد على عهد الرسول فيزداد المؤمنون بمعرفتها والعمل بها حياة ، ولكن الآية لا تخاطب المؤمنين على عهد الرسول وحدهم ! . . وإذن فالرسول يدعو إلى القرآن وبيانه من السنة ، وإلى العلم بالله وما يستلزمه هذا العلم من عمل وخلق ... وفى كلا هذين للمؤمنين حياة ، لأن كليهما يغذى الروح ، ويهدى العقل ، ويوقظ الضمير ، ويقف نزوات النفس حيث ينبغى أن تقف ! . . إن المؤمن لا ينشد الحياة ، ولكنه ينشد شرف الحياة وسموها .. وهذه الغاية هى التى حرصت عليها ، ودعت إليها بقوة تعاليم الإسلام ومبادئه ، كما يقرها كتاب الله وتبينها سنة رسوله . فلنفزع إذن إلى كتاب الله كلما أحسسنا أن مادية الحياة تصدع رؤسنا ، ولتنهل من سنة رسوله كلما أضفتنا صحراء هذه المادية ورمت قلوبنا بالظمأ ! [1].

وفى هذا الربع أصل جليل آخر ، هو نهى الله عز وجل للمسلمين عن الخيانة ، وعن فتنة الأموال والأولاد حتى يحذروها . . . والوفاء بالأمانة وعدم الافتتان بالمال والولد ، والله عز وجل إذ يحذر المسلمين من الخيانة ، ينهى عن خيانتهم لله والرسول ، وعن خيانتهم لأماناتهم . . . فما الأمانة التى يجب أداؤها لله ورسوله ؟ وما أماناتهم ؟ . . قيل : الأقرب أن خيانة الله غير خيانة رسوله ، وخيانة الرسول غير خيانة الأمانة ؛ ولقد فسرت الخيانة لله ورسوله بأنها تعطيلهم الفرائض والسنن ، أو إضمارهم غير ما يظهرون ، أو غلولهم فى الغنائم . وروى عن ابن عباس أنه قد فسر خيانة الله بترك فرائضه وارتكاب معصيته ، والأمانة بكل ما ائتمن الله عليه العباد ... واعتمد كثير من المفسرين على ماروى من أسباب نزول الآية وهى كثيرة متضاربة : فهذا جابر يروى أن السبب هو أن رجلا من المنافقين كتب إلى أبى سفيان : إن

---

(١) ص ٩٠ تفسير سورة الأنفال .

محمداً يريدكم فخذوا حذركم . بعد أن أعلم الله رسوله بمكان أبى سفيان ، فأعلم به الرسول المؤمنين وأوصاهم بكتمانه . وهؤلاء عبدالله بن قتادة والزهرى والكلبى والسدى وعكرمة ـ يروون أن السبب هو حادثة أبى لبابة المشهورة ، مع بنى قريظة من اليهود . وهذا أبو بكر الأصم يحكى عن الزهرى والكلبى ـ أيضاً ـ أن السبب فى نزولها هو حاطب بن أبى بلتعة ؛ فقد كتب إلى أهله لما هم النبى صلى الله عليه وسلم بالخروج إليهم . وسواء أصحت هذه الأسباب أم لم تصح ـ فإن السبب لا يقيد اللفظ العام بحال ، والله ينهى المؤمنين هنا عن خيانته : أى عن تعطيل فرائضه ، وتعدى حدوده ، وانتهاك محارمه التى بينها لهم فى كتابه . . وينهاهم عن خيانة الرسول : أى عن ترك سننه إلى غيرها والانصراف عن بيانه لكتاب الله إلى أهوائهم ، ومخالفة أمره إلى أوامر أمرائهم . وينهاهم عن خيانة أماناتهم فيما بينهم وبين أولياء أمورهم من الشئون السياسية والحربية ، وفيما بينهم بعضهم مع بعض من المعاملات : مالية واجتماعية وأدبية ؛ فقد ورد فى الحديث « المجالس بالأمانة » ، وروى « إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة » ، وأطلقت الأمانة فى الأحاديث على الطاعة ، والعبادة ، والوديعة ، والثقة . فكل ما يجب حفظه من الحقوق المادية والمعنوية أمانة يجب على المؤمن الوفاء بها ، وعدم نقضها . ولقد روى الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » زاد مسلم « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ! » ، فهل يدرى أولئك الذين يخونون الأمانات أى جرم شنيع اقترفوا ؟ وفى أى مكان سحيق وضعوا أنفسهم[1] ؟ !

ونقول: إن الحديث الشريف : « كلكم راع ومسئول عن رعيته » يفسر الأمانة المرادة هنا تفسيرا واضحا .

والأصل الثالث من الأصول التى اشتمل عليها هذا الربع هو قوله تعالى :

(١) ح ٩٨ تفسير سورة الأنفال

« يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ، ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم » .

فالله عز وجل يضع للمؤمنين هنا دستورا[1] شاملا لما يأمرهم به ، ولما سيمنحهم إياه إن هم أطاعوه .. أما الأوامر ، والنواهى ، وكل مايعبد به — فتجمعها كلمة (التقوى) .. وأما الجزاء على التقوى فتوجزه فى هذه الدار كلمة « الفرقان » ، ويجمله فى الدار الآخرة تكفير السيئات ، وغفران الذنوب ، وفضل الله العظيم ! . . ولقد أطلقت هنا مادة التقوى فلم تقيد ، وعممت كلمة « الفرقان » فلم تخصص ، وحيال هذا الإطلاق والتعميم لانجد بدا من الحديث عن الكلمتين : فأما التقوى — وهى من الوقاية — فقال العلماء : إنها عبارة عن ترك جميع الذنوب والمعاصى ، وفعل مايستطاع من الطاعات ، وقد أمر الله تعالى فى مواضع كثيرة من كتابه باتقائه ، وباتقاء النار ، وباتقاء الشرك والمعاصى ، وباتقاء الفتن العامة فى الدول والأمم ، وباتقاء الفشل والخذلان فى الحرب ، وباتقاء ظلم النساء — أى باتخاذ وقاية دون هذا كله — ثم بين أن العاقبة فى إرث الأرض للمتقين ، وأن الجنة فى الآخرة لهم كذلك ، ووعدهم بأن يجعل لهم مخرجا ، وبأن يرزقهم من حيث لايحتسبون ، وبأن يكفر عنهم سيئاتهم ويعظم أجورهم !.. وأما الفرقان فهو الحكمة التى قال فيها « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » .. هو ملكة من العلم تمكن بوساطتها التفرقة بين الحق والباطل ، وبين الحجة والشبهة ، وهذه الملكة هى نور البصيرة .. أو هو النصر على النفس والهوى والشيطان ، وعلى كل عدو ، لأنه يفرق بين الذلة والعزة ، وبين العبودية والحرية ، وبين الضلال والهدى ، وبين المبطل والمحق ! . . وقد أطلق على أشهر الكتب الإلهية وهى التوراة والإنجيل والقرآن ، ثم غلب على القرآن ؛ لأن كلام الله تعالى يفرق فى العلم والاعتقاد بين الإيمان والكفر والحق والباطل ، وفى الأحكام بين العدل والجور ، وفى

---

(١) ص ١٠٢ تفسير سورة الأنفال .

الأعمال بين الصحيح والفاسد والخير والشر . كذلك أطلق على يوم بدر فى هذه السورة ؛ لأن هذا اليوم فصل بين عهدين : يعد الله من يتقيه بأن ينير بصيرته ، ويمنحه تلك الملكة التى تميز - فى كل شىء - بين ماينبغى ومالاينبغى. ثم يعده مع ذلك بأن يستر ذنوبه ، ويصفح عن عقابه عليها ، فلا يؤاخذه بها، إذ لاعصمة إلا للأنبياء .. ثم يعده ثالثا إذ يقول : « والله ذو الفضل العظيم » ومن أولى بهذا الفضل من مؤمن يتقيه ، فلا يقترف ذنبا ، ولا يخالف أمرا ؟ «يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله» فى كل مايجب أن يتقى، بمقتضى دينه وشرعه ، وبمقتضى سننه فى نظام خلقه « يجعل لكم فرقانا » أى نورا فى قلوبكم تفرقون به بين الطيب والخبيث ، أو نصرا على أعدائكم يفرق بين المحق والمبطل، أو مخرجا من الشبهات » « ويكفر عنكم سيئاتكم » بسترها فى الدنيا ، « ويغفر لكم » هذه السيئات وغيرها فى الآخرى ، « والله ذو الفضل العظيم » فلن يضن بشىء على من يتقيه ، وهو صاحب الفضل العظيم، إذ يجازى على التقوى بغفران الذنوب.

(٤)

أما الربع الثالث من سورة الأنفال ففيه يتحدث الله عز وجل عن الغنائم وطرق توزيعها : الخمس للقائد الأعلى رسول الله (أو خلفائه) ولمصالح الدولة بحيث تصرف على الفقراء واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والباقى يصرف للجيش الفاتح .. ثم يذكر الله عز وجل المؤمنين بفضله عليهم ، ونصره لهم ، وإعزازه إياهم ، والمحنة شديدة ، والأزمة طاحنة ، والأعداء والمشركون فى بدر يحيطون بالمسلمين من كل جانب ؛ ويفيض القرآن الكريم فى وصف ما أمد الله عز وجل به المسلمين من قوة معنوية فى الحرب ، ومن تثبيت لهم فى الحروب ، ومن إمداد روحى لهم بالعون والنصر .. وينادى الله عز وجل المؤمنين بالثبات فى المعركة ، والصمود فى النزال ، وبأن تكون عامرة بذكر الله والسيوف متشابكة ، والصفوف متقابلة ، وأن يستمروا على طاعة الله ورسوله ، ويكون أمرهم فى الحرب الاتفاق والوحدة والتعاون والتناصر ، بل وفى غير الحرب أيضا ، وينهاهم عن التنازع والفشل والاختلاف

على قائدهم لأن ذلك من أسباب الهزيمة .. ويأمرهم كذلك بالصبر فى القتال ، فالله عز وجل ، عونه وتأييده مع الصابرين .. نداء كريم اشتمل على أصول جليلة لازمة لبناء الأمة الإسلامية : من الثبات فى المعارك ، ومن ذكر الله فى الأزمات ، ومن طاعة الله ورسوله فى الحرب وفى السلم أيضاً ، ومن النهى عن التنازع والاختلاف والفرقة ، لأن ذلك من أسباب الفشل والهزيمة ، ومن أمر بالصبر ؛ فالله مع الصابرين .. نداء إلهى وما أرفعه من نداء ، وتوجيهات سماوية وما أكرمها من توجيهات . لو حاولنا الحديث فيها وشرحها لأخذ منا ذلك عشرات الصفحات .

ثم ينهى الله عز وجل المؤمنين عن أن يتشبهوا بالمشركين فى البطر والرياء والغرور والصد عن سبيل الله ، ويتحدث حديثا طويلا عن المشركين والمنافقين وموقف هؤلاء وهؤلاء ، فى بدر ، وعن جزائهم فى الآخرة عند الله وعقابه الشديد فى النار حيث عذاب الحريق ، بما قدمت أيديهم ، وبما جنوا على أنفسهم ، وبما عرضوا له حاضرهم ومستقبلهم من غضب الله وسخطه . . حيث قاوموا الإسلام ورسوله الكريم مقاومة طاغية باغية . .
ثم يقرن الله عز وجل بين المشركين وبين الفراعنة والأمم القديمة البائدة كعاد وثمود وأهل مدين ، إذ أهلك الله المشركين فى بدر ، وأهلك فرعون وقومه فى اليم ، كما أهلك عادا وثمود وأهل مدين وغيرهم من الأمم التى كفرت برسالات الله ، وخرجت على رسل الله ، وأعلنت الحرب على التوحيد . .
وهنا يبين الله عز وجل أن هذه الأمم تستحق ما نزل بها ، وأن الله عز وجل لم يكن ليهلك أمة إلا إذا خرجت عن أمر الله ونواميسه وشرائعه ، وأنه تعالى لم يكن مغيرا نعمة أنعمها على شعب من الشعوب فيحل مكانها الجدب والفقر ، حتى يغير هذا الشعب ما بنفسه من صلاح وطاعة وامتثال واستعداد للإيمان ، فيقاوم الرسل والرسالات ، ويصد عن سبيل الله والدين الحق ، وأن الله لا يهلك الأمم إلا بسبب ذنوبها ومعاصيها وكفرها وخروجها على أمر الله .. وقد حدث ذلك لآل فرعون كما حدث للأمم من قبل ، أهلك آل

فرعون غرقا ، وكان فى مصرع فرعون ومصرعهم عبرة ماثلة للناس فى كل مكان لو اعتبروا . . وقد كرر الله عز وجل ذكر مصرع آل فرعون ، وذلك لسبب ملحوظ هو أنه عز وجل ذكر فرعون وآله مع بقية الأمم التى كفرت برسالات الله فأهلكهم الله . . ولما كان أمر فرعون وقومه وحادث إغراقهم فى اليم أمرا عجيبا ، ولما كان عبرة للمعتبرين ، ولما كان معجزة ضخمة دالة على قدرة الله وعظمته أعاد ذكر آل فرعون ، كذبوا بآيات الله وكذبوا موسى نبى الله ؛ فأهلكهم الله بذنوبهم وأغرق فرعون وآله ، وكلا كانوا ظالمين . .

ثم يشبه الله عز وجل المشركين بالدواب التى لا تعى شيئاً ، ولا تفهم أمرا ، ولا تعقل قليلا ولا كثيرا ؛ كفروا . ونقضوا العهد ، فجزاؤهم التشريد فى الحرب على يدى محمد وأصحابه ، وفى الآخرة لهم عذاب شديد .

ويذكر الله عز وجل العهود التى بين الرسول وغيره ، وأنه إذا خاف من قوم خيانة كان له أن ينبذ العهود التى بينه وبينهم ، فالله لا يحب الخائنين ، وهم ليسوا بمعجزى الله ورسوله . . ويأمر الله عز وجل المؤمنين بالاستعداد الحربى الدائم لملاقاة خصوم الإسلام وأعدائه ، ولتوقيع الهزيمة بهم فى كل مكان ، وأن ينفقوا فى سبيل التسليح وتقوية الجيش كل ما يستطيعون ، وسوف يخلف الله عليهم أكثر مما أنفقوا ، ومما كانوا ينفقون .

(٥)

والربع الرابع تضمن كذلك أصولا جليلة أهمها :

ا — الدعوة إلى السلام وحث المسلمين عليه وإلزامهم به .

ب — الثقة بنصر الله للمؤمنين الصادقين ، فالله دائما مع المخلصين العاملين المجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم .

حـ — التذكير بنعمة الله على المسلمين حين أيدهم بنصره ، وحين جمع قلوب المسلمين فى وحدة واحدة ، وتآلف تام ، واتفاق كامل . . فوحدة المسلمين التى تمت فى عهد الرسول بين قبائل متعادية متخاصمة كان أمرها عجيبا

كل العجب ، ولو كانت استجابة طبيعية لمنطق الأشياء لما تمت إطلاقا ، لأنه لم يكن هناك ما يبررها ، إنما كانت معجزة من الله لا تحدث إلا بعونه ورعايته .

ى — تثبيت قلوب المؤمنين فى المعارك والحروب من أجل الإسلام والرسالة والرسول ، وفرض صمود المسلمين مهما كانوا قلة لأعداء الإسلام مهما كانوا كثرة .

هـ — بيان ما يجب أن يتبعه الرسول صلوات الله عليه فى شأن أسرى بدر ، بما كان قاعدة لمعاملة الأسرى فى كل حرب إسلامية صغيرة أو كبيرة .

و — بيان الولاية العامة والخاصة بين المؤمنين : من المهاجرين ، والأنصار ، ومن القاعدين فى مكة ممن لم يهاجروا . . وبيان منزلة المهاجرين والأنصار عند الله والملائكة وفى الدنيا والآخرة .

ز — تقرير حق الولاية والميراث بين ذوى الأرحام .

سورة الأنفال

والأصول الحضارية فى الإسلام

(١)

سورة الأنفال مدنية ، من وحى السماء فى المدينة ، وكان للمجتمع الإسلامى الجديد فى المدينة مشاكله ومعضلاته ، ومن عجب أن تكون أوجه علاج هذه المشكلات أو أغلبها قد ذكر فى هذه السورة ، التى سميت باسم الأنفال ، أى الغنائم ، وهو اسم عجيب ـ شأن أسماء سور القرآن الكريم ، وكان الشأن أن تسمى سورة النصر ، أو سورة السلام ، أو سورة المهاجرين ، أوسورة بدر ، أوسورة الأنصار ، أوسورة الحرب ، أوغيرذلك من الأسماء ، ولكنها سميت سورة الأنفال ..

(٢)

وهذه السورة الكريمة تضع أصولا حضارية كثيرة للمجتمع الإسلامى . وإن شئت فاقرأ :

١ ـ فاتقوا الله ، وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله .

٢ ـ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ... إلى آخر هذه الصفات .

٣ ـ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار .

٤ ـ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين .

٥ — يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه ...

٦ — يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم .

٧ — يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ، واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم .

٨ — يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ، ويكفر عنكم سيئاتكم ، ويغفر لكم ..

٩ — قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين .

١٠ — وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ، وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير .

١١ — واعلموا أنما غنمتم... الخ .

١٢ — ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

١٣ — فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون .

١٤ — وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين .

١٥ — وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ... الخ .

١٦ — وإن جنحوا للسلم فاجنح لها .

١٧ — يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال .

١٨ — ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض .

١٩ — فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا .

٢٠ — واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة .

٢١ — وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله .

(٣)

وسوف نعرض هنا لبعض الأصول فى هذا المقام . . وذلك على سبيل الإيجاز . .

الإسلام دين إنسانى عام :

نعم إن الإسلام دين الإنسانية عامة ، وكما كان دين الإنسانية فى ماضيها ، فسوف يظل دين الإنسانية فى حاضرها وفى مستقبلها أيضاً بإذن الله . .

يقول برنارد شو الكاتب الفيلسوف الإنجليزى ـ من حديث له فى رسالة انجليزية تحت عنوان « نداء للعمل » كشف فيه القناع عن عقيدته فى صلاحية الإسلام لجميع الأمم ، وفى كل الأطوار التى تدخل فيها فى أى مكان وزمان . وقد قال ذلك الحديث أثناء سياحته فى بمباى : « لقد وضعت دائماً دين محمد موضع الاعتبار السامى بسبب حيويته المدهشة ، فهو الدين الوحيد الذى يلوح لى أنه حائز أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة ، بحيث يستطيع أن يكون جذابا لكل جيل من الناس » . « لا مشاحة فى أن العالم يعلق قيمة كبيرة على نبوءات كبار الرجال . ولقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوربا غدا ، وقد بدأ يكون مقبولا لديها اليوم . وقد صور أكليروس القرون الوسطى الإسلام بأحلك الألوان ، إما بسبب الجهل ، أو بسبب التعصب الذميم . « ولقد كانوا فى الواقع يمرنون على كراهية محمد وكراهية دينه ، وكانوا يعتبرونه خصما للمسيح . ولقد درسته باعتباره رجلا مدهشاً ، فرأيته بعيداً عن مخاصمة المسيح ، بل يجب أن يدعى منقذ الإنسانية . وإنى لأعتقد بأنه لو تولى رجل مثله دكتاتورية العالم الحديث لنجح فى حل مشكلاته بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة اللذين هو فى أشد الحاجة إليهما . ولقد أدرك فى القرن التاسع عشر مفكرون مخلصون أمثال كارليل وجوته

وجيبون القيمة الذاتية لدين محمد ، وهكذا وجد تحول حسن فى موقف أوربا من الإسلام . ولكن أوربا فى القرن الراهن تقدمت فى هذا السبيل كثيراً ، فبدأت تعشق عقيدة محمد . وفى القرن التالى ربما ذهبت إلى أبعد من ذلك ، فتعترف بفائدة هذه العقيدة فى حل مشاكلها . فبهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتى . وفى الوقت الحاضر كثيرون من أبناء قومى ومن أهل أوربا قد دخلوا فى دين محمد ، حتى ليمكن أن يقال : إن تحول أوربا إلى الإسلام قد بدأ » .

وليس برنارد شو أول من شعر بهذا ، فقد سبقه كثيرون وعلى رأسهم جوته الفيلسوف الألمانى المشهور ، وهو يعتبر من أكثر رجالات الألمان علماً وعقلا وبعد نظر. يؤثر عنه – بعد أن درس الإسلام فأعجبه – قوله : « إذا كان هذا هو الإسلام فنحن إذاً فيه » . وليس يخفى أن الألمانيين فى ذلك العهد كانوا مظهر الثقافة العلمية بكل ما فيها من مفيد وطريف . ومما يلفت نظر الباحث الاجتماعى فى حديث الفيلسوف الإنجليزى قوله : إن أوربا ربما اعترفت بالعقيدة الإسلامية طلباً لحل مشاكلها . وقوله قبل ذلك : إنه لو تولى رجل على مثل صفات محمد صلى الله عليه وسلم دكتاتورية العالم الحديث لنجح فى حل مشكلاته بطريقة تجلب إليه السلام والسعادة اللذين هو فى أشد الحاجة إليهما ، فهذه الأقوال ليست ملقاة على عواهنها ، ولكنها ثمرات بحث وتحليل وتفكير ، فإن القرآن الكريم أرصد لكل مسألة من مسائل الاجتماع حلا معقولا لا يدع للإفراط والتفريط سبيلا إلى العبث بالمجتمع ، وقد قام النبى صلى الله عليه وسلم بتطبيق ذلك النظام الإلهى على الآحاد الذين اتبعوه ، فألف منهم أمة ما فتئت تنمو وتشتد وترقى الدرجات العلى فى كل مجال من مجالات النشاط العقلى والمادى ، حتى انتهت إليها زعامة العالم قروناً متوالية ، فكيف لا ينجح فى معالجة أدواء العالم الحديث رجل يقوم على قدم محمد ، فيطبق عليها ما أرصده القرآن الكريم لكل منها من علاج حاسم ؟

وإذا صح هذا على الأمة الإسلامية الأولى ، وصح على الأمم الأوربية

الحديثة ، أفلا يكون أصح على الشعوب الإسلامية الراهنة ، فتسترد به مجدها الضائع ، وتستعيد مجدها الزائل ، وتصبح جديرة بالانتساب لأسلافها الأولين؟ إن أكبر المسائل الاجتماعية التى تهدد مدنية أوروبا فى العصر الراهن المسألة الاقتصادية ، فإن النظام الرأسمالى المتطرف الذى يقوم عليه الغرب قد استدعى فى الأزمنة الأخيرة أن يتولد فى السواد الأعظم من شعوبه ميول ثورية لا تقف مطالبها عند حد ، وما نجمت المذاهب الاشتراكية التى تبنى نظرياتها على الأصول الاقتصادية إلا لتترجم عن هذه الميول الثورية ، وقد نجحت هذه المذاهب فى جمع كلمة العمال والفقراء وتعبئتهم تعبئة صالحة للنضال والثبات ، فكان أثره تحسين حالة المحرومين من المال بعض التحسين ، ولكن هؤلاء لا يزالون يرون أن لهم حقوقا على المجتمع أكبر مما رضخت لهم به تلك الحكومات . ولما كان من شأن الأمراض الاجتماعية أن تستشرى وتعضل إذا لم تستأصل جراثيمها ، فإن هذه المذاهب الاشتراكية بما تطرفت فى مزاعمها ، وتبسطت فى مدعياتها ، قد استحالت إلى برامج انقلابات خطيرة تهدد وطائد المجتمعات بالدك عند سنوح أقرب الفرص ، وقد أفضى التناهى ببعضها إلى الشيوعية البحتة . هذه حالة تعتبر على أقصى حد من الخطورة ، وتؤدى إلى تداعى بناء المدنية الغربية وسقوطها عند أول صدمة ، فإذا لم تسعف بالعلاج الفعال السريع التأثير فقد لا تبقى ولا تذر . وهل لهذه الحالة من علاج معقول غير النظام الذى أرصده الإسلام لمثلها منذ نحو أربعة عشر قرنا قبل أن توجد المجتمعات الأوربية الحالية ، وقبل أن تستحيل المسألة الاقتصادية فيها إلى هذه النتيجة المزعجة ؟ نعم : لقد شرع الإسلام للعالم نظاما تعاونيا حكيما فيه كل مافى المبدأ الرأسمالى من حسن ونافع ، وكل مافى المذاهب الاشتراكية من حق وواجب ، فجاء نظاما حاصلا على جميع مزايا المذهبين دون أن يلتاث بشىء من مساوئهما .

والإسلام دين اشتراكى تعاونى بطبعه ومبادئه ، يقول الرسول الأكرم: « من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد

فليعد به على من لا زاد له ، ويقول : ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع إلى جانبه وهو يعلم ، ويقول : من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام ثلاثة فليذهب برابع وبخامس . وآخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار ، أى بين الفقراء والأغنياء ، وبين المشردين عن أوطانهم وأموالهم والمقيمين فى وطنهم ومالهم وأهليهم . وكان يقول : يا معشر المهاجرين والأنصار ، إن بين إخوانكم من ليس له مال فليضم أحدكم إليه الرجلين والثلاثة . وعن جابر بن عبد الله قال : كان لرجال منا فضل أرض ، فقالوا نؤاجرها بالثلث أو الربع أو النصف ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها ولا يؤاجرها إياه .

وقد شرع الإسلام نظام الوقف لتكون الأرض أو العقار ملكا للمجموع وتصرف فى مصارف الخير والإحسان . . وفوق ذلك فقد حرم الاحتكار ، احتكار الأقوات العامة ، وما يشبهها من موارد الثروات العامة . كما حرم الربا ، حرمه لأنه مظهر للإثرة والأنانية وحب الذات ، فالفقير الذى يقترض منك جنيها لا يصح أن تأخذه منه جنيها وربما أو ثلثا أو نصفا وإلا كانت نفسك جشعة لا تعرف معنى الدين والإيثار والإنسانية . . وأوجب الزكاة ، وحارب أبو بكر العرب حين منعوها واعتبرهم مرتدين .

وفرض الصدقات والإحسان ، ونهى عن أكل أموال الناس بالباطل ، وعن الطمع فيما فى أيدى الناس . وطالب بإعطاء الناس حقوقهم ، وإعطاء الأجير أجره ، وبإيداع الأغنياء أموالهم فى أيدى الفقراء ليعملوا بها على أى لون من ألوان العمل والتصرف ، شركة أو مضاربة أو مزارعة أو مساقاة . وشرع نظام القرض والوديعة والإعارة والوصية والهبة . . وفرض فرائض الميراث . أوليس كل ذلك خطوة حاسمة لتقريب ما بين الطبقات ولمحاربة الفقر وعلاجه علاجا حاسما . ولخلق جو من المودة والتفاهم بين الفقراء والأغنياء ، ولنشر روح من السماحة والإخاء والتعاون ؟ . هذا وغيره من

مبادىء الإسلام الخالدة هو الاشتراكية بأجل معانيها وأروع أهدافها وأسمى غاياتها وألوانها . اشتراكية تحارب الرأسمالية الجشعة المتنمرة ، وتحارب الشيوعية المتلصصة المتذئبة ، وتحارب الماركسية المتطرفة الحمقاء ، وتحارب الفوضى فى المجتمع ، وتقتل بذور الشقاق والخلاف والعداوة بين الناس والطبقات . اشتراكية هى العدل والتعاطف والمحبة ، وهى الإيثار والتضحية ، وهى تقديم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد ، وهى الألم لشقاء الناس والبذل لما فى اليد ومساعدة كل ذى محتاج . اشتراكية لا تدع لذى ألم ألما ، ولا لذى حاجة حاجة ، ولا لذى كربة كربة . . « من فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » .

اشتراكية مبدؤها : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » و « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » فأين هذا من قول برنارد شو أحد فلاسفة الغرب : « لا تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » ، ووصيتها : « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » فأين من هذا قول برنارد شو : « لا تحب جارك كما تحب نفسك ، فإنك إن كنت سعيدا بنفسك فإن ذلك قحة ، وإن كنت على العكس فان ذلك ضرر . اشتراكية ما أجل معناها . وأدق مغزاها ، وأعظم أهدافها وغاياتها .

ولقد آخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار ، وحجز عمر على قريش أن يهاجروا إلى الأراضى المفتوحة حرصا على امتلاكها حتى لا يضيقوا على عباد الله فقال ؛ ألا وإن قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده . ألا فأما وابن الخطاب حى فلا ، والإيثار وحض القرآن الكريم عليه معروف : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » وقد جعل الله تعالى الفىء لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل لئلا يستأثر به الأغنياء وحدهم فقال : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى

والمساكين وابن السبيل ، كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .

كل هذا من من مظاهر اشتراكية الإسلام العادلة ، وشريعته السمحة البرة الرحيمة بالناس والفقراء والمجتمع ، إن الإسلام مكن للحرية يوم غرس عقيدة التوحيد فى القلوب ، ويوم علم المسلم أن لا يذل إلا لله ، وأن لا يستعين إلا بالله ، وأن لا يتوكل إلا على الله ، وأن لا يشعر بجلال أو كبرياء إلا لصاحب الجلال الكبير المتعال ، ويوم حارب كل تأله كاذب للأدعياء ، الذين ظهروا فى تاريخ الإنسانية ، متألهين متجبرين ، وتبعهم الناس جاهلين ، أو مخدوعين : «إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » ، ولقد كان صاحب الرسالة أكبر معلم لحرية الفكر يوم نادى فى عاصمة الوثنية بتوحيد الله ، ويوم صبر على الأذى فى سبيله ، وتحمل العنت لإبلاغ الرسالة ، وإزاحة العوائق من طريقها ، وهل كانت هجرته إلا تقريرا لحرية العقيدة ؟ وهل كانت حروبه التى صحبت دعوته إلا دفاعا عن حقوق الإنسان ؟ وعن حق كل امرىء أن يعتنق ما يطمئن إليه من آراء تتفق مع الفطرة السليمة ، من أجل ذلك شرع القتال ، وقال القرآن الكريم : «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله » ، والفتنة استخدام القوة فى مصادرة الآراء الصحيحة ، واضطهاد المبادىء السليمة ، وكما أقام الإسلام بناء المجتمع على الحرية الصحيحة ، جعل العدالة أساساً للشريعة ليطمئن إلى برها وسماحتها العدو والصديق ، ويصل إلى حقه فى ظلها القوى والضعيف ، ولقد شرحت فى موقف سابق ، كيف كان عامة الناس يقاضون الخلفاء أنفسهم أمام قضاة المسلمين ، فلا يستنكف الخلفاء أن يحضروا مجلس القضاء . ولا يترددون فى تنفيذ ما يلزمون به من حقوق . العدالة فى القرآن ، تتضاءل أمامها روابط النسب مهما قربت ، وفوارق الدين مهما بعدت ، « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » . « الذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا ، وإن استنصروكم فى الدين

فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » . فانظر كيف سادت العدالة منطق القرآن ، وجعلت للعهود حرمة لا تضعفها وحدة الدين . وقد كان النزاع يقع بين أهل الكتاب وحكام المسلمين ، فيقفون جميعاً فى ساحة القضاء ، فلا تعلو إلا كلمة الحق ، وصوت الحجة . ولو كان فى ذلك خذلان المسلم الحاكم وانتصار الكتابى الضعيف . . والقرآن الكريم أول دستور أهدر التفاوت بين الطبقات ، وجعل اختلاف الألسنة والألوان مجرد آية من آيات الله فى الخلق ، فليس هناك جنس أفضل من جنس ولا لون أكرم من لون . وفى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم : صهيب الرومى . وبلال الحبشى . وسلمان الفارسى ، وكان الرسول عليه السلام يقول « سلمان منا آل البيت » . نعم علم الإسلام أبناءه ، أن أصلهم واحد ، وأن الحقوق والواجبات موزعة بينهم على السواء ، وأن السوقة والعظماء أمام تعاليم الدين ، وموازين الحساب ، وفى ميادين العمل سواء ، لا يفضل أحد منهم أحداً إلا بالتقوى والخلق الكريم. ومن أروع ما حفل به القرآن ، حفظ التوازن بين الطبقات تأكيداً للتضامن الاجتماعى الذى يشد بناء الأمة شدا محكما ، فلا تتساقط منه لبنة ، أو تحدث فيه ثغرة . فالغنى فى نظر القرآن وظيفة اجتماعية ، وصاحب المال يحاسب على تصرفه فيه ، وتناط به حقوق الدولة أن تسأله عنها ، وقد فرض الله الزكاة وجعلها من أركان الإسلام : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » وهناك حقوق لا تقل فى خطرها عن الزكاة ، وقد قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن فى المال حقا سوى الزكاة ، وأوضح القرآن الكريم هذا الحق مبينا حقيقة البر ، وعناصر التقوى ، ودلائل صدق الإيمان ، فقال : « وآت المال على حبه ذوى القربى ، واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب » وأردف هذا بقوله : « وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة » . فإسعاف المنكوبين ، وإغاثة الملهوفين ، حق على من صادفهم فى أزمتهم ولو كان قد أدى زكاة ماله ، وهذا من أنواع الماعون ، الذى جعل الله الويل لمانعيه ، واعتبرهم مكذبين بالدين « الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون » . وقد بين رسول الله صلوات الله عليه أن إكرام الضعيف المنقطع عن أهله وماله ، حق

له على من نزل بهم ، وهذا الحكم من دعائم المروءة ، وروافد الخلق الفاضل فى المجتمع ، وقد بلغت حساسية الإسلام المرهفة بأوجاع الناس وأحزانهم أن رصد من مال الزكاة ما تسد به ديون الغارمين العاجزين ، وذلك مالا نظير له فى شرائع البشر . وإذا عم البلاد قحط جارف ، لم يبق لصاحب مال حق فى الانفراد به ، بل تضع الدولة يدها على الطعام ليستفيد منه الجميع على السواء « إن الأشعريين إذا أملوا فى الغزو أو قل طعام عيالهم جمعوا ما كان عندهم فى ثوب ثم اقتسموه بينهم بالسوية فهم منى وأنا منهم » . حدثونى إذا بعد هذ الذى سمعتم ، ما هى الاشتراكية الحديثة التى ضمنت للناس ما ضمن الإسلام من سماحة . . وإنكم لتعلمون مما ذكرنا أن الحقوق التى قيدت بها الملكية ليست فى نظر الإسلام هينة ، ولكنها نظام مفروض يقاتل دونه الإسلام ، وعصمة الدماء والأموال مقرونة بأداء هذه الحقوق ، كما قررها عليه صلوات الله ... «آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه . فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير . . من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له ، وله أجر كريم .

وقد أتى الإسلام بنظام حكيم يقر رؤوس الأموال الفردية من ناحية ، ولا يغضى عن المحرومين منها ، فيفرض لهم حصة سنوية منها من ناحية أخرى. فكان هذا الحل كما ترى وسطا جامعا لمزايا كل من النظامين الاقتصاديين، وخالصا من عيوبهما ، تنحسم به مادة المتنازعين على الحياة ، ويبطل تناحرهما عليها ، ويحل محله تكافل ينتظم عليه أمر الجماعة ، ويسود بين فريقيها التحاب والتعاون فى الحياة الاجتماعية ، ذلك النظام هو الزكاة التى جعلها الإسلام ركنا من أركانه .

إن الإسلام شريعة الحياة والبشرية ، ويكفيه ما اشتمل عليه من أصول الدعوة إلى الحضارة والمدنية وإلى التجديد والبناء والإصلاح ، وإلى العمران فى كل ميدان؛ نعم إن الإسلام هو دين الحضارة والعمران ، وقد كان دائماً يدفع الأمم إلى إقامة صرح العمران دفعا ، بتهيئة أسبابه لها من العلم والعمل

والتفكير ، وتعبيد سبيلها اليه من الحث على إحياء الموات ، وإقامة المنقض ، والإشادة بذكر الحياة الطيبة ، والجنات المعجبة ، والمياه الجارية ، والبركات المتواترة ، جزء للقائمين على سنته فى الحياة الدنيا ، يعجله لهم فيها ، ويعدهم إذا انقلبوا إلى ربهم بحياة أرفع منها ، فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . كل هذا وهو جار على طريقته من الجمع بين البسطتين : بسطة الروح وبسطة الجسم ، والتوفيق بين السعادتين : سعادة الدنيا وسعادة الآخرة . ؛ ماكاد النبى صلى الله عليه وسلم ينتقل إلى الرفيق الأعلى حتى انتدب المسلمون لتحقيق موعود الله من إعلاء كلمة الله فى الأرض ، فانساحوا فيها لا عادين على أهلها ولكن داعين لهم إلى الحق ، ولا هادمين لما شيدوه ولكن مكمليه وموجهيه إلى وجهة الخير المحض ، تالين على العالم قوله تعالى : « يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما » ، « من عمل صالحا من ذكر وأنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » ، « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين » . فما كانت إلا كومضة برق ، كما قال مؤرخو الغرب أنفسهم ، حتى انتهى المسلمون إلى الصين ، ومالبثوا بعدها غير قليل حتى عمت دعوتهم القارات الخمس ، وانفتحت أمامها أبواب العالم التى كانت موصدة ، فسرت فى أممه كافة روح لم تكن فيهم من قبل ، وكأنها كانت مندفعة فى تيهور ، فوقفت حيث تتسمع لتلك الصيحة التى رددت أصداءها بقاع الأرض ، وما هى إلا سنون معدودة حتى نبض عرق الحياة فى الشام ومصر ، وكانتا جثتين هامدتين تحت براثن الرومان ، ثم تلتهما العراق وفارس وكانتا تحت سلطان أهلها هيكلين عظميين ، لم يبق فيهما غير ذماء يوشك أن ينضب فتصبحا هشيما تذروه الرياح ، ثم ما لبثت الممالك القائمة بين فارس والصين والهند وسيبيريا أن أفاقت من غيبوبتها الطويلة ، وأدركت أن لها

وجودا وأنها يجب أن تحيا حياة جديدة . ثم ما كاد طارق بن زياد يفتح الأندلس وينشر فيها روح الحياة حتى تنبهت الممالك الأوربية لما هي فيه من الخلافات المذهبية ، والحروب الجاهلية ، والجهالة المستحكمة ، فأخذت تتنسم نسمات ذلك العالم الجديد ، وتعشو إلى ضوئه وتستفيد من جواره . كل هذه الأمم التي كانت كالجثث المصبرة ، أو الأجساد المسخرة ، هبت تتلمس الحياة والعمران ، متأسية بما كانت تراه وتسمع به من أثر الإسلام في أهله ، من تمصير الأمصار ، وإشادة البلدان ، وتعبيد الطرق ، وإحياء الموات ، وتسهيل الاتصالات ، وإقامة المباني ، وتنشيط التجارات ، وبعث الصناعات ، واستخراج المعادن ، وبناء المستشفيات ودور العلم وبيوت الحكمة ، وتأسيس المكتبات وترجمة المؤلفات . هذه الحركة المحيية التي كان مثارها بلاد المسلمين وصلت إلى ما يجاورها من البلدان ومنهم إلى من يليهم ، حتى عمت الأقطار ، وتولد منها ما فيه العالم اليوم من علم ومدنية .

كل ذلك حدث بتأثير الإسلام ومبادئه الخالدة ؛ قال الله تعالى : « وإلى ثمود أخاهم صالحا – أي وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا – قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب » . في هذه الآية الكريمة حث على العمران وامتنان من الله على عباده بإيتائهم القدرة عليه . وقال البيضاوي في تفسيره عند قوله تعالى : « واستعمركم فيها » أي أقدركم على عمارتها وأمركم بها . وقد أكبر الله تعالى في آيات كثيرة من الكتاب الكريم شأن العمران ، ووصى المسلمين بأن يحافظوا عليه ، ويعنوا به فقال جل وعز : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين . ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين » . . ووصف الله الفاسقين فقال : « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون » . وعرف ألد

خصوم الحق فى آية كريمة ، فذكر أن من أخلاقه : « وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد » . ولو أردنا أن نستقصى ما ورد فى الكتاب الكريم من الآيات الناهية عن الفساد فى الأرض لا ستوعبت صحفا كثيرة . فلنكتف بما ذكرنا فان فيه لبلاغا للمتوسمين . نعم إن الفساد ليس خالصا بالعمران ، فانه يشمل كل ضروب الأعمال التى توجب التصدع فى بناء الاجتماع ، والاضطراب فى نظام المعاملات ، والإخلال بالأمن ، والعدوان على الضعفاء الخ ، ولكن مما يندرج فى معناه هدم المبانى وتحطيم المعالم ، وتخريب المدائن ، وإهلاك الحرث والنسل . ومما يدل على أن الله تعالى يعتد بكل ذلك ، امتنانه على بنى سبأ من اليمن بما وفقهم إليه من تشييد القرى والإكثار منها ، والإشارة إلى ما أسدى بعض القرى من بركاته فقال تعالى : « وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها – قرى الشام – قرى ظاهرة ، وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين » فهذا نص صريح فى الإشادة بذكر العمران والتنبيه على أنه من فضل الله على عباده الصالحين . ومما يناسب هذا المقام قوله تعالى: « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آيتان، جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم ، واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ؛ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور » وفى هذه الآية إشارة من الحق سبحانه بأن الخصب والبركة وخفض العيش آية من آياته تستدعى الشكر لواهبها ، وفيها تنويه بالبلدة الطيبة إيذانا بأنها من النعم التى تجب المحافظة عليها والاعتداد بها . ثم انظر كيف أن الله جعل جزاء أهلها حين أعرضوا عن طاعته وأقبلوا على مكارهه أن أبدلهم بالخصب والنماء وبالبلدة الطيبة الحافلة بوسائل العمران أطلالا دارسة ، وبيئة لا تثمر لهم شيئا . فكما جعل الخصب والعمران من النعم التى يجب استدامتها ، جعل القحولة والخراب من النقم التى يجب تجنبها . ولفت الحق سبحانه وتعالى الناس إلى أنه لا يهلك القرى لأنه يكره لشيعته

التوسع فى العمران ، ولـكنه يهلـكها لحيد أهلها عن الصراط السوى وإسرافهم على أنفسهم ، واستخدام وسائل المتع المشروعة التى فتحها عليهم فى الاستهتار فى الشهوات ، فقال تعالى : « وماكان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

وقد بين الله تعالى فى موطن آخر أن العلة الحق فى إهلاك القرى وإزالة عمرانها ما جناه أهلها على أنفسهم من ناحية آدابهم وأخلاقهم ، وأنه جل وعز أعـذر إليهم بالنصح وإرسال النذر لعلهم يثوبون إلى رشـدهم ، فقال سبحانه : « وكم أهلـكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليـلا وكنا نحن الوارثين . وماكان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وماكنا مهلـكى القرى إلا وأهلها ظالمون » .

فانظر كيف يشير الله تعالى إلى أن أهول المساكن بسكانها ، وحفولها بأهلها ، من النعم التى يجب أن تستبقى بالقيام بحقها ، وأن ما ينقص هذه الحالة من إقواء الدور من قطانها ، وإقفارها من أصحابها ، سببه البطر ، والبطر فى هذا الموطن الاستخفاف بالنعمة وعدم الاعتداد بها . ومن أقطع الدلائل على اعتداد الإسلام بالعمران وإكباره لشأنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان ينهى أصحابه حين يبعثهم للغزو عن هدم الدور وإحراق الزروع ، إلا ما تقضى به حاجة حربية ملحة . وليس بعد هذا فيما نظن مرمى فى الاعتداد بالعمران ، وفى الاحتفال بأمره . بهذه الروح الـكريمة انساح المسلمون فى الأرض ؛ فمروا على مدن وأمصار وقرى لا تدخل تحت حصر ؛ فلم يمسوها بسوء ، بل زادوا فى عمرانها ، وأمروا بإشادة أمثالها ، وعرفوا أن العمران لا يقوم إلا بحافز من الخصب ، فعملوا على إحياء موات الأرض . ولما استتب لهم الأمر أمروا بترجمة الـكتب اليونانية والسريانية والهندية فى الزراعة والعمارة وطبقوها على العمل . ولما كان لا يقوم العمران بلا صناعة تؤاتيه بالحاجات الضرورية له ، لم يدعوا صناعة من الصناعات التى صادفوها فى البلاد المختلفة

إلا تعلموها وحذقوها ، وزادوها تحسينا وارتقاء .

وبما أن الصناعة فى حاجة مستمرة إلى المواد الأولية فلم يقصروا فى هذه السبيل ، فاحتفروا الأرض واستخرجوا كنوزها المعدنية ، وأسسوا المصانع لسبكها وصنعها ، وكل هذا يحتاج إلى إلمـام شامل بالعلم الطبيعى ، فلم ينوا فى تدارسه وتفهمه ونقل كتبه القديمة إلى العربية ، وبالغوا فى دراسة الجواهر وصفاتها ومميزاتها وكيفية تحليلها وتركيبها ، ووضعوا لذلك علما سموه بالكيمياء، وعنهم أخذه المعاصرون بإسمه العربى . ولمـا كان هذا لا يغنى إلا بالتوسع فى العلوم الرياضية فقد تبسطوا فيها إلى أبعد مما وصل إليه الكلدانيون واليونانيون القدماء والفرس ، حتى أداهم التبحر فيها إلى ابتكار علم جديد فيها سموه علم الجبر. وقد أخذه الأوربيون عنهم بهذا الإسم العربى . لم يدع المسلمون علما ولا فنا ولا صناعة ولا ذريعة لتكميل صرح العمران إلا أخذوا بها وزادوها بجهودهم رقيا ، ولم تمض عليهم مئتا سنة حتى كانوا فى كل ناحية من نواحى النشاط العقلى والعملى أئمة يرجع الناس إليهم فيها . فلم يكونوا مجرد فاتحين ، ولكنهم كانوا معلمين ومصلحين أيضاً . نزلوا الشام فعمروا مدنها ، وأحيوا مواتها ، وجعلوا عواصمها عواصم العلم والحكمة . وامتلكوا مصر فنشروا فيها العدل والإنصاف ، ورقوا صنائعها وجعلوها تنافس أرقى الممالك ، وتولوا العراق وكان قبلهم تابعا للفرس ، فنقلوا إليه عاصمة الدولة ، فأبلغوه إلى مكانة من السؤدد لم يكن له حتى فى زمن الآشوريين والبابليين ، فكانت عاصمته بغداد سيدة العواصم كلها علما وصناعة ومدنية ، فاكتظت بالسكان حتى بلغوا فيها مليونى نسمة ، وهو عدد لم يسمع به فى بلد سواها حتى ولا أثينا وروما فى إبان عزهما وحضارتهما التاريخية . واجتازوا الأندلس فأسسوا فيها دولة كان لها الأثر البعيد فى نشر الثقافة العلمية حتى أصبحت جامعاتها تهب النور لمن يطلبه منها ، ولو كان أجنبيا عن الإسلام لا يمت إلى دولته بأقل صلة . فكثر فيها الطلاب الأوربيون يعبون من معينها الصافى ، ويعودون إلى بلادهم ينشرون العلم والمدنية . وكان ممن تعلم فيها سلفستر الذى

تولى البابوية الرومانية ، وقد بلغ من علو كعب الأندلس فى العمران والمدنية أن ملوك أوربا كانوا يقصدونها للاستشفاء على أيدى أطبائها ، فيقابلون بإكرام ثم يعودون إلى بلادهم مشيدين بذكر الحضارة الإسلامية . وقد أثرت مدنية المسلمين فى الأوربيين تأثيراً عميقا ، حتى إنهم نقلوا كتب ابن رشد وابن زهر وابن سينا وغيرها إلى لغاتهم ، وأخذوا يتدارسونها ، فكانت سببا فى إنهاض هممهم وهم فى ليل دامس من الحكم المطلق ، فهبوا يتطلبون الحياة ثائرين على نظمهم الجائرة ، مجازفين بحياتهم فى سبيل الحياة والحرية . فدام التنازع بينهم وبين الآخذين بمخنقهم قرونا حتى تم لهم النصر عليهم فى القرن السادس عشر ، فكان العهد الذى يسمونه عهد البعث الذى سبق عهد المدنية الأوربية الحاضرة . فهذه المدنية التى فتنت العالم اليوم بعلومها وفنونها وصنائعها مدينة للمسلمين بوجودها كما رأيت ، وكما يعترف به مؤرخوها فى مؤلفاتهم المتداولة . وقد نقلنا الشيء الكثير من ذلك فى مقالاتنا الماضية . فالفتوح الإسلامية لم تكن فى حقيقتها إلا صوت الحق ينبه الغافلين ، ويوقظ النائمين ، ويستحث همم الحاكمين والمحكومين ، إلى تلمس الحياة الصحيحة ، والخروج مما هم فيه من التقاليد الموبقة ، والرسوم المردية . وكان الإسلام هو الذى أحدث التطور والانتقال فى التاريخ البشرى العام ، وهو الذى قاد العالم إلى العصر الحديث ، عصر النهضة والحرية والديمقراطية والصناعة ..

معجزة إلهية :

إن التوفيق بين القبائل العربية المتعادية المتخاصمة كالأوس والخزرج على يدى محمد صلى الله عليه وسلم معجزة من المعجزات السماوية الكريمة التى حدثت للرسول : « وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم » ، ولقد تمر على المجتمعات فى بدء حياتها حوادث تؤثر فى وجودها من ناحية ترابط آحادها وتماسك أجزائها ، ولكنها لا تبلغ ، مهما عظم شأنها ، ما يحدثه النضج الاجتماعى الذى يتم بعد مكابدتها للأطوار التى يستدعيها الاجتماع فى أدواره

المقررة فى قرون عديدة ؛ فهذه الجماعة من مهاجرى مكة ، ومؤمنى قبيلتى الأوس والخزرج اللتين ألف بين آحادهما دين لم يكن للعرب فى وثنيتهم العتيقة وتقاليدهم الموروثة ، عهد بمثله ، كانت بحاجة لأجل أن تحيا حياة اجتماعية أن تتأثر بعوامل الاجتماع ، وأن تخضع لأفاعيلها ، ولا يكون ذلك إلا إذا وجدت تلك العوامل واستعد الآحاد للتأثر بها ؛ وهى لا توجد بالصناعة ، وإن أمكن إيجاد بعضها فيتعذر إيجاد بعضها الآخر ، لأنها تتعلق بالبيئة الطبيعية وبقابلية الآحاد للتطور ، وبالأحوال الاقتصادية ، وبالجماعات المجاورة ، وكل هذه الشئون ليس فى اليد إيجادها . أما مجرد العقيدة الدينية فلا تكفى فى تكوين وحدة اجتماعية ، لأن العقيدة عمل قلبى لا يتوقف على الاندماج فى جماعة . وقد عاش المسيحيون بعد عيسى عليه السلام نحو ثلاثة قرون لا تجمعهم جامعة ، متفرقين فى بلاد متباعدة ، وبقى اليهود أكثر من ألفى سنة مشتتين فى الأرض ليس لهم دولة . فكان لابد لأجل قيام دولة إسلامية من توافر عناصر الاجتماع فى الطائفة التى اتخذته دينا لها ، ومن خضوعها لأفاعيلها آمادا طويلة . فإذا كان على محمد صلى الله عليه وسلم ، لأجل أن يصل إلى تأليف جماعة ، أن يوجد العوامل الأدبية والمادية التى تتكاتف على إيجادها على الأسلوب نفسه الذى تتبعه الطبيعة فى تأليف الجماعات ، فأنى له أن يوجد لها الزمان الكافى لترسيخ نتائجها فى نفسية الجماعة ، وهو شرط لابد من توافره فى حياة الجماعات ؟ اللهم إن هذا من المحالات العلمية ، وهو فى البلاد العربية التى لا يوجد فيها من عوامل الاجتماع إلا ما يكفى لتوليد القبائل ، يعتبر مما لا يجوز أن يفكر فيه إنسان ، وكيف يجوز التفكير فيه والطبيعة نفسها عجزت عن إحداثه ، فبقيت الجماعات العربية على الحالة القبيلية من يوم وجدت إلى مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لا لنقص فى قواها المعنوية ، ولكن لعدم توافر عوامل تآلفها . فانتداب محمد صلى الله عليه وسلم للإتيان بمحال فى تاريخ البشر ، أمر لم يقدم عليه فرد من أفراده ، ولم يطف فى رأس عبقرى من عباقرته من يوم وجد العالم إلى يومنا هذا ؛ ولا جرم أن الانتداب لمثل

هذا العمل يعتبر غريبا إلى أبعد حدود الغرابة ، ولكن غرابته وخروجه عن دائرة الأمور العادية لايجوز أن يثنينا عن النظر فى الوسائل التى تذرع بها محمد صلى الله عليه وسلم ، تحت إرشاد الوحى ، للوصول إلى هذه الغاية البعيدة . أول ماوجه النبى همته إليه ، أن جعل للطائفة التى اتبعته غاية سامية تسعى للوصول إليها ، لأن كل جماعة لايكون لها غاية ، تركد حيث هى، وتكتفى من الحياة بما يحفظ وجودها الشخصى وكيانها القومى ليس إلا ، وقد تلبث على هذا عشرات القرون حتى تبيد أو تفنى فى جماعات أقوى منها . فكانت الغاية التى عينها النبى للجماعة التى يرأسها أن تكون نواة الدين الذى شرع لإصلاح جميع الأديان ، وأن تحمى الدعوة إليه ضد كل من يحاول أن يحول بينها وبين الانتشار . وهذا لايكفى فى تكوين أمة ، ولا فى إقامة دولة ، فالأمة لايتحقق لها وجود إلا بتوافر عدد أفرادها ، وشغلهم حيزا معروف الحدود بين الأمم المجاورة لها ، والدولة فى حاجة إلى مقومات اقتصادية وأدبية وسياسية ، وهل يمكن الوصول إلى هذا كله إلا بإنشاء العلاقات بينها وبين الجماعات القريبة منها والبعيدة عنها ؟ ولكن هل هذه العلاقات مما يمكن إيجاده من غير طريق العوامل التى توجبه ؟ هذه العوامل تقتضى فيما تقتضيه التبادل الاقتصادى ، والتبادل الثقافى ، وكل هذا يقتضى الإنتاج الزراعى والصناعى ، والإنتاج الفكرى . فهل كانت يثرب بالبيئة التى تولد كل هذه العوامل ؟ هذا هو الأسلوب الطبيعى فى توليد الأمم وإقامة الدول ، ولو صادفها محمد فى البيئة التى ظهر فيها لما كان فى عمله إعجاز ، ولكان أمكن الخصم تعليل نجاحه بالعلل الاجتماعية ولو من طريق التلاعب بالألفاظ ، غير مقدر كم كان يقتضى تفنيه هذه العوامل من الآماد المتعاقبة فى شروط ملائمة ؟ ولكن النبى لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى بعد إحدى عشرة سنة من يوم انتقاله إلى يثرب حتى كانت للإسلام أمة ، وكانت له دولة . إن ميزة الأوامر الإلهية أن تنفذ ولو قامت دونها جميع الحوائل الطبيعية والإنسانية . وقد أراد الله أن تكون للإسلام أمة ودولة قبل أن يفارق رسوله العالم الأرضى فكانتا ، كانتا فتيتين قويتين حاصلتين على

جميع عوامل النماء والتطور ، نقلتا العالم كله من حال إلى حال آخر ، لاصورتين وهميتين لم تلبثا أن انحلتا بعد وفاة موجدهما ولم تتركا أثرا .

فإذا كان فى تكوينهما على خلاف السنن المعروفة إعجاز يقف العلم الاجتماعى أمامه حائرا ، فإن فى بقائهما واستمرارهما وعظمة آثارهما إعجازاً ثانيا ليس بأقل من الأول. ويستخف بعض الناس بتأليف الأمم ، فيخيل إليهم أن الآحاد كأحجار البناء يضعها البناء حيث أراد ، فيشيد منها قصراً على النظام الذى وضعه من قبل . هذا النظر يدل على فاقة علمية توجب المرحمة . والحقيقة أن الآحاد الذين تتألف منهم الأمم كائنات عاقلة لا يمكن تشبيهها بالأحجار ، والرابط الذى يجمع بينها مؤلف من روابط معنوية تشترك فى تكوينها ضرورات طبيعية ، ومقتضيات بيئية ، وحاجات عقلية وروحية ، فإذا لم تنتظم جميع هذه العوامل مئات الألوف من الآحاد فى وحدة لا انفصام لها ، اعترى هذه الجماعات التفكك ، فلم يتم ترابطها الترابط المطلوب بحيث إذا تحركت تحرك جميع آحادها اضطرارا لا اختيارا فى آن واحد ، كما يتحرك الجسم ، فتنفعل جميع أعضائه فى اتجاه واحد ، وعلى غرار واحد ، لا يسأل عضو عضوا لم تحرك . فتخيل كيف تصل أمة مؤلفة من عدة ملايين أو عشرات الملايين إلى هذا الضرب من التكافل مع تخالف آحادها فى أخلاقهم وعقلياتهم ونفسياتهم وآمالهم وأهوائهم ؟ فاذا رأيت أمما قائمة ولم يصادف قادتها أثرا من الحوائل ، فما ذلك إلا لأن هذه الأمم كانت من عمل الطبيعة لا من عمل القادة . والعمل الطبيعى يجرى على أدوار متعاقبة ، فى آماد طويلة تنفقها الطبيعة فى التوفيق بين هذه المتناقضات، لا بصبها فى قالب واحد، فهذا محال ، ولكن بإخضاعها لنظام تعاونى يحول تصادمها الضار إلى تكافل مفيد للجماعة ، كما هو مشاهد فى كل جماعة قائمة ؛ فهذا العمل الطبيعى البطىء لا يمكن محاكاته بالصناعة ، بمعنى أنه لا يمكن إقامة أمة من مجموعة آحاد من بيئات مختلفة ، بل لا يمكن تحويل الجماعات الصغيرة القائمة على مبدأ التناحر إلى وحدة اجتماعية يسودها التكافل والترافد ، من غير الطريق التدريجى التى تسلكها الطبيعة فى إيجادها بالعوامل الخاصة بها ، وهى لا توجد بالصناعة كما قدمنا . وهذا الأمر من الوضوح بحيث أن

الله نبه العقول إلى إعجازه ، ونوه عنه بعبارة تشف عن عظم شأنه ، فقال تعالى « هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم، إنه عزيز حكيم » . تأمل فى قوله تعالى: « لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم »، تجد فيه إشارة صريحة يدركها أولو العلم ؛ فان الذى يؤلف القلوب ، ويوحد بين مطالبها ، ويوجهها وجهة واحدة ، هى العوامل الطبيعية الموجبة لذلك ، لا المغريات المادية التى تزول آثارها بزوال تأثيرها . وبعد أن أصبح أمر الإعجاز فى عمل النبى صلى الله عليه وسلم واضحا كل الوضوح ، يؤيده الكتاب الكريم نفسه ، ويؤيده العلم ، وجب علينا أن نتحسس من ذلك العامل الخفى الذى قام مقام جميع عوامل الاجتماع والتآلف إلى أبعد حد ، فتأثرت الجماعة بجميع مقومات الاجتماع على أوسع وأكمل وجه ، دون أن تدخل فى الأدوار التى تحصلها للنفس . ودخولها فى تلك الأدوار فى سنين معدودة لا يكفى لإيجابها ، فلابد من مرور آماد طويلة عليها ، وتكرر حدوثها لتتهيأ النفس لقبول آثارها ، والقيام على أساسها . فأى حدث فى العالم أغرب من قيام أمة متعاقدة الخناصر ، محكمة الأواصر ، متكافلة الطبقات ، منزهة من جميع عيوب الأمم السابقة والمعاصرة لها ، التى من أشهرها غطرسة المتغلب ، وسيطرة المتحكم ، وعجب القوى المنتصر ، وبغى الجاهل المقتدر ؟ هذا غريب حقا ، وهو من أكبر دلائل نبوة القائم به محمد صلى الله عليه وسلم . فاذا ألانت النبوة الحديد ، وأحيت الموتى بعد أن اخترمتهم المنون ، فإن إلانة النفوس الجاهلية ، وتفجير ماء الحياة الروحية ، وبث أصول البطولة الصحيحة فى القلوب ، أشد إعجازا وأبعد أثرا من هذه الآيات الجزئية . فهذه الآيات تشكك فيها الباحثون ، وأنكرها الماديون ، ولكن الآيات المحمدية لا يمكن إنكارها ، فهى ماثلة أمام الأعين مثولها فى تاريخ الأجيال السابقة تشهد بأن روحا ربانيا حل بهذه الجماعة ، فدفعها لإحداث أكبر الأحداث العالمية ، وتنبيه الأمم كافة من سباتها الذى كان طال عليها الأمد فيه ؛ ذلك العامل الخفى هو « الإيمان » الذى نفثه محمد صلى الله عليه وسلم فى روع جماعته ، فجعلهم يتلقفون ما يلقى إليهم بلهف عظيم ، فتتكيف

به نفاسياتهم ، ويصبح حالا لها كأنها ولدت مفطورة عليه . وهذا التعليل قد يجد فيه بعض الخصوم فرجة يتقحمون منها للغض من درجة إعجازه ، فيقولون : مادامت المسألة استحالت إلى الإيمان ، فقد أمكن تعليلها بعلة طبيعية ؛ لأن الإيمان يفعل بالنفوس ما تفعله الوراثات المتأصلة ، فيسوقها إلى الأغراض التى توجه إليها من طريق الانسياق الذاتى ، مضطرة غير مختارة ، فلا عجب أن يطبعها المستولى عليها من هذه الناحية على أى الصور شاء ، وأن يدفعها إلى أى الوجهات أراد ، على أن فى طى هذه المسألة أمرا يعتبر فى أرفع درجات الإعجاز ، وهو إيجاد هذا « الإيمان » ؛ فعلى الخصم قبل أن يمضى قدما فى التعليل به ، أن يفسر لنا كيف أمكن للنبى أن يبثه فى قلوب ألوف مؤلفة من الناس على حال يستولى معها على جميع مشاعرهم ، فيسقط كل ما ورثوه من عقائدهم ، وما جمدوا عليه من وساوسهم ، وأن ينفرد بالسلطان على قلوبهم فيخضعها لكل ما يقدمه إليهم من مختلف التعاليم والوصايا خضوعا مطلقا ، بحيث يصبح منقوشا فى سويداء قلوبهم ؛ ولا تنس أن هذه التعاليم والوصايا لا تشايع ما كانوا عليه من ناحية من النواحى ، فلا يمكن أن يقال هنا : إنهم أخذوا بها لأنها ناسبت ما كانوا عليه ، ولاءمت ما توارثوه من قبل ، ولكنها كانت تناقض ما كانوا قائمين عليه من كل وجه : كانوا معددين للآلهة ، فجاءهم بالتوحيد . . كانوا يخضعون لحكم القوة ، فأخضعهم لسلطان الحق . كانوا يأخذون بالتقليد ، فحولهم إلى حكم العقل . كانوا يحكمون بالعادات ، فجعلهم يحكمون بالقانون . كانوا قانعين بما كانوا عليه ، فأهاب بهم لطلب الأحسن . كانوا واقفين مع عالم المادة ، فحفزهم لتنور عالم الروح . كانوا مكتفين بالأمر الواقع ، فدفعهم لتحرى المثل الأعلى . كانوا يأخذون بالظنون ، فأمرهم أن لا يأخذوا إلا بالدليل . كانوا راضين بالجهل ، فحضهم على طلب العلم . كانوا يحرصون على على الامتيازات ، فقرر لهم مبدأ المساواة . فالإيمان الذى يستولى على النفسية، ويجردها من كل ما لا بسها من الأصول التى صارت بتوالى توراثها فى الآماد المتتالية ملكات راسخة فيها ، ويحل محلها أصولا تناقضها من كل وجه ،

ويجعل منها كيانا جديداً لشخصيتها ، لا يجوز أن تنظر إليه نظرنا إلى الأمور العادية ، فنعلل به ما نريد أن نتعقله ، ونمضى غير مكترثين له . لأن مثل هذا « الإيمان » الذى يقلب كيان النفس ويحولها من حال إلى حال . لا يعقل أن يكون ثمرة دعوة كلامية ، وإلا أمكن إصلاح أية جماعة بإيجاد إيمان لها من طريق الدعوة ، فلا يكون على الأرض أمة منحرفة عن الصراط السوى فى أية بقعة من بقاع الأرض ، وتصبح مهمة المصلحين من أيسر المهام الاجتماعية ؛ وما نشاهده فى الواقع يخالف ذلك كل المخالفة ، فقد بح صوت الهداة والمرشدين فى كل زمان ومكان من الدعوة إلى الفضائل ، والتنفير من الرذائل ، فلم يزدد الناس إلا مضيا فيما هم فيه ، كأن كل هذه الإهابات بهم لا تعنيهم. ولكن الذى قام به محمد غير مجرد الدعوة ، فأوجد لنفسه فى القلوب هذا الإيمان الراسخ الذى تمكن به من صب نفسية أمة برمتها فى قالب جديد لم تكن تعرفه ، ولا تسمع بمثله من قبل ؟ ؛ قلنا مجرد الدعوة ، لأنكم تنكرون المعجزات ، فعليكم أن تفسروا لنا كيف وصل محمد إلى بث (الإيمان) بنبوته فى هذه النفوس كلها ، وتوصل بذلك إلى التحكم فى تكييفها ، حتى حولها من حال إلى حال آخر ، صلحت معه لأن تصل إلى زعامة العالم كله فى سنين معدودة ؟ ؛ المسألة خطيرة ،خطيرة إلى أبعد حدود اليأس . وهى فى هذا المأزق تصبح أقرب إلى الحل منها وهى على بساط البحث . فإن الدليل على صحة النبوة هو صحة النبوة نفسها ،والفارق بين صحيحها وكاذبها ليس من الدقة بحيث لا تدركه إلا العقول القوية . فالنبوة الكاذبة فرية خسيسة لا تحل إلا بقلوب خوت من كل خير ، ونفوس تجردت من كل فضيلة ، وصارت مباءة لكل دناءة ورجس . والذى يستسيغ الكذب على الله بادعاء أن بينه وبينه اتصالا ، لا يعقل أن يكون إلا فى الدرك الأسفل من فساد الأخلاق ، ويستحيل أن يتولد من هذه النفس المنحلة عمل صالح تتألف منه أمة كريمة ، ذات أصول قويمة ، تتأدى فى سنين قليلة إلى سيادة الأرض ، ناشرة حولها سمعة زكية ، وصيتا مدويا ، حتى اعتبرت منقذة للعالم مما كان يرسف فيه من قيود العبودية ، ويرزح تحته من آصار الجاهلية .

الأمم بين البقاء والفناء :

لله عز وجل نواميس إلهية فى حفظ الأمم وبقائها ، ونواميس أخرى تؤثر فى ضعفها وفنائها ، وهنا فى سورة الأنفال نجد مفتاح ذلك واضحا كل الوضوح . يقول الله عز وجل فى هذه السورة : « ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم[1] » ، ويقول الله عز وجل فى سورة الرعد : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، ومالهم من دونه من وال[2] » .

فى هاتين الآيتين تقرير لمسئولية الإنسان على عمله ، وبيان أن الله لا يغنى الأمم إلا وفق نواميس اجتماعية ثابتة ، والإنسان مع إحاطة علم الله بكل ما ظهر وما خفى من شئونه ، ومع خضوعه لأحكام القضاء والقدر ، قد منحه عز وجل نوعا من الاختيار فى أعماله ، وإطلاق التصرف ، يصنع ما يريد ويفعل ما يختار ، ولكن فى دائرة لا تتجاوز علم الله وإرادته ، فهو يعمد إلى اختيار ما يحلو له ويطيب فى نفسه ويغلب عليه الميل إليه من خير أو شر حسبما وهبه الله من قوة الإرادة والاختيار ، ولكن ما يختاره فى مستقبله ويميل إليه بإرادته ومشيئته قد علمه عز وجل منه وأراده فى الأزل ، وأراد أن يفعله باختياره ومحض إرادته ، لا أن يفعله مرغما مكرها مقهورا مجبرا : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » . فإرادة الله الأزلية وعلمه الأزلى لم يخل باختياره ولم يسلب عنه مشيئته ، بل قد حققها . فالله قد أراد منه أن يفعل باختياره ، فمحال أن يفعل مكرها ، وإلا لم يتحقق ما أراده الله من أن العبد يفعل بإرادته واختياره ، ولم يتحقق معنى «تشاءون» فى قوله : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » ، فإرادة الله وعلمه الأزليان

---

(١) آية ٥٣ سورة الأنفال

(٢) من آية ١١ سورة الرعد

لا إخلال فيهما بإرادة العبد ومشيئته ، بل هما محققان لهما . ولقد أبدع جل وعلا فيما سنه للإنسان من نظامه الاجتماعى ، فربط المسببات بأسبابها ، وهداه النجدين : طريق الخير والشر ، ونصب لكل منهما مغريات وبواعث تدعو إليه ، فأودع فيه الميل للشهوات ، واختلاس الفرص وحب الذات ، وأشرب نفسه الميل للعلو على الغير وحب الانفراد بالطيبات ، مما يكون مدعاة للأنانية والاستئثار ، وأعطاه من سلاح القوة ما يستطيع به التغلب على مزاحمه ومنافسه ، فتطغى بذلك فيه قوة الشهوة والغضب والأنانية والإثرة ، ويميل إلى الظلم والاستهتار والخلاعة والمجون ، ولكنه لم يدعه لهذه المهلكات تفتك به وتشقيه ، وتجعل حياته تعسة بما يتفشى فيه من تناحر وتطاحن ، وبما يوهن من عزيمته من خلود إلى الدعة والراحة واستغراق فى الشهوات واللذائذ ، بل عصمه أولا بنعمة العقل والتمييز والإدراك ، حتى يبصر عاقبة كل فعل حلا مبدؤه وخبثت عاقبته ، فيعتبر ويزدجر بما مر عليه من تجارب ، وأمده ثانيا بنعمة الشرائع تتنزل من لدنه جل وعلا رحمة بالناس ، فتعين العقل على مغالبة العواطف ، وقد جاءت الشرائع لسعادة الناس مناسبة لحالهم فى كل عصر وأوان ، حتى كمل الإنسان واستعد لتلقى أعظم وأدوم شريعة جامعة لمصلحته فى كل طور وكل عصر ، وكفيلة بسعادته فى الدنيا والآخرة ، ومنظمة لعلاقته بربه على أكمل الوجوه وأتمها ، ومنظمة لعلاقة أفراده بعضها ببعض ، سواء فى الاجتماع الملاصق القريب وهو باب الأحوال الشخصية ، أو فى المجتمع البعيد على اختلاف مراتب البعد من السياسة المدنية كالمعاملات والحدود ، والسياسات الدولية كالمحالفات والعهود ، وصون كل أمة حياتها وحمايتها مصالحها . وجاءت الشريعة موقظة للعقل ، هادية له إلى سبيل الخير ، مرشدة إلى ما ينبغى عمله وما ينبغى تركه ، ببيان عاقبة كل فعل من خير أو شر ، حتى يتقوى سلطان العقل على سلطان الهوى ، لكى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . فجاء فى الشريعة الغراء قصص الأمم الماضية وما انتابها وحاق بها من سوء أعمالها ، وعدد بالتفصيل ما أنعم الله به عليها وما مكن لها فى ملكه

وشرح ماأصابها حين استغرقت فى لذائذها وشهواتها ، أو غلب عليها الغرور وانغمست فى الشرور بطغيانها . كل ذلك جاء تفصيلا فى غير ما آية من الكتاب العزيز ، ليكسر من حدة اعتداد الإنسان بنفسه ، وتماديه فى غروره ، ونسيانه أن الاعتدال فى كل شىء هو مصدر بقاء بنيان الكون ؛ وأن الميل هو سبب التهدم والانهيار . وجاءت هاتان الآيتان تجمعان ما تفرق فى كثير غيرهما من الآيات والعظات ، فهما من أجمع جوامع الكلم ، ولقد جرت عادة الله فى الأقوام والأمم أن من سلك للحياة سبلها القويمة ، ودأب على مراعاة قوانينها المنظمة ، فإنه إن كان فى أول أمره فى فقر وعدم فإن دأبه فى عمله الصالح وجده فى تحصيل خيرات الله التى وعدها لمن أحسن عملا ، سيغيره به الله من فقر وعدم ومن وحدة ووحشة ، إلى يسار وغنى ، وإلى عمران وكثرة ، وإلى راحة وهناءة . انظر إلى الأمم تبدأ بالبداوة والوحشية فتستمرىء طعم العمل والجد ، فلا تلبث أن تغدق عليها الخيرات والنعم . فإذا ما استمرت فى سلوك هذا السبيل كانت كل يوم تزداد نعماً ورغداً ، وهكذا حتى يدال لها على غيرها وتصبح فى عز ومنعة ، فتصلح لأن تسود غيرها ، ويمكن الله لها فى ملكه حتى تصبح مهيمنة على كل أمة تتصل بها ممن لم يجد جدها ولم يكد كدها ، ولم يرع قانون الاعتدال فى أحواله مثلها . فإذا ما طغت تلك الأمة وحادت عن الجادة ، واستمرأت مرعى الشهوات الوخيم ، واستنامت للراحة والكسل ، وانغمست فى اللذائذ التى تأكل الهمم وتبرد العزائم ، وتميت الرجولة وتذيب النفوس ، ضاعت منعتها ، واضمحلت حياتها ، وذهب ريحها ، وأبدل بها الله من هو خير منها فى استعمار الأرض والسيطرة على الحياة . وذلك ما ذكره الكثيرون فى تفسير قوله تعالى : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » . ومثل الاسترسال فى الشهوات ، الاندفاع فى الطغيان ، والتمرد على بنى الإنسان ، والمجافاة لقانون العدل والإنصاف ، والتمادى فى اغتيال الحقوق ، والاستئثار بالثمرات والخيرات اعتماداً على القدرة وقوة البطش . فهذا أيضاً باب من أبواب

الهلاك والدمار ، فإن أقرب نتائجه انصراف هم العاملين المغلوبين عن استعمار الأرض واستثمارها ، فيعم الخراب القوى والضعيف ، وينزل مقت الله على الجميع . وهكذا تجد الآية الكريمة مقررة هذه القاعدة الاجتماعية الصادقة ، وهى أن تغيير الله لحال الأمم تابع لتغييرهم ما بأنفسهم من خير إلى شر أو من شر إلى خير . تنقل بنظرك حيث شئت فى أمم حاضرة تشاهدها ، أو ماضية تقرأ أخبارها ، تجد القاعدة مطردة ، وتجد نظام الكون دائم السير على نظام واحد ، لا يفرق بين قوم وقوم ، ولا بين أمة وأمة ، وأن كل شىء قد ارتبط بسببه ارتباطا محكما لا يؤثر فيه غيره ، وليس بلازم إذا رقت أمة فى شىء أن ترقى فى كل شىء ، ولا إذا انحطت فى شىء أن تنحط فى كل شىء ، وإنما اللازم أن ما وضعه الله عز وجل من ارتباط شأن من شئون الحياة بشأن آخر منها ، قد أحكم نظامه ، وأوثق رباطه فلا يخلف من اتبعه ، سواء أكان من أبواب الخير أم من أبواب الشر . لا تجد أمة جدت فى إتقان صناعتها وضاعت عليها ثمرة إتقانها ، ولا أمة اجتهدت فى ترقية زراعتها وخيب الله سعيها أو أخلفها خيره وميره ، ولا أمة هذبت أخلاقها وقوت خلق الصدق والأمانة بين أفرادها ، وكافأها الله على ذلك بضياع الثقة والطمأنينة بين أفرادها بعضهم مع بعض ، أو ضاعت بها عند الأمم الأخرى المجاورة لها العارفة بأحوالها ، سواء أكانت فيما بينها وبين ربها قائمة بحقوق العبادة أم أخلت بها . ومن ذا الذى يقول : إن أمة غلبت عليها شقوتها واستحوذت على عقولها شهوتها وأخلدت إلى السكينة والراحة ، واستعذبت الكسل واستمرأته ، ثم اكتفت بأن قامت بمراسم العبادة قياما صوريا لم يتغلغل إلى قلوبها ، ولم يملك عليها وجدانها ملكا يضبط جوارحها ويهذب من أخلاقها ويبعدها عن مغاضب الله فى الصدق والأمانة ، تكون هى الحائزة للسيطرة على هذه الحياة . إن لكل طريق غاية يوصل إليها ، ولكل عمل ثمرة منتظرة منه ، ولكل خلق فائدة تترتب عليه ، ولكل سبب مسبب منوط به ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، لافرق فى ذلك بين خيرات الدنيا والآخرة

وشرور الدنيا والآخرة ، فمن قام بعبادة ربه وأدى طاعته فقد سلم مما أعده الله للعصاة فى الدار الآخرة . ولكن هل إذا أضاف إلى ذلك التوانى والكسل وإهمال العمل ، تنهال عليه أمطار الرزق وينهمر عليه غيث الخير ؟ لا ؛ فكل مسبب مرتبط بسببه . بل إذا قال قائل . إن ثمرة الإيمان الصحيح هو أن يتبع المؤمن ما سنه الله لخلقه من مراعاة حكمته فى استخلافه لبنى الإنسان فى أرضه ، يستعمرونها ويستثمرونها ، بما وهبهم من قوة ، وبما مكن لهم فى الأرض ، وبما قال لهم فى كتابه العزيز : « خلق الله لكم مافى الأرض جميعا » أقول : إذا قال قائل : إن هذا من ثمرات الإيمان الصحيح ، لم يكن فى قوله بعيدا عن الصواب . فكما أنك تقول : إن من قام بإتقان عمله التجارى ربح ولا يلزم أن تصح زراعته ؛ ومن قام بإصلاح زراعته جنى ثماره ؛ وليس بلازم أن يحسن إدارة التجارة ؛ ومن حذق أساليب الصناعة ارتقت أعماله الصناعية وإن كان أجهل الناس بالزراعة والتجارة ، وهلم جرا ، فقل كذلك : إن من حذق أسباب العمران ارتقى العمران على يديه ، ومن قام بواجب الدين أثابه الله فى آخرته ، ومن أتقن الأمرين معا أحرز السعادتين ، ومن أهملهما معا خسر الصفقتين ، ومن كان فى حال ثم تبدل بها غيرها فقد أحرز نتيجتها شرها أو خيرها « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ، وإن العدل الإلهى لعدل مطلق لا ينبغى أن ينتظر فيه أن يتعب امرؤ أو أمة ويجد ويكد ثم هو مع ذلك يحرم من الثمرات ، بينما آخر قد استنام وأخلد إلى الدعة والكسل ثم هو مع ذلك يفوز . كلا كلا ! إنما ذلك يجرى فيما بين العباد عن ظلم واعتساف ، فإذا ما استمر ذلك فى قوم وساد بينهم الظلم ولم يجدوا من يضع لهم حدا ينقذ الأمة من وخيم عواقبه ، فقد غيروا ما بأنفسهم ، فلا يلبثون أن يحل بهم من الخراب مايحقق قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

إن الآية تقرر قاعدة اجتماعية أى حكما يتعلق بالإنسان من حيث يجتمع هو وغيره فى شئون الحياة ، يرشدك إلى ذلك التعبير بلفظ قوم دون أحد أو إنسان أو امرىء أو نحو ذلك ، فلا يقال : قد نرى رجلا صالحا قام بعمل

واجتاحته جائحة أو ما يشبه ذلك ، لأن هذه الأحوال على ندرتها ليست من أحكام الاجتماع العامة ، وإنما هى من الحوادث التى يريدها الله لحكم قد نعلمها وقد لا نعلمها ، والله عليم حكيم . وإن تعجب بعد ذلك فعجب أن تتضافر المشاهدات المتكررة والوحى الصادق على إثبات قاعدة لا تزيدها التجارب إلا رسوخا ، ثم تدعو إليها مصلحة الأمم ، وتجدهم مع ذلك ينصرفون عنها ولا يعملون بمقتضاها . فهل هذا إلا من عمى القلوب ؟ سبحانك اللهم تهدى من تشاء وتضل من تشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد . ولو لم يكن الأمر كذلك ، وأنه إذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، فبماذا نعلل خروج الأمم العاقلة المبصرة على ما علمته علم اليقين ، وزادت به استبصارا بالتجارب والمشاهدات فى نفسها وفى غيرها ، ثم تتعين فيه مصلحتها ؟ فى مثل هذه الأمم تجد الأفراد يتقاذفون الملامات ، وكل يتنصل مما أصابها ويرى غيره بأنه سبب بلائها . ولو أنصف كل امرىء من نفسه لعلم أنه بإصلاح حاله وقيامه بواجبه حق قيامه يكون قد أكسب أمته خيرين : خيرا بزيادة عدد الصالحين النافعين واحدا ، وخيرا بنقص عدد الفاسدين الشريرين واحدا ، وفى كل من زيادة المصلحين ونقص المفسدين فائدة ومنفعة . فاللهم اهدنا صراطك المستقيم ! ترى من هذا أن الآية الكريمة محتملة لإفادة العموم فى كل شئون الإنسان ، والحمل على العموم أغزر للفائدة . ويكون التناسب بينها وبين الآى السابقة أن الكلام مبناه من أول السورة على بيان آيات الله الكونية الدالة على عظيم قدرته ، وبديع حكمته ، وواسع علمه ، وباهر نظام تكوينه ، فسيقت آيات الشمس والقمر والزرع والنبات وأمثالها ، وفصلت تلك الآيات بالتعجيب من حال المنكرين للبعث الآمنين مكر الله ، والنعى عليهم ، وتسفيه أحلامهم فى استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة ، وفى طلب إنزال آية ، كأن لم يكفهم ما رأوا ، ثم العود إلى تقرير الأدلة الناصعة على إحاطة علمه جل شأنه بكل ما خفى وما ظهر ، وأن جنده محيطون بالعباد ، ولا يفلت من أمرهم شىء ، ولا يصيبهم مما يحيطهم شىء إلا ما قضى وقدر ، وأن أمره نافذ فى جميع ملكه بلا معارض ولا ممانع . ثم أردف ذلك ببيان

أن نظام العالم فى ارتباط أسبابه بمسبباته نظام مطرد ، لا يختل عما رسم ، ولا يغاير ما حكم ، إلا أن تكون حكمة تقتضى أمرا معينا هو أعلم به وأمره موكول إليه ، وإلا فما عدا ذلك من إنتاج كل عمل ما رتب عليه من خير أو شر أمر مطرد ، فاحذروا أن يصيبكم ما أصاب المعوجين من خراب وهلاك ، وارجوا من فضله ورحمته ما غنمه من قبلكم ممن أحسنوا السير ، فلا السعادة ولا الشقاوة منشورتين فرطا ، ولا الأمور تجرى على غير هدى ، بل هو حكم بالغ ونظام كامل ، فمن اتبع سبيل الهدى والاستقامة أدرك السعادة ، ومن اعوج وضل ندم حيث لا ينفعه الندم « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . وجمهور المفسرين على أن معنى : « إن الله لا يغير ما بقوم -أى من النعم- حتى يغيروا ما بأنفسهم » أى من الطاعات ، وأنه لا ينزل عذاب الاستئصال والمقت إلا على العصاة . وهذا — على ما نقول — بعض ما تشمله الآية . ودلالتها — على ما نرى — أوسع مما ذكروه . وأما قوله تعالى : « وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » فموقعها مما قبلها يشبه ما يسميه علماء البديع « الاحتراس » فإنها تدفع ما قد يتوهمه متوهم من أن العالم حينئذ خاضع لما يجرى من العباد ويأتونه من خير أوشر ، فأين قدرة الله وإطلاق مشيئته وإرادته ؟ فجاءت هذه الآية لدفع هذا الوهم ورد الأمر إلى نصابه الحقيق ، ببيان أن من يهدى الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فما له من هاد ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله . وكون مشيئة الله أصلا لمشيئة العبد لا يقتلع ما للعبد من مشيئة ، فله مشيئة واختيار يبتنى عليهما تكليفه ، فيستحق الثواب والعقاب على ما أتى ، وتربى فيه الهداية التشريعية إرادة الخير لما فيه من النفع الدائم الخالد ، وتنتزع منه حب العاجلة حبا يضيع عليه الآخرة والآجلة . فهو مختار بلا شك ، ومكلف أن يتخير ما فيه الخير الحقيق لنفسه . وقد بين له الطريقين « وهديناه النجدين » فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » . « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » .

الحرب والسلام فى الإسلام :

والإسلام ، وهو شريعة السماء ، ودين الرحمة والإخاء ، قد دعا إلى السلام، وحثا عليه وأكده تأكيدا ، ولكنه مع ذلك لم يغفل نوازع الشر فى النفس الإنسانية ، وأنه قد يتعين علاجها بالحرب ، وأن من الجماعات الإنسانية من يجب بترهم واستئصالهم لمصلحة الجماعة ومنفعتها فى حاضرها ومستقبلها ، كالجسم قد يكون سلامته فى بتر العضو الفاسد فيه . . ونحن نعلم أنه لما استقر النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وأسس بها حكومته النبوية على ما وصفناها فى الفصل المتقدم ، كان مقصودا بالقتل من قريش . وليس يعقل أن تغمض قريش عينيها ، ومصلحتها الحيوية قائمة على زعامة الدين فى البلاد العربية ، عن قيام زعامة أخرى فى بلد كيثرب يصبح منافسا لأم القرى ، وربما بزها سلطانا على العقول ، وكر على قريش فأباد خضراءها ، وسلبها حقها الموروث . ولا يسع الإسلام من جانبه مهما كانت ميوله سلمية «فاصفح عنهم وقل سلام»، أن يستمر فى منع القائمين به عن الدفاع عن أنفسهم ، وعن الدين الذى أنزل للإنسانية كافة ، فى عالم يضيع الحق فيه إن لم تكن وراءه قوة تؤيده . فكان لامناص من السماح للمسلمين بحماية أنفسهم ودينهم بالسلاح الذى يشهره خصومهم فى وجوههم ، فأنزل الله قوله تعالى : «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور . وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم إبراهيم وقوم لوط ، وأصحاب مدين ، وكذب موسى ، فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير؟ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة ، فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ! أفلم يسيروا فى الأرض فتكون

لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور . ويستعجلونك بالعذاب ، ولن يخلف الله وعده، وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون . وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة، ثم أخذتها وإلى المصير . قل يأيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم ، والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم ، هذا ولم يغفل الإسلام حتى فى هذا الموطن ، موطن الدفاع عن النفس والدين ، أن ينصح لأتباعه بعدم العدوان ، لأن الموضوع حماية حق لا موضوع انتقام ولا شفاء حزازات الصدور . وهذا من مميزات الحكومة النبوية ، فإن القائم عليها من نبى يكون كالجراح يضع مشرطه حيث يوجد الداء لاستئصاله ، مع عدم المساس بالأعضاء السليمة ، ومقصده استبقاء حياة المريض لا قتله . والعالم كله فى نظر الحكومة النبوية شخص مريض تعمل لاستدامة وجوده سليما قويا ، خالصا من الأمراض العضالة . والإسلام باعتبار أنه دين عام للناس كافة ، يعد العالم كله أمة واحدة ، غير معتد بما أحدثته البيئات والتقاسيم الجغرافية بينهم من الفروق فى الألوان واللغات والأديان. لهذا السبب ولأن موحيه هو رب العالمين الذى وسعت رحمته كل شىء ، أحيطت جميع آيات الجهاد فيه بأوامر مشددة فى مراعاة العدل مع المحاربين ، وعدم الإسراف فى سفك دمائهم، والاعتداد بالظاهر من أعذارهم ، مما يعد مثلا عليا لم تصل المدنية بعد جهادها الطويل ألوفا من السنين إلى خيال منها ، ناهيك أنه يحرم على أهله أن يقتلوا خدم المحاربين الذين يمدونهم بالطعام والشراب، ويعينونهم على حمل عتادهم، وخدمة دوابهم ،وهذا غير ما أمر من احترام حياة شيوخهم وولدانهم ونسائهم ورجال أديانهم ، وعدم الإجهاز على جرحاهم ، وعدم تعقب مهزوميهم للفتك بهم من خلفهم ، فقال الله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » وقال : « ولا يجرمنكم شنآن قوم — أى ولا يحملنكم بغضكم لقوم — ، أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن

الله شديد العقاب ، وقال : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون. بهذه القيود الرحيمة ، وفى هذه الحدود العادلة ، أذن الله للمسلمين أن ينبذوا لأعدائهم على سواء ، وأن يقابلوا قوتهم بمثلها حتى يحق الله الحق ، ويزهق الباطل ، ويظهر دين الله على جميع ما حاكته الأوهام من عقائد باطلة ، وخيالات عاطلة. ولما كان القرشيون قد صارحوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالحرب ـ ولو كان تركهم وشأنهم بعد شخوصهم إلى المدينة لما تركوه وشأنه ـ فقد اعتبرهم فى حالة حرب ، وعاملهم على موجب هذا الاعتبار .

هذا ولا بد لنا من نفى شبهة كثيرا ما أثارها خصوم الإسلام ضده ، إذ قالوا: إن الإسلام دين شرعت فيه الحرب ، والدين الحق يجب أن يتنزه عن ذلك فلا يدعو إلا إلى السلام ، لأن الحرب من بقايا الوحشية الأولى ، ولا يجوز أن يعتمد عليها دين إلهى أنزل ليكون رحمة للعالمين .

لاجرم أن الذين يدلون بهـذه الشبهة لا يعرفون من طبيعة العالم الأرضى ومن عوامل الاجتماع الإنسانى ، ولا من تاريخ الأديان السماوية ، ما يجب أن يعرف ليجيء حكمهم عادلا ، ورأيهم مسددا .

إن طبيعة هذا العالم مبنية على التدافع والتغالب ، ليس فيما بين الناس فحسب ، ولـكن فيما بينهم وبين الوجود المحيط بهم ، وفيما بين كل فرد والعوامل المتسلطة عليه من نفسه . ولا تشذ عن هـذه القاعدة العامة الحيوانات ولا النباتات أيضاً . وقد بنى علماء النبات والحيوانات وعلماء الإنسان على هـذا التدافع كل ترق طرأ على هـذه العوالم الثلاثة ، ولا أظن أن قارئنا من قرائنا يجهل الناموس الذى اكتشفه دارون وروسل ولاس ودعواه ناموس تنازع البقاء ، وبنيا عليه كل تطور أصاب الأنواع النباتية والحيوانية والإنسان أيضا. وقد أشار الله إلى خطر هذا الأصل العظيم بقوله تعالى فيما يتصل بالإنسان : « ولولا دفع الله النـاس بعضهم ببعض لفسـدت الأرض ، ولـكن الله

ذو فضل على العالمين » . وإنما تفسد الأرض بتغلب الأشرار ، وتقاعس الأخيار عن التنكيل بهم . وفضلا عن تغلغل الأشرار فى شرورهم ، فإنهم لا يدعون الأخيار أحرارا فى ممارسة فضائلهم . وقد صرح الكتاب الكريم بهذا فى قوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع ، وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » . ألم تر كيف تصدى خصوم الدين النصرانى للمسيح وما كان يدعو إلا للصلاح والسلام ، حتى أنهم استصدروا أمرا بصلبه فنجاه الله منهم ، ومازالوا بالذين اتبعوه يضطهدونهم ويقتلونهم حتى مضت ثلاثة قرون وهم مشردون فى الأرض لاتجمعهم جامعة ، إلى أن حماهم من أعدائهم السيف على يد الأمبراطور قسطنطين الرومانى ، واتفق أنه كان يدين بالنصرانية ، فلما ولى الملك أعمل السيف فى الوثنيين ، وهدم هياكلهم ، وأجبرهم على قبول المسيحية دينا لهم . ومن ذلك العهد أمكن المسيحيين أن يجاهروا بدينهم ، وأن يتخذوا لهم زعامة دينية . وأفادهم هذا الدرس القاسى فى ضرورة استخدام السيف لنشر الدعوة ، ولقمع الوثنيين ، حتى دانت لهم أوربا كلها . ولا يمكن أن ينسى أحد ماحدث بين البروتستانتية والكاثوليكية من الحروب الماحقة حتى استقر كل فريق منهم فى الحيز الذى هو فيه .

أو لم تر أيضاً كيف تصدى الجاهليون لمحمد صلى الله عليه وسلم فمنعوه عن نشر الدين الذى أوحاه الله إليه ، وانتهى أمرهم بالتألب عليه لقتله ، والفراغ من أمره ؟ ثم ماحدث منهم بعد أن هاجر إلى المدينة حيث تقصدوه بها ، مؤلبين عليه القبائل الجاهلية لإبطال أمره ، والتعفية على أثره ؟ .

أفيريد مثيرو هذه الشبهة أن يقوم دين على غير السنن الطبيعية فى عالم مبنى على مبدأ التدافع والتنازع ، واستخدام القوة الحيوانية لطمس معالم الحق ودك صروح العدل ؟

يقول المعترضون : وماذا أعددتم من حجة حين تجمع الأمم على إبطال

الحروب ، وحسم منازعاتها من طريق التحكيم ، وهذا قرآنكم يدعوكم للجهاد ، ويحثكم على الاستبسال فيه ؟ نقول : أعددنا لهذا العهد قوله تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » هذه حكمة بالغة من القرآن ، بل هذه معجزة من معجزاته الخالدة ، وهى أدل دليل على أنه لم يشرع الحرب لذاتها ، ولكن لأنها من عوامل الاجتماع التى لابد منها مادام الإنسان فى عقليته ونفسيته المأثورتين عنه . غير أنه لم ينف أن يحدث تطور عالمى يتفق فيه على إبطال الحرب ، فصرح بهذا الحكم قبل حدوثه ليكون حجة لأهله من ناحية ، وليدل على أنه لايريد الحرب لذاتها من ناحية أخرى . ولو كان يريدها لذاتها لما نوه بهذا الحكم . ولو كان ذكر له إمكان جنوح الأمم للسلم ، لكر على هذا القول بالدحض ، ولحض أهله على عدم الإصغاء إليه ، وعلى اعتباره من عوامل التثبيط لهم .

ومما يجب لفت النظر إليه ، أن الإسلام قد أشاد بذكر كلمة السلام بما لم يفعله مذهب اجتماعى قبله . ناهيك أن الله قد سمى نفسه السلام ، وجعل السلام تحية الإسلام يتبادلها المسلمون فى اليوم ملايين المرات ، ونوه القرآن فى آيات كثيرة بكلمة السلام ، ودعا الجنة التى وعد بها المؤمنون بدار السلام وذكر أن تحية أهلها فيها سلام ، فجواء البلاد الإسلامية مشبعة بهذه الكلمة يتنفسها المسلمون ممتزجة بأوكسيجين الهواء ، وليست هذه سيرة الأمم التى تجعل شعارها الحرب فى الحياة ، ولكنها سيرة الذين يحبون السلام ويعملون على رفع لوائه بين الناس .

ويزيد هذا الأمر اتضاحا أن الإسلام إنما سمح بالحرب لإيجاد السلام ، لالتأييد مبدأ التناحر بين الأنام ، فقال تعالى : « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله » . ومن العجيب أن الأمم المؤيدة للسلام هى فى مثل هذه الضرورة اليوم ، فقد تجردت لحرب طاحنة مكرهة عليها ، لاهم لها إلا إيجاد السلام ، فعلى من يتهم الإسلام باقرار مذهب التناحر أن يعتبر بما سيقت إليه الأمم الديمقراطية اليوم من مجزرة بشرية هائلة دفعت إليها دفعا

فى سبيل تحطيم مبدأ التناحر لافى سبيل شىء آخر . فإذا كانت هذه الأمم التى وصلت إلى درجة رفيعة من المدنية ، تضطر إلى الدخول فى مثل هذه الحرب الماحقة ، فى القرن العشرين ، افلا تكون أمثال تلك الضرورة تنشأ فى الجماعات التى فى دور التكون لتحمى وجودها ، فى عالم كان كل مافيه موجها إليها لحلها ، وملاشاة كل ماحملته من عوامل الهدم والبناء لتأسيس عهد جديد يخرج بالإنسانية من الظلمات إلى النور ؟

يتضح مما مر كله أن اعتراف الإسلام بالحرب ، كضرورة لامحيد عنها ، كان لحكمة بالغة ، لو أغفلت لكان تلاشى كل ماحمله الإسلام من عوامل إنهاض الأمم ، ووسائل نقلها من عهد البداوة والاستبداد إلى عهد الحضارة والمدنية والعدالة والإنصاف .

قومية إسلامية عربية :

تشير الآية الكريمة « وألف بين قلوبهم » إلى نزعة القومية الإسلامية العربية وتمكنها فى قلوب المسلمين . .

والقومية مجموعة من الخصائص والطباع والتقاليد والمزايا والنظم الاجتماعية تنطبع على مر الأجيال فى نفوس قوم تعرف بهم ، ويعرفون بها .

أما الوطنية فهى ارتباط الفرد بقطعة من الأرض تعرف باسم الوطن . وهى عاطفة تصدر من أعماق النفس ، لافكرة تتولد من ملاحظات العقل . فمفهوم الوطن بهذا المعنى أوسع بكثير من مفهوم مسقط الرأس ، وعلاقة الإنسان بوطنه لم تكن وليدة تفاعل مادى محسوس ، كما أن حدود هذا الوطن لاتتصف بالمشاهدة المباشرة . فالوطن يشمل كثيراً من البلاد التى لم يعش المواطن تحت سمائها ولا شرب من مائها ، ولا استطاع أن يمتع النظر بمشاهدتها فعلا . ومع أن بعض الناس ينشأ بعيداً عن وطنه أو قد يكون منفياً عنه أو متألما من نظام حكومته أو سياستها ، إلا أنه مع ذلك كله يحبه ويعمل فى سبيل سعادته ورفعته . .

ذلك هو المواطن الصالح الذى يعرف معنى الوطن فيحبه ويسارع إلى خدمته ويضحى فى سبيله . والفكرة القومية تتغلغل فى النفوس تغلغلا يجعلها أحدى القوى المؤثرة فى تكوين الدول وتوجيه السياسة الدولية . فنشأت دول كثيرة على أساس من هذا الوعى القومى .

وقد ظهرت القومية العربية ظهورا واضحا بعد الفتوحات المحمدية فى جزيرة العرب ، ولما امتدت الفتوحات الإسلامية فى الشرق والغرب ، وهاجر العرب إلى الدول القريبة ، ونشروا اللغة العربية فيها ، وصاروا عنصرا مهما من عناصر السكان المكونين لها ، أصبحت قومية العروبة وآصرتها تجمعهم ،ثم لما امتدت الفتوحات الإسلامية فى الشرق والغرب صارت القومية الإسلامية تجمع المسلمين فى كل مكان على الاتحاد والتجمع والتكون .

وأساس ذلك كله المجتمع الصغير الذى كونه الرسول فى المدينة ، وانبعثت منه طاقات روحية ضخمة . وامتد أثره على المسلمين الذين كونوا على الرغم من اختلاف عناصرهم قومية واحدة امتد أثرها على الأجيال والتاريخ . فصنع المسلمون المعجزات ، وبهرت حضارتهم العالم ، وكتبوا تراثا خالدا ممثلا لقصص البطولة والمجد والكفاح من أجل المثل الإنسانية الرفيعة ، ومن أجل مستقبل البشر وإسعادهم ، ومن أجل تأثيل الحضارة والمدنية والمعرفة ، وإتاحة كل الفرص الممكنة المواتية أمام بنى البشر جميعا ، ولكن هذا التاريخ قد نسيناه ونسينا أمجاده ، وعمل الاستعمار بكل وسائله على أن ينسينا إياه ، فبدد مصادره ، وأخفى معالمه ، ومنع تدريسه فى جامعاتنا ومعاهدنا مدة طويلة ، كان الشرق الإسلامى خلالها خاضعا لنفوذه وسلطانه ، بل لقد صادر الاستعمار كل ما يكتب عن هذا التاريخ الحى المشرق التليد ، حتى عهد قريب . . هذا التاريخ كله مآثر ومفاخر لو وزعت على أمم الأرض جميعا لوسعتها بطولة وكفاحا ومدنية وحضارة ومعرفة ؟ ولو كنا نعى ونقدر تاريخنا ونضالنا خلال عصور التاريخ ، لرأينا أمجاده ممثلة فى تماثيل جليلة تهتز بها الميادين ، وفى قصص

بليغة يحفظها النشء ويرددونها فى قصائد قصيرة وملاحم طويلة ، وتمثيليات مثيرة وفى كتب مصورة للأطفال ، وفى موسوعات مطولة للباحثين والدارسين ، وفى أغان وقصص شعبية ، ولو كنا حريصين على تاريخنا نقدره ونعيه لصنعنا منه المعجزات ، كما يفعل غيرنا ، بل لجعلناه أساطير منسوجة من خيوط الحقيقة ، لامن خيوط الخيال الذى ينسج منه الأوربيون تاريخهم.
وأعجب مآسى تاريخ الشرق الإسلامى أن الاستعمار استطاع أن يلقننا أن تاريخنا كله خلو من الحياة والروح والتضحيات والبطولات ، وأنه تاريخ ميت ، لايسعى إلى هدف ، ولايسير إلى غاية ، وأنه تاريخ لم يفد الحضارة ولا الإنسانية شيئاً ، وأنه كله منازعات بين الطوائف والجماعات والعصبيات ، وأننا لا بأس أن نسدل عليه الستار ، فلن نستفيد من المعرفة به شيئاً ! ومن المآسى الدامية التى أحاط بها الاستعمار تاريخنا أنه سرق كل أمجادنا وبطولاتنا واختراعاتنا وأعمالنا ، فأخذها وادعاها لنفسه ، بعد أن أصبح لدول الاستعمار السيطرة على العالم الإسلامى ، ثم لقننا أن المسلمين لم يصنعوا شيئاً ولم يكن لهم فى مجال البحث والاختراع والحضارة جهد ما ! والأدهى من ذلك أنه عاد فجعل كثيراً من الدول الإسلامية التى كانت تعيش فى قلب أفريقية أرضا مجهولة ، وأن « المكتشفين » الغربيين قاموا بعدة رحلات لاكتشاف هذه البلاد النائية حتى عثروا عليها ، وأطلعوا العالم على خريطتها ! هذه كلها أشياء من صنع الاستعمار وكيده ومكره ودهائه ، وما أفظع ما صنع الاستعمار بنا من مآس ومكائد . .
وعندما نعى أحداث التاريخ الإسلامى نعرف هذه الحقائق المذهلة :

١ — تاريخ المسلمين فى جميع العصور مملوء بالبطولات وروائع التضحيات وهو غنى بأمجاده ومفاخره .

٢ — تاريخنا هو تاريخ الحضارة والمدنية والمعرفة ، وتاريخ الكفاح من أجل تقدم الإنسانية ، ومن أجل النهوض بمستوى الحياة البشرية ، ومن أجل المثل والقيم الرفيعة .

٣ — عرف المسلمون كثيراً من أصول المخترعات الحديثة التي ينسب الأوربيون لأنفسهم فضل معرفتها والكشف عنها .

٤ — ابتكر المسلمون النظام الديمقراطي النيابي وطبقوه في الأندلس تطبيقاً كاملاً ، وكان الذين قاموا بتطبيقه هم بنو عباد ملوك أشبيلية .

٥ — اكتشف المسلمون القارات كلها ، وقاموا برحلات علمية إلى جميع أطراف الأرض والمحيطات والبحار ، وإلى أواسط أفريقية ، وإلى شمالي أوربا .

٦ — قامت الدول الإسلامية في أنحاء العالم الإسلامي بأعمال مجيدة في خدمة الشعوب ، والترفيه عنها ، ودفع عجلة الإصلاح فيها ، وابتكرت الكثير من هذه الدول الإسلامية نظام مجانية التعليم ، ومجانية العلاج ، والضمان الاجتماعي ، والنظام الاشتراكي التعاوني في رؤوس الأموال ، وأقامت الملاجىء والمستشفيات والجامعات ودور العلم ودور الضيافة ، وأسست الكثير من المصانع ، وابتكرت أدق النظم في تطبيق العدالة وفي القضاء .

٧ — ألغت الدول الإسلامية الحواجز الجمركية بينها ، وجعلت الشرق الإسلامي كله شبيها بولايات متحدة إسلامية ، بل كان النظام فيها يسير نحو هدف إنشاء حكومة عالمية موحدة .

٨ — أنشأت الدول الإسلامية فيما بينها أحدث نظم البريد ، وأنشأت خطوطا منظمة لقوافل التجارة في البر والبحر .

٩ — صاحب التاريخ الإسلامي في جميع عصوره حركات ثقافية وروحية وفكرية واسعة النطاق في جميع أنحاء بلاد المسلمين ، وعكف العلماء والمفكرون على البحث والتأليف ، فأنتجوا لنا ثروة ذهنية ليس لها نظير في التاريخ الثقافي لأي شعب من الشعوب .

١٠ — حاربت أوربا بوسائلها المختلفة الإسلام ، وعملت على تعويق النهضة الإسلامية والزحف الإسلامي الأكبر ؛ ومعركة بواتييه ، ومعارك

الحروب الصليبية ، ومعارك المسيحيين مع المسلمين فى الأندلس ، هى أمثلة واضحة لذلك . بل إن أوربا قد سعت فى القرن السابع والثامن الهجرى للتحالف مع مغول آسيا للقضاء على العالم الإسلامى وتدميره ، ولولا مصر ووقفاتها الرائعة فى حطين وعين جالوت لدمر العالم الإسلامى تدميراً .

١١ — أوربا لا تزال حتى اليوم تحارب الانبعاث الإسلامى ، وموقفها اليوم فى حرب القومية العربية أصدق شاهد على ما نقول . بل إن موقفها من مأساة فلسطين وصنعها هى لهذه المأساة لهو أوضح دليل على ما نقول . . ومن قبل طرد المسلمون من الأندلس عام ٨٩٧ هجرية ، ثم أنهى الإنجليز الحكم الإسلامى فى الهند عام ١٨٥٧ ميلادية وقبضوا على آخر الملوك المسلمين فى الهند من الأسرة المغولية ، وهو الملك بهادور شاه ، وقتلوا كل أعوانه وأنصاره وأهل بيته ، وأقاموا المذابح العامة فى الشوارع والميادين ، وقتلوا أولاده أمامه ، ونفوه إلى رانجون عاصمة بورما ، حيث توفى وحيداً فيها فى ٧ نوفمبر ١٨٦٢م وكتب فى مذكراته قبل وفاته بقليل يقول : « من يوقد الشمع على قبرى ؟ ومن يأتى إليه بالورود ؟ نعم لا ورود ولا شموع حتى لا تأتى فراشة تحوم حولى ، ولا يصدح بلبل غريد فوق قبرى » . وكتب أيضاً يقول : « يا رسول الله ، كانت أمنيتى أن يكون بيتى فى المدينة بجوارك ، ولكنه أصبح فى رانجون ، وبقيت أمنياتى مدفونة فى صدرى . يا رسول الله ، كانت أمنيتى أن أمرغ عينى فى تراب أعتابك ، ولكن ها أنذا أتمرغ فى تراب رانجون ، وبدلا من أن أشرب من ماء زمزم بقيت هنا أشرب الدموع الدامية ، فهل تنجدنى يا رسول الله ولم يبق من حياتى غير عدة أيام » . ! !

إن القومية الإسلامية التى كان أساسها المجتمع الإسلامى الصغير الذى أنشأه الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، وآخى فيه بين الأنصار والمهاجرين ، وألف فيه الله بين قلوب المسلمين حتى اجتمع الأوس والخزرج وغيرهم على توحيد الله وطاعته ، هى القومية الإسلامية التى صنعت المعجزات

خلال الأجيال ، وقاومت المغول التتار والصليبيين وغيرهم خلال عصور التاريخ ، وكانت الخلافة الإسلامية تجمع شمل المسلمين فى كل مكان . والآن لما نجح الاستعمار فى هدم الخلافة الإسلامية ، ولما وزع سياسات الدول الإسلامية ، أخذنا فى الدعوة من جديد إلى قومية عربية تعمل لوحدة شعوب العرب ، ولمجد أمة العرب ، ولخدمة تاريخها وتراثها ، ومن يدرى فقد تسير القومية العربية بالمسلمين وجهة جديدة ، تجمع شملهم وتلم شعثهم ، وتعيد وحدتهم الكبرى ، وفى التاريخ الإسلامى خلال العصور معجزات ليست فى حسبان أحد .

صمود الإسلام أمام العلم :

ولقد دل الإسلام على مناعة لاترام فى جميع أدوار تاريخه ، فاحتك بالأديان التى سبقته ، وقد كان يتولاها رجال بلغوا من الثقافة العلمية ما لم يكن له ظل فى البيئة التى ظهر فيها الإسلام ، ومرنوا على الجدل مرانا طويل الأمد فى مجادلة الخصوم ، ومجالدة المبتدعة ؛ فلو لم يكن فى الإسلام من عناصر الغلب إلا ما تسمح به الأمية التى كانت عليها الأمة العربية ، والجاهلية التى كانت ضاربة بجرانها فيهم ، لظهر ضعفه من أول مصادمة ، ولما اجتذب من صميم الديانات التى كانت عليها الأمم المتمدينة إذ ذاك ، رجالا كانوا فى الذؤابة من ذويهم . وقد أبان الإسلام أيضا عن مرونة بحيث كان يؤثر حتى فى عقول الجماعات البدائية ، فيجد طريقه إلى نفوسها من خلال حجب كثيفة من العادات والتقاليد والوراثات ، فيخلعها عنها بلباقة لا يعرف لها سر ، ويحولها إلى درجة العقيدة الراسخة به ، على حين أنها كانت أعصى قيادا على دعاة الملل من الشعوب المتعلمة . ألم يتبار دعاة الإسلام ، وكلهم من التجار والمرتزقة ، ودعاة الأديان الأخرى ؛ فى مجاهل أفريقيا ، فكانت النتيجة أن دخل فى الإسلام عشرات الملايين من النفوس ، وخاب مزاحموه خيبة أصبحت مضرب الأمثال إلى اليوم ؟ واليوم يدعى الإسلام ليجرب نفسه مع

العلم ، العلم الذى نعته دعاة الملل بأنه جبار عات ، ما صاول دينا إلا تغلب عليه ، وأجلاه عن أرضه ؛ فيقول الذين افتتنوا بالقشور العلمية : إن هذا الدور هو الذى سينتقم العلم فيه من الإسلام ، ويذيقه من الانحلال ما أذاقه للأديان التى نافسها وتغلب عليها ، واتخذ من أهلها شيعة له ، على الرغم من أنه أجنبى عنها، وكتابه عربى ولغتها أعجمية . سيخيب فأل هؤلاء الدعاة كما خاب فأل أسلافهم ، حين احتك الإسلام بالإسرائيلية والمسيحية ، والنحل الفارسية والسوريانية والكلدانية ؛ لأن العلم الذى يزعجوننا به اليوم ، ليس هو علم الأمس العاتى المتغطرس الذى كان يخيل إليه أنه كشف مكنونات الخليقة ومساتيرها ، وسرى فى سرائر الوجود ، فحكم عليه حكما لا يقبل النقض ؛ ولكنه علم القرن العشرين الوادع المتواضع ، الذى يملؤنا يقينا بأنه لم يلم بعد طول مراسه للكائنات ، إلا بقشورها وعلاقات بعضها ببعض ؛ أما حقائقها فلم تزل تتأبى عليه ، وتخفى فى صميمها سرا لو انكشف له لتغير فهمه فى الوجود كل التغير ، ولرأى أنه فى اشتغاله بظواهرها، ووقوفه عند حدودها ، وبنائه المذاهب عليها، كان يخوض فى أوهام متراكبة بعضها فوق بعض ، إن العلم سيكون من أقوى أعوان الإسلام ، لأن الأصول الإسلامية ، والمبادىء القرآنية ، تتفق وأمثالها من التى أوجدها العلم كل الاتفاق ، فلن يكون بينهما موطن نزاع على شىء من الأشياء . ولئن وجد فإن الإسلام بما قرره من مبدأ التأويل متى أثبت العقل والعلم صحة شىء ، يخرجه من هذه المآزق مرفوع الرأس . وقد احتك آباؤنا الأولون بالعلم ، تحت حماية هذا المبدأ الأصولى الجليل ، فلم يصادفوا منه خطرا على عقائدهم ، ومضوا حيث مضى قدما ، فبلغوا منه غاية لم يبلغها واضعوه أنفسهم ، واستفادوا من وسائله على أوسع ما تسمح به ، فكانوا السابقين إلى أسرار الصناعات ، وأساليب الإبداعات ، مما جعل مدنيتهم المادية من الرفعة ، فى مستوى عقائدهم الدينية من المنعة ، وخلفوا وراءهم من الآثار مالا يزال المؤرخون يكتشفون من غرائبه ما يطرفون به معاصريهم . نعم إن آباءنا هؤلاء قد عادوا الفلسفة ، ولهم فى ذلك تاريخ لا يستطاع إنكاره ،

ولكن هذه المعاداة فضلا عن أنها لا تشين سمعتهم ، فهى تستنزل العجب من حكمتهم ؛ ذلك لأن الفلسفة ضرب من الخيالات التصورية ، وأنت خبير بقيمة الخيالات من الفلسفة العصرية ، وبما تصف به الآخذ بها من انحطاط القوى العقلية ؛ فيكون استعصاء أئمة المسلمين على سلطان تلك الخيالات ، فى عهد كان فيه سلطانها على العقول لا يستطاع دفعه ، من أقوى الدلالات على سعة عقولهم ، وسمو مداركهم ، وعلى حكمة التعاليم التى كانت تمنعهم من الترامى عليها كما ترامت عليها أكثر الأمم . إن مناعة الإسلام التى ضربت بها الأمثال ، بعد أن خرج فائزاً من جميع ما صادفه من الخصومات فى تاريخه الطويل ، ستتكلل بانتصار جديد على المذهب المادى الذى يحاول فلوله اليوم فى بلاد المسلمين أن ينشئوا له دار هجرة يأوى إليها ، بعد أن لفظته الأقطار الغربية حين ثبت لها أنه قائم على إيمان تقليدى راسخ ، بخلو الوجود من غير المادة وقواها ؛ لا على بحث قيم ، ولا تجربة حسية . والعلم بعد أن شابت ناصيته فى التطور ، ورأى خطر التحكم الوهمى على كماله ، يأبى أن ينقاد بعد اليوم لمن يصف بالوجود أو بالعدم ما ليس له به علم ثابت . وهذا هو الأصل الأول للفلسفة الحسية . ويقول العلامة (ليتريه) فى كتابه « كلمات فى الفلسفة الحسية » : « بما أننا نجهل أصول الكائنات ومصائرها ، فلا يجوز لنا أن ننكر وجود شىء سابق عليها أو لاحق لها ، كما لا يجوز لنا أن نثبت ذلك » . ويقول الفيلسوف روبينيه فى كتابه « الفلسفة الحسية » : « يريد الفلاسفة الحسيون أن يبعدوا عنهم كل خيال أو توهم ، وأن لا يعتمدوا إلا على المشاهدة المحسوسة ، وان يحذفوا من أقوالهم كل الافتراضات التى لا يمكن تحقيقها » . هذه هى أصول فلسفة العصر الحاضر ، فهل الماديون منها فى شىء ؟ هل منها حكمهم البات بقدم المادة وأبديتها ، وبعدم وجود عالم أرفع من عالمها ؟ لا ، ليس منها هذا ولا ذاك ، ولكن إذا وفق رجال من أهل العلم إلى البحث فى منحى جديد من مناحى الوجود ، فأكدوا لنا عثورهم على آثار عالم فوق هذا العالم ، وبقيام عقول كعقولنا فيه مجردة عن المادة ، ودعوا إخوانهم من كل جنس لشهوده ؛ فلبوا الدعوة وأيدوهم فيها ، وما زالوا يكثرون حتى بلغوا

الألوف فى تسعين سنة متوالية ، فبأى حق ننكر عليهم مايقولون وهوخاضع للتجربة ؟ إذا كنا ننكر ذلك العالم العلوى بحجة أنه مما لا ندركه بأبصارنا ولا نحس به بمشاعرنا ، فإن فى الوجود الذى نعيش فيه ظواهر مادية كشفها العلم المحسوس وقررها ، ونحن لا نحلم بوجودها ، فهل فى الأرض من يقول بوجوب نكرانها ؟ قال كاميل فلامريون فى كتابه « الموت وغامضته » : « الإنسانية تعيش فى جهالة بعيدة الغور ، وهى لا تدرى أن تركيبنا الجثمانى الطبيعى لا يعرفنا بكل ما يقع فيه ، فإن حواسنا تخدعنا فى كل شىء ، والتحليل العلمى وحده هو الذى يؤتينا ببصيص من النور عنه . ومن أمثال ذلك أننا لا نشعر بالحركات الهائلة للكوكب الذى نحن عليه ، فهو يسبح فى الفضاء بسرعة ١٠٧٠٠٠ كيلومتر فى الساعة ليتم دورته السنوية حول الشمس . ولا نشعر بثقل الهواء علينا مع أن سطح كل جسم إنسانى يحمل منه ما زنته ١٦٠٠٠ كيلوجرام معادلة بمثلها من الضغط الداخلى . وهذا الهواء مخترق بتيارات مختلفة نجهلها كل الجهل . والشمس ترسل لنا على الدوام بإشعاعات مغناطيسية تؤثر عن بعد ١٥٠ مليون كيلومتر على الإبرة المغناطيسية . وحواسنا العادية تشعر بروائح وأصوات وأنوار ، والحقيقة أن ليس فى الكون خارج حواسنا غير حركات صامتة ، فالنور والحرارة والصوت حركات ساكنة . وفى الكون على الدوام ذبذبات أثيرية ، تخترق هذه اللانهاية السماوية فى أثناء الليل ، كما هى وقت الظهيرة ، ولكننا لا نحس بالضوء إلا فى أثناء النهار . ويوجد حولنا من الحركات والذبذبات الأثيرية أو الهوائية ، ومن القوى والأشياء غير المرئية ، مالا نراه ولا نحس به . هذه حقائق علمية مطلقة ، وبداهة لا يمكن النزاع فيها . وعليه فيمكن أن يوجد حولنا أشياء بل كائنات حية ، لا ترى ولا تلمس ، تعجز حواسنا أن تصلنا بها . فإذا تقرر أن حواسنا لا تكشف لنا كل ما هو موجود ، وأنها قد تعطينا شعورات كاذبة أو ضالة عن الكون المحيط بنا ، فلسنا نكون فى شىء من التثبت إن ظننا أن ما نشاهده فى هذا الكون هو كل ما فيه .

نقول بعد هذا كله : إن أعلن رجال من أهل العلم الجديرين بالثقة أن بحثهم قد أداهم من طريق الحس إلى آثار عالم أعلى من عالم الطبيعة ، فبأى حق نرفع عقيرتنا فى وجوههم مكذبين ؟

هذا النزق لا يصدر إلا من رجل جاهل ، يتوهم أن ما يراه هو كل الواقع ، وأن كل ما ليس بموجود لحواسه فليس بموجود .

إن الله قضى أن يحتك الإسلام بالعلم فى عهد أدرك العلم فيه أنه كان مخدوعا بالقشور ، وأن جماهير من أقطابه هدوا إلى عالم ما فوق الطبيعة من طريق التجربة ، فهل تتصور بعد هذا أن الإسلام يصادف من العلم خصما لا يلين ؟

فإذا كنا نلح فى وجوب الاستفادة من هذا الاكتشاف الروحى الجديد فى هدم سلطان المذهب المادى فلسنا بيدع فى ذلك ، فإن أمة مسيحية قد سبقتنا إلى ذلك ، وهى الأمة الإنجليزية ، فقد اجتمع فيها مؤتمر دينى كما ذكرت ذلك المجلة العالمية الفرنسية فى عددها الصادر فى ١٥ يناير سنة ١٩٢١ ، فقالت : « إن مؤتمر الأساقفة الأنجليكانيين اجتمع فى قصر لامبيث من ٥ يوليو إلى ٧ أغسطس من سنة ١٩٢٠ ، وحضره ٢٥٢ من رؤساء الكنيسة منهم مطارنة كنتربورى ويورك وسدنى وكيتاون والهند الغربية وملبورن وإمارة بلاد الغال الخ ، هذا عدا أكثر من مائة أسقف آخرين ، ونظر فى أمر المباحث الروحية ، فاعترف بقيمتها فى مكافحة المادية بنجاح عظيم » .

فإذا كانت الكنيسة المسيحية بعد أن أبلت بلاء عظيما فى مكافحة المباحث النفسية من أول نشوئها قد اضطرت - بعد جهاد نحو ثمانين سنة ضدها - أن تعترف بضرورتها ، وتستعين بها لمكافحة المادية . فهل يهمل أمرها المسلمون ؟ إن هذه المباحث النفسية قد ادخرت لمثل هذه الشبهات ، وقد سخر قيم الوجود العلم الرسمى فى الاشتغال بها على أسلوبه ، لأن ذلك هو الطريق الوحيد للاعتقاد بصحتها .

فإذا بقيت تحديات المذهب المادى قائمة ، ولم تقابل بما يدحضها من الطريق العملى ، ظلت ثابتة قوية ، وظل الدين حيالها ضعيف الحجة ، ليس له من عاصم غير التسليم . ولم نرضى هذا الضيم ، والفرصة أمامنا سانحة للحصول على الدليل المحسوس ، وقد سبقتنا أمة مسيحية إليه ؟

وإذا كانت الكنيسة المسيحية قد اعتدت بالمباحث النفسية ، تفادياً من خطر التحديات الإلحادية ، فقد اعتدت بها أيضا أعظم الجامعات الأوربية ، كجامعتى كمبردج وأكسفورد ، وفاء بحق العلم ؛ ومدا لسلطانه على ما نرى وما لا نرى من هذا الوجود العظيم .

ويقول أميل بوترو من أعضاء المجمع العلمى الفرنسى فى كتابه « تقلب النواميس الطبيعية » : « من الخطأ أن يقال إن النواميس هى التى تدبر الظواهر الطبيعية ، لأنها لم تكن موجودة قبل الكائنات ، ولكن الكائنات هى التى اقتضتها ، وهى لا تبين إلا العلاقات التى تحدث من تأثير طبائع تلك الأشياء بعضها فى بعض ، وهى سابقة فى الوجود على النواميس . والعالم يرينا فى كل مكان ـ بجانب الدوام والاستقرار ، وهو مما يوجب القول باستقرار النواميس ـ حالات أخرى من التغير والارتقاء والانحطاط ، وهى تقتضى القول بتقلبها ، وليس هذا فى النواميس الجزئية فحسب ، ولكن فى النواميس الكلية أيضا . أكان هذا النظام العالى — نظام العالم — مما يمكن أن يوجد ، إذا كان الثبات المطلق هو الناموس السائد فى الكون ، وكان الأصل الذى مؤداه أنه لا يتلاشى شىء ولا يتجدد شىء ، ساريا بدقة على الكائنات ؟ أكانت توجد فى العالم قيم متفاوتة ، أى صفات ومزايا بعضها أسمى من بعض ؟ أكان يوجد ترق وتكمل بين ثمرات قوة واحدة ثابتة لا تتغير ؟ . إن وجود الإنسان ، وهو كائن شاعر بذاته ، لا يمكن تفسيره بمحض فعل النواميس الطبيعية والفيزيولوجية ، فإن وجوده وأعماله تقتضى من الطبيعة إحداث ترقيات لا تستطيع إحداثها . . ويقول وليم كروكس الانجليزى : إن ما نسميه ناموسا طبيعيا هو فى حقيقته وجه من وجوه الاتجاه الذى يعمل على موجبه

شكل من أشكال القوة . فأى ضرب من ضروب الارادة والفكر موجود خلف الحركات الذرية للمادة ليجبرها على اتباع طريق مرسوم لها من قبل ؟ . وأى ازدواج من الإرادة والفكر يقود الحركة الآلية الصرفة للذرات المادية ، خارجا عن النواميس الطبيعية ، بحيث يحملها على هذا العالم الذى نعيش فيه ، ويقول أيضا : متى امتحنا من قرب بعض النتائج العادية للظواهر الطبيعية ، نبدأ بإدراك : إلى أى حد تنحصر هذه النتائج ، أو كما نسميها النواميس ، فى دائرة نواميس أخرى ليس لنا عليها أقل علم . . وهذا كلام صريح من رجل يعتبر من أعلم الناس بالنواميس ، لأنه كيماوى ورياضى معا ، بأن الناموس فى حقيقته لا يعدو كونه وجها من اتجاه قوة تعمل فى التكوين ، لا أنه عامل مستقل ، وأن خلفه إرادة وفكرا هما العاملان الحقيقيان فى الواقع . ويقول إدوار لوروا ، ونقله عنه العلامة الرياضى هنرى بوانكاريه ، مؤيدا له ، فى كتابه قيمة العلم : العلم لم يتألف إلا من تواضع العلماء على أصوله ، وهو لكونه على هذه الحالة يظهر لنا على ما هو عليه من الاستقرار . فالحوادث الطبيعية بل النواميس ليست إلا من مخترعات العلماء أنفسهم . فالعلم لا يستطيع ، وهذه حالته ، أن يكشف لنا عن وجه الحقيقة المطلقة ، وكل ما يرجى منه أن يخدمنا كقاعدة للعمل .

عظمة الإسلام فى تشريعاته :

والتشريعات الإسلامية التى ذكر بعضها فى هذه السورة ، مما هو خاص بالقتال والحروب والغنائم ومعاملة الأسرى ، وعلاقات الدول فى الحرب والسلم ، تشريعات خصبة صالحة لكل زمان ومكان ، ومن الخطأ ما يتصوره بعض الناس من أنها تشريعات جامدة لا تصلح للعصر الحديث ، وحسبكم ما قاله سانتيلانا فى بعض مؤلفاته : إن فى الفقه الاسلامى ما يكفى المسلمين فى تشريعهم المدنى إن لم نقل إن فيه ما يكفى للإنسانية كلها . ونشرت جريدة (وقت) التركية الصادرة فى يوم أول رجب سنة ١٣٤٣ هـ عبارة للأستاذ فهرى

خاطب بها أحد أدباء الأتراك قائلا : إن فقهكم الإسلامى واسع جدا إلى درجة أنى أقضى العجب كلما فكرت فى أنكم لم تستنبطوا منه الأنظمة والأحكام الموافقة لزمانكم وبلادكم . وقديما قال « سولون » المشرع اليونانى القديم كلمة رددتها من بعده الألسنة إلى اليوم : أنا لم أشرع لأهل أثينا شريعة كاملة مصدرها الخيال ، وإنما وضعت لهم قوانين توافق حاجتهم وتلائم استعدادهم . أليست البلاد الإسلامية أولى وأحق بالشريعة الإسلامية ، وهى الشريعة التى أنس بها المسلمون ومازجت أرواحهم مدة ثلاثة عشر قرنا أو تزيد ؟

ولما ألف الدكتور محمود فتحى رسالته «فى مذهب الاعتساف فى استعمال الحق والخروج عن حدود الحق فى غير ماشرع له الحق وذلك عند فقهاء الإسلام» كتب «كهلر» العالم القانونى الألمانى يقول : إن الألمان كانوا يتيهون عجبا على غيرهم فى ابتكار نظرية «الاعتساف» والتشريع لها فى القانون المدنى الألمانى الذى وضع سنة ١٧٨٧ . أما وقد ظهر كتاب الدكتور فتحى وأفاض فى شرح هذا المبدأ عند رجال التشريع الإسلامى ، وأبان أن رجال الفقه الإسلامى تكلموا عنه طويلا ابتداء من القرن الثامن للميلاد ، فإنه يجدر بالعلم القانونى الألمانى أن يترك مجد العمل بهذا المبدأ لأهله الذين عرفوه قبل أن يعرفه الألمان بعشرة قرون . وأهله هم حملة الشريعة الإسلامية . ويقول ليفى أولمان : يجب اعتبار الشريعة الإسلامية فى المعاملات مصدرا حيا للقانون العصرى ، ومناطا للحق فى أدواره المختلفة . ولقد عقد البحاثة الأمريكى «هوكنج» أستاذ الفلسفة بجامعة هارفرد فصلا مستفيضا عن «مصير الثقافة الإسلامية» فى كتابه «روح السياسة العالمية» المطبوع سنة ١٩٣٢ فبعد أن تكلم بإسهاب عن أصول الفقه الإسلامى وعن المذاهب الأربعة ، قال : إن سبيل تقدم الممالك الإسلامية ليس فى اتخاذ الأساليب الغربية التى تدعى أن الدين ليس له أن يقول شيئا عن حياة الفرد اليومية ، وعن القانون والنظم السماوية ، وإنما يجب أن يجد المرء فى الدين مصدرا للنمو والتقدم . وأحيانا يتساءل البعض عما إذا كان نظام الإسلام يستطيع توليد أفكار جديدة وإصدار

أحكام مستقلة تتفق وما تتطلبه الحياة العصرية . فالجواب عن هذه المسألة هو أن فى نظام الإسلام كل استعداد داخلى للنمو ، لا بل إنه من حيث قابليته للتطور يفضل كثيرا من النظم المماثلة ، والصعوبة لم تكن فى وسائل النمو والنهضة فى الشرع الإسلامى ، وإنما فى انعدام الميل إلى استخدامها . وإنى أشعر بكونى على حق حين أقدر أن الشريعة الإسلامية تحتوى بوفرة على جميع المبادىء اللازمة للنهوض .

ويقول شيرل : إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها ، إنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرنا أن يأتى بتشريع سنكون نحن الأوربيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفى سنة .

القرآن وثيقة التحرر والمدنية والحضارة :

يقول الله عز وجل فى هذه السورة الكريمة : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » ، وهنا يخاطب الله عز وجل المؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بثمار إجابة الدعوة ، لأنهم المؤمنون العاملون بها .. ثم نجد لفظة « دعاكم » بدل « دعواكم » لأن دعاء الرسول هو دعاء الله ، ودعاء الرسول المؤمنين لما يحييهم هو دعاؤه لهم إلى الإيمان والعمل بالقرآن الكريم ، دستور الإسلام الخالد ، وكتابه الحكيم ، وفرقانه المبين ، ووثيقة الحرية والإخاء والمساواة التى نزلت من السماء على محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم .

إن القرآن الكريم كتاب الله الخالد ، ودستور الإسلام الإلهى الحكيم ، وهو معجزة محمد الباقية على أمد العصور والدهور ، وهو كتاب الله المعجز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . نزل فى آيات وسور اشتملت على أمور الدين والدنيا ، وانتظمت سعادة الأولى والآخرة ، وكانت هدى ونوراً للبشر كافة ، حيث قضت على الأوهام الباطلة والأساطير الكاذبة والعبادات الضالة ، والأديان المنحرفة ، وأحالت الظلام ضياء والشقاء سعادة ، واليأس أملا ، والضلال هدى ، والهمجية مدنية والجهل علما ومعرفة وثقافة ، نبع من معينها الزاخر كل من رغب فى الخير ،

وطمح إلى السلام والنور ، ونقلت الإنسانية من عصر تسوده الفوضى ، وتنتشر فيه مبادىء الطغيان والعبودية وسفك الدماء ونهب الأموال والأعراض ، إلى حياة فيها رضى وأمن ، وطمأنينة وسلام ، وحرية وعدل وإخاء ، وعمران وحضارة ، وحدود محدودة ، وضعت لسعادة الناس والجماعات والشعوب والإنسانية قاطبة كان الرسول الأعظم ، محمد بن عبد الله صلوات الله عليه ، يتعبد في غار حراء في يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده الكريم ، وسنه أربعون سنة ، وستة أشهر وثمانية أيام ، أي في السادس من شهر أغسطس عام ٦١٠م . فنزل عليه جبريل بالرسالة الإلهية العظمى التي اصطفاه الله من بين الخلق لأدائها للبشر كافة : هدى ونورا وشفاء لما في الصدور . قال جبريل : يامحمد اقرأ ، قال : ماأنا بقارىء ، قال : اقرأ ، قال : ماأنا بقارىء ، قال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » . فكانت أول سورة نزلت من القرآن الكريم . وقد نزل الذكر الحكيم في أسلوب لايضارعه أسلوب ، فلا هو شعر ولاهو سجع ولا هو مزاوجة ولا هو نثر مرسل ولا خطابة . إنما هو نظم رائع وألفاظ عذبة ومعان سامية حصيفة ، وجلال وروعة . جمع بلاغة جميع أساليب البيان ، وفصاحة شتى خصائص النظم ، واستوفى كل عناصر الاعجاز . والمفكرون من الغرب يقفون أمام القرآن الكريم مذهوابين مشدوهين متحيرين ، مقرين بعظمته وجلاله ، وعبقرى أثره على الحياة والانسانية .

يقول الدكتور موريس الفرنسي : « لقد قلقت نفسي ، واضطربت حواسي لقول المسيو رينان : إن القرآن غير فصيح ولا بليغ . إذ لو جاز لامرىء غير مسلم أن يرتاب في صدق القرآن وصحة دعواه ، فلا يجوز له أبدا أن يرتاب في صحة عبارته ، وكونه في الذروة والسنام من الفصاحة والبلاغة ؛ بل لنا أن نقول : إن القرآن أفضل كتاب أخرجته العناية الأزلية لبني البشر . فهو قد تضمن أناشيد لاسعادهم خيرا من أناشيد فلاسفة اليونان ، وقد استوعب بين دفتيه الثناء على مبدع السموات والأرض ، وتمجيد الله سبحانه . إن مزايا

القرآن الأولية ، وأركانه الأساسية ، إنما هى فى صحته وحقيقة مبانيه ، وأنه كتاب لاريب فيه . ويقول هنرى دى كاسترى : لو لم يكن فى القرآن غير بهاء معانيه ، وجمال مبانيه ، لكفى بذلك أن يستولى على الأفكار ، ويأخذ بمجامع القلوب . ولقد نزل على محمد دليلا على صدق رسالته ، وهو لايزال إلى يومنا هذا سرا من الأسرار ، التى يتعذر فك طلاسمها ، ولن يسبر غور هذا السر المكنون ، إلا من يصدق بأنه منزل من الله . وقال جيبون : القرآن مسلم بأنه الدستور الأساسى ، ليس لأصول الدين فحسب ، بل وللأحكام الجنائية والمدنية ، وللشرائع التى عليها مدار حياة النوع الانسانى ، وترتيب شئونه ، وبعبارة أخرى هو القانون العام للعالم الاسلامى ، فهو قانون شامل للقوانين المدنية والتجارية والحربية والقضائية والجنائية ؛ وقال يوروث سميث : من حسن حظ التاريخ أن محمداً أسس فى وقت واحد ثلاثة أشياء من عظائم الأمور ، وجلائل الأعمال . فإنه مؤسس لأمة وامبراطورية وديانة .. ومع أنه أمى فقد أتى بكتاب هو آية فى البلاغة ، ودستور للشرائع وللصلاة والدين فى آن واحد ، فهو كتاب مقدس إلى هذا اليوم عند سدس العالم ، وهو معجزة محمد القوية ، وحقا إنه لمعجزة ، وقال المسيوليون : حسب هذا الكتاب جلالة ومجدا أن الأربعة عشر قرنا التى مرت عليه لم تستطع أن تجفف ـ ولو بعض الشىء ـ من أسلوبه الذى لايزال غضا ، كأن عهده بالوجود أمس . يقول جوستاف لوبون : إن القرآن وما اشتق منه هو إلى الفطرة بحيث يلتئم مع حاجات الشعوب الأولية ، حتى إن قبوله آخذ حكمه على مر الأيام ، لايعوقه عائق . وقال جوته : إن هذا الكتاب سيحافظ على تأثيره إلى الأبد ، لأن تعاليمه عملية مطابقة للحاجات الفكرية ، لقوم معتزين بتقاليدهم ، متمسكين بعاداتهم القديمة . وقال كارليل : إن علوية القرآن فى حقيقته العالية ، فهو حافل بالعدل والإخلاص ، والدعوة التى بلغها محمد إلى العالم حق وحقيقة . ويقول مانويل كنبج من محاضرة له : إذا كان فى عالم الالهام أمر يدعى وحيا ، وكان للوحى وجود كامل ، فلن يشك فى أن القرآن كتاب منزل . وقال سديو فى كتابه «تاريخ بلاد العرب» : القرآن جامع لكل أسس الأخلاق والفلسفة .

وقال الفيلسوف الفرنسى آلكسى لوازون : خلف محمد للعالم كتابا هو آية البلاغة ، وسجل الأخلاق ، وهو كتاب مقدس . وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثا أو المكتشفات الحديثة مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية ، فالانسام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعة . وقال الكاتب الأمريكى واشنطن أيروينج : يحوى القرآن أسمى المبادىء وأكثرها فائدة وإخلاصاً .

ولقد طبع القرآن المسلمين الأولين على مكارم الخلق ، ونبل النفس ، وقوة الإيمان ، وجلال التضحية ، وجمال الإيثار ، وبث فيهم الشعور بالمسئولية ، ونأى بهم عن الرذائل والمنكرات والشبهات ، وسار بهم إلى طاعة الله ومرضاته ، وحبب إليهم العدل والانصاف ، حتى لقد قتل عمر بن الخطاب خليفة المسلمين بيد خائن غادر لئيم ، فتكالب المسلمون على ابن ملجم ، فقال لهم عمر وهو فى الرمق الأخير : أطيبوا طعامه ، وألينوا فراشه ، فإن أعش فأنا ولى دمه ، إما عفوت وإما قصصت ، وإن أمت فألحقوه بى ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين .. فلم يصيخوا لكلامه فنادى فى أهله : يابنى عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون فى دماء المسلمين خوضا ، انظروا إذا أنا مت من ضربته هذه ، فاضربوه ضربة بضربة ، ولا يمثل بالرجل ؛ فإنى سمعت رسول الله يقول: « إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور » .

هكذا كان المسلمون الأولون ؛ ولو وازنت بين ماقاله عمر ، وبين مافعلوه فى أمريكا من القضاء على أربعمائة نفس ، انتقاما من أجل جزيرة حاول اثنان من أهلها قتل ترومان لاستبداد حكامه بأهل الجزيرة ، ولو رأيت ما يفعله الحكام بالمحكومين حين يقتل منهم واحد ، لهالك الفرق بين عدالة الإسلام والشرائع الوضعية الحديثة ، ولقد مجد المؤتمر الدولى الذى اجتمع فى لاهاى منذ أعوام الشريعة الإسلامية التى قامت على أصول القرآن ، وأشاد بفضلها ، فسجل فى قراراته أن الشريعة الإسلامية تحمل العناصر الكافية ، التى تجعلها صالحة للتطور مع حاجات الزمن » .

هدى القرآن الإنسانية كلها بما أذاعه من مبادىء سامية ، حاربت الفوضى والطغيان والوحشية والظلم والرق ، ونشرت فى العالم كله راية الأمان والسلام والإخاء والحرية والمساواة والديمقراطية والتعاون والمحبة بين الناس كافة . . اعترف القرآن للمرأة بحريتها وحقها فى الحياة ومساواتها للرجل فى شئون الدين والمال والحقوق والواجبات ، واعترف بحرية الإنسان وكرامته فى الحياة ، وبحرية الجماعات والأمم والشعوب ، وحارب العصبية وحمية الجاهلية حربا لا هوادة فيها ، وساوى بين الناس كافة ، وجعل الناس إخوة ، تجمعهم صلات قوية فى الله : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » ، وحرم الخمر والزنا والبغى والعدوان والظلم والسرقة ونهب أموال الناس بالباطل ، والمنكرات والرذائل ما ظهر منها وما بطن ، والميتة والدم ولحم الخنزير ، وأعلن حرية الرأى والعقيدة ، « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

ورفع علم الشورى والديمقراطية والتعاون فى خدمة المجتمع والسلام والإنسانية . وحارب الترف الذى هو ألد أعداء الحضارة والتقدم ، والذى سجل بيتان خطره على كيان الأمم بعد هزيمة فرنسا فى الحرب العالمية الثانية بيد الألمان ، فقال : لقد أتت الهزيمة من الانحلال ، فدمرت روح الملذات واللهو ما شيدته روح التضحية . . وقد حافظ الإسلام على كرامة الأسرة وعفاف المرأة وشرفها ، فأقام الأسرة على أسس سليمة قوية لا يعتريها وهن أو انحلال . . . وحث على الإيثار وأن ينصب الفرد نفسه فى خدمة الجماعة . وأتى بأحدث المعارف فى خلق العالم وشئون الاجتماع وقوانين الصحة ، ونظم الاقتصاد وفى السياسة . وحرر الفكر الإنسانى من جموده ، وكشف مجاهل التاريخ وأحداثه ، ووضع أصول المدنية الفاضلة . وحث على العلم والمعرفة وعدم الشرك والوثنية ، والأهواء والأضاليل والأوهام الفاسدة ، والأساطير الكاذبة ، ووضع أصول العبادات والمعاملات الحسنة بين الناس ، وشرع الصلاة والزكاة والصوم والحج ، ودعا إلى الطهارة والنظافة

وجمال المظهر وكمال المخبر . . وبعث الطموح والأمل والحياة فى النفوس الإنسانية ، لتعمل وتكد ، فى سبيل بناء الحضارة وعمران الدنيا . . وغرس الزهد والقناعة وحب الخير والحق والعدل والإنصاف فى كل قلب ، فهل وراء ذلك غاية لطامح ، وأمل لإنسان أو مصلح ؟ حقا إن القرآن دستور الإسلام ، وهادى الإنسانية الأمين ، ومنقذها من الضلال والظلام .

* * *

القرآن الكريم آيات وسور اشتملت على أمور الدين والدنيا وانتظمت سعادة الأولى والآخر ، ونزلت هدى ونور للبشر كافة . وقضت على هذه الأوهام الباطلة ، والأساطير الكاذبة ، والعبادات الضالة ، والأديان المنحرفة ؛ وأحالت الظلام ضياء والشقاء سعادة واليأس أملا ، والضلال هدى ، والهمجية مدنية والجهل ، علما ومعرفة وفنا وأدبا وثقافة ، نهل من معينها الزاخر كل من رغب فى الخير وطمح إلى السلام والنور ؛ ونقلت الإنسانية من عصر تسوده الفوضى وتذاع فيه مبادىء الطغيان والعبودية وسفك الدماء ونهب الأموال والأعراض ، إلى حياة فيها رضى وأمن ، وطمأنينة وسلام ، وحرية وعدل وإخاء ، ومعرفة وعمران وحضارة ، وحدود محدودة وضعت لسعادة الناس والجماعات والشعوب والإنسانية قاطبة . قبس من الهدى والنور ، نزل به جبريل من السماء إلى الأرض ، على سيد الخلق . وأكرم الرسل ، وأشرف من فى الوجود ، محمد صلوات الله عليه . فبلغه الناس ، وبشر بدعوته العرب والبشر كافة ، وأذاع مبادئه فى كل مكان ، فحملت إلى العالم السلام والعدل والحرية ، وفتحت صفحة جديدة فى تاريخ الإنسانية ، وأنقذت الناس من ضلال الجاهلية الأولى . . ألفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة ، وإذا هى لانت فأنفاس الحياة الآخرة ، ومعان بيناهى عذوبة ترويك من ماء البيان ، ورقة تستروح منها نسيم الجنان ، إذا هى بعد ذلك إطباق السحاب ، توهموا السحر ما توهموه ، فلما أنزل الله كتابه قالوا هو السحر المبين ، وتصوروا الشعر ما تصوروه ، فلما سمعوا آياته البينة ، وبلاغته المتدفقة ، ورأوا هدايته النادرة ، وفصاحته الباهرة ، وما فيه من روعة

التصوير ودقة التعبير وشدة التأثير ، قالوا : أى والله إنه لشعر شاعر ، وسحر ساحر ، إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، كلا والقمر . والليل إذا أدبر ، والصبح إذا أسفر ، إنها لإحدى الكبر ، وما هو بقول بشر ، إن هو إلا وحى يوحى ، ومعجزة تتحدى ، وبلاغة تتلى وتروى ، أشرقت بنوره السماء والأرض ، واهتدت بهديه الملائكة والبشر أجمعون .

وقد تم نزول القرآن الكريم قبل وفاة الرسول صلوات الله عليه فى ثلاثة وعشرين عاما ، ما بين بعثته إلى وفاته ، كان فى ثلاث عشرة سنة منها يقيم بمكة ، وطنه الذى ولد وربى ونشأ فيه ، وفى عشر السنين الأخرى يقيم بالمدينة بعد هجرته صلوات الله عليه من مكة ، حيث نشر الدعوة وحماها وأيدها . ومجموع سور القرآن الكريم أربع عشرة ومائة سورة ، منها الطويل والقصير ، ومنها ما نزل فى الموعظة والهداية ، وما نزل فى التوحيد ومحاربة الشرك والأهواء، وما نزل فى التشريع ونظم العبادات والمعاملات وقوانين الأسرة والجماعة والحكومة الإسلامية ، وما نزل فى أمور الآخرة والغيب وشرح تطور الإنسانية وقصص الأمم الماضية وبغيها ومصيرها المحتوم ، أو نزل فى شرح أسرار الوجود ومظاهر الغيب وأمور الآخرة . وتشتمل السور على كثير من هذه الأغراض الموحدة . . والسور قسمان : مكى ومدنى . . فالمكى منها على أرجح الآراء هو ما نزل قبل الهجرة ، والمدنى ما نزل بعدها[1] والسور المدنية اثنتان وعشرون سورة تبلغ نحو ثلث القرآن الكريم وهى : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة والنور والأحزاب والقتال والفتح والحجرات والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون

---

(١) راجع ١٣/١ الإتقان للسيوطى ، وقيل : المكى ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة والمدنى ما نزل بالمدينة . وقيل : المكى ما كان خطابا لأهل مكة ، والمدنى ما كان خطابا لأهل المدينة (١٣ و ١٤ / ١ الإتقان) . هذا وتسمى السورة مكية إذا كان أغلبها مكيا وتسمى مدنية إذا كان أكثرها مدنيا .

والتغابن والطلاق والتحريم والعصر . . . وما عدا هـذه السور وهى اثنتان وتسعون سورة فهو مكى .

وأظهر موضوعات السور المـكية هى :

١ — الدعوة إلى توحيد الله ومحاربة الشرك والأوثان .

٢ — تأييد رسالة محمد صلوات الله عليـه وتحدى العرب بهذه المعجزة الخارقة ، ألا وهى القرآن الـكريم .

٣ — إثبات البعث والحساب والنشور واليوم الآخر ، والرد على من ينكر ذلك فى إفاضة وقوة حجة وتأثير .

٤ — قص قصص الأمم القديمة وعنادها وحجاجها مع الرسل والأنبياء ، وإصرارها على الضـلال ، وما حل بها من المثلات ، تبصرة وذكرى لقوم يؤمنون .

٥ — محاربة التقليد ودعوة العقل البشرى إلى الاستقلال بالتفـكير واتباع الحق من العقائد والطاعات ، ونبذ الأوهام والأساطير والخرافات ، والتفكير فى نواميس الله فى الـكون .

وأما أهم موضوعات السور المدنية فهى :

١ — تشريع النظم والقوانين للفرد والأسرة والجماعة والأمة ، لتسير الإنسانية إلى حياة كريمة مهذبة ، تليق بكرامة الإنسان خليفة الله فى الأرض ، إلى الفضيلة والخير والعدل والحق والأمن والسلم والعمران والحضارة .

٢ — الدعوة إلى الفضائل ومحاربة الرذائل بكل سلاح وكل وسيلة .

٣ — تقرير وحدة الإنسانية والأخوة البشرية العامة وتعزيز الصلات الإجتماعية بين الإنسان والإنسان ، وإلغاء الفروق بين الطباقات والجماعات

والشعوب ، ورفع كرامة الإنسان وإيضاح رسالته ورسم الأهداف الكريمة التى يجب أن يسير إليها ويعمل لها فى الحياة .

٤ — وضع شرائع الحرب والسلام ، التى تسير مع الإنسانية العالمية ، وتوافق مصالح البشر فى الحياة الدنيا على اختلاف الزمان والمكان .

وعلى العموم فالسور المدنية احتوت على أكثر التشريع الإسلامى وأودعت أعظم الآداب الإجتماعية والسياسية ، التى تؤلف القلوب ، وتحوط الملك وتصون الشعوب ، وقصارى الكلام أن القرآن كتاب هدايه ونور ودين ودنيا وخير عام ، وهو دستور الإنسانية المهذبة ، ووثيقة الحرية والمساواة والإخاء ، التى نالها الإنسان على طول الأيام والأحقاب .

والقرآن الكريم رسالة محمد صلوات الله عليه ، وهى رسالة جديدة حقا، غيرت مجرى التاريخ ، وبدلت نظام الحياة ، وسمت بالإنسانية التى كان يهوى بها الجهل والفاقة والذل والاستبداد ، وارتفعت بكرامة الفرد والمجتمع والأمم إلى المكان اللائق بها ، حيث السمو فى العقيدة والعظمة فى النظام وروح الجماعة ، ووأدت الكثير من المبادىء الضالة الضارة ، سواء فى العقيدة أم فى التفكير أم فى الاجتماع ؛ وبعثت شعوراً جديداً فى العالم كافة ، يقوم على إيمان وطيد بمبادىء الحق والعدالة والحرية والمساواة والأخوة العامة والزمالة الإنسانية المشتركة؛ وقادت العالم إلى مجالى الطهر والفضيلة؛ والشرف والكرامة والصفاء الروحى ، والطمأنينة النفسية ، والثقة بأن الانسان خليفة الله فى الأرض ، وأن عليه واجبا أدبيا محتوما : أن ينشر الأمن والسلام والحب والرحمة والتعاون والاحسان بين الناس جميعا ، وأن يعمل على النهوض بالحياة والبشرية ، ليسعد الفرد ، وتحيا الجماعة ، وترقى الأمة وتتقدم الانسانية ، لأنه مسئول عن ذلك كله أمام ضميره وأمام خالق الأرض والسموات ، وما تكون هذه الرسالة غير رسالة محمد صلوات الله عليه ، رسالة الايمان ، ودعوة القرآن التى أشرقت بنورها الأرض ، واهتزت لعظمتها السماء ، وكانت حدا فاصلا بين عهود بغيضة من الهمجية والوحشية والظلام والاستعباد ، وعصور كريمة

سمتها الايمان والعلم والحضارة ، وتقديس كل ما هو حق وخير وجميل ؟

لقد كان بدء نزول هذه الرسالة حدثا تاريخيا عالميادوى صداه فى الآفاق ، فبدأ نزول القرآن منذ نحو أربعة عشر قرنا ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، نزول للتحرير الانسانى العام . فقد حرر الانسان من الأوهام ، والجماعة من الهوان والذلة والاضطهاد وبطش الطغاة ، والبشرية من الخرافات والضلالات والجمود ، ومعاداة النظام وكراهية التقدم ، ومحاربة الفضائل والأخلاق الكريمة .

وأخذت روح الفردية تتضاءل لتخلفها روح الجماعة ، ومبادىء الطغيان الدينى والاجتماعى والمادى تتلاشى لتقوم على أشلائها مبادىء الايمان بالعدالة والمساواة ، وحريات الناس وكرامتهم ، فانتهى إلى غير رجعة عهد الكهان والمتكهنين ، وعهد الضلال والمضللين وانقضت التقاليد المرذولة التى كانت تحل الخمر والميسر والربا ، وترى القتل والاسراف فى الثأر عملا مجيدا ، وتبيح وأد البنات وعقوق الأمهات وارتكاب المنكرات ، وتنظر إلى الظلم والغش ونقض العهود ، وإلى النفاق والرياء والوشاية والنميمة والافساد بين الناس كأنها أعمال مألوفة معروفة .. وبدأت الدعوة تسرى إلى الآفاق ، فارتمت فى أحضانها الناس والجماعات والأمم ، واكتسح أبطال هذه الدعوة الحصون والمعاقل والممالك ، ونشروا راية الاسلام والسلام فى شتى الأرجاء والبقاع ، وبدأت مواكب الحضارة والعلوم والفنون والآداب تسير ، ويسير وراءها الخير والرفاهية والمجد والعزة والعظمة للإسلام والمسلمين وللناس كافة .

رسالة جديدة هى رسالة الايمان والروح والإنسانية الكريمة .. فلينهض قادتها ودعاتها لنشرها من جديد ، بعد أن شقيت الحياة والأحياء برسالات الكفر والطغيان والاستعمار ، والجشع المادى الذى بعث الفوضى ، وقضى على النظام والأمن والسلام ، وأشعل الحرب فى الأرض ، وأورث العدوان بين الأمم « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد » .

وفى القرآن الكريم دعوات عالية ، وأحكام مثلى لتخليص الإنسانية من الشرك والظلم والاستبداد والطغيان ، إذ يقول الله تعالى فى كتابه الحكيم: « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » ، ويصور القرآن الطغاة المفسدين فى الأرض تصويرا صادقا فيقول : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويشهد الله على مافى قلبه ، وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد ، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم ، فحسبه جهنم ولبئس المهاد » .. ويدعو إلى أخوة الجماعات الانسانية لتعيش فى ظلال السلام والوئام ، فيقول : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » ، ويؤكد أخوة المؤمنين فيقول : « إنما المؤمنون إخوة » ، ويطالب بالوفاء بالعهد واحترام الحقوق والجنوح إلى السلام ، إلا إذا نكث غير المسلمين عهدهم فيقاتلون ويشردون فى الأرض : « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر ، إنهم لا أيمان لهم ، لعلهم ينتهون » .. ولم يحارب الرسول اليهود فى خيبر وغيرها إلا لأنهم خانوا عهده ، وأرادوا قتله ، وحزبوا الأحزاب عليه . وكان الرسول صلوات الله عليه مثلا أعلى فى المحافظة على حريات الناس وحمايتها ، وكان يأمر عماله باحترام حقوق الناس فى الحياة والأمن والكرامة ، ولو كانوا مخالفين لهم فى الدين ، حتى قال صلوات الله عليه : « من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة » .

لقد قامت على مبادىء الاسلام دولة عظيمة ، ونمت على أساسها حضارة مشرقة هى نواة الحضارة الأوربية الحديثة ، ولها الفضل كل الفضل فى نقل حضارات الأمم القديمة إلى العالم الحديث . ولولا جهود المفكرين المسلمين لضاعت آثار المدنيات والحضارات القديمة وعلومها ومعارفها. قامت هذه

الدولة وتلك الحضارة ، على المعرفة والحرية ، وعلى الديمقراطيـة النبيلة التى بلغت على يد الفاروق عمر بن الخطاب أسمى ما تبلغه الانسانية الراقية ، وقامت على تقديس حرية الفكر ... ومبادىء محمد ودعوته ورسالته ما هى إلا صدى لهذا الدستور الخالد ، والكتاب الحى الباقى : « القرآن الكريم » . وتقرأ فى القرآن فتجد حربا لا هوادة فيها على الشرك والوثنية . وتحرير العقل الانسانى من أوهام التعصب والجمود والضلال ، وتجد إيمانا لا يشوبه شك بقيمة المعرفة والثقافة . وغرسا للفضائل الانسانية والمثل العليا فى نفوس الناس كافة . ومحاربة الرذائل والمنكرات والشرور والآثام والفوضى الاجتماعية فى كل شىء وكل ناحية ، وتجد أول هدف له هو نشر التعاون بين البشر جميعاً ، فلا فرق بين جنس وجنس ، ولا فضل لأمة على أمة أو قبيلة على قبيلة ، أو إنسان على إنسان ، إلا بالأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة ، وتقوى الله وطاعته « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وهكذا قبر الاسلام ورسوله الجمود والتعصب القبلى والوطنى المحدود ، وأحل محل ذلك الانسانية والعالمية بأوسع معانيها ، ولقد بدأت أوربا بعد أن ضلت الطريق تعمل لهذه الغاية التى عمل لها الاسلام منذ أربعة عشر قرنا من الزمان .

وهكذا غرس محمدا صلوات الله عليه بيديه الكريمتين شجرة الحرية والتعاون والانسانية والمساواة والاخاء ، ووضع أساس حضارة روحية من أعظم الحضارات التى شهدها التاريخ وعاش فى ظلها العالم أجيالا وقرونا ، ينعمون بعدلها وحكمها ، ويشاهدون آثارها الخالدة فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والآداب والفنون . وهل الحضارة إلا آثار الرقى الانسانى ومظاهر التقدم البشرى فى شتى نواحى الحياة ؟ وإذا قست ذلك بآثار محمد ورسالته فى الحياة على الناس والانسانية كافة ، وجدت أياديه العظيمة ، لا يكاد يعيها العد ، ويبهت الفكر حين يجد أن هذا النبى الأمى العربى قد بدل سير التاريخ ، وحول مجرى الحضارة ، ويقف العقل والبيان حائرين لا يدريان

وكيف يشكران فضل هذا الرسول العظيم ؟ ولا تجد دينا يدعو إلى الأهداف الكريمة ، والغايات السامية ، والأغراض الشريفة ، والمثل العليا ، مثل دين الاسلام وشريعة محمد خاتم الرسل عليه السلام ، ولا عجب فالاسلام دين البشرية الخالد ، وخلاصة المثل الانسانية العالية ، وعقيدة الفكر الحر ، التى ترنو إليها البشرية ، وتهدف نحوها الحياة ، وتتلاقى مع أصول الحضارات والمذاهب الحقة ، وتجتمع مع شتى تيارات التفكير الحديث المنزه عن الهوى والغرض .

ولقد جاء الاسلام والعالم يعيش فى ظلام دامس ، وجهل مطبق ، ونظم عتيقة فاسدة وعقائد محرفة مضللة . فبدل ظلام الحياة نورا ، والجهل ثقافة وعلما وعرفانا ، ومحا تلك النظم البالية ، والتقاليد الباطلة الزائفة ، وجاء بأصول اجتماعية وإنسانية هى أسمى ما عرف فى الأديان والمذاهب من مقومات وعناصر . دعا إلى عقيدة تجمع بين أصول العقائد والأديان السماوية الصحيحة ، وتسير بالانسان إلى حياة مهذبة كريمة ، توفق بين المادة والروح ، والدين والدنيا ، والأولى والآخرة . وجه الاسلام الناس جميعا إلى عبادة إله واحد لا شريك له ، له مقاليد السموات والأرض ، يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، والأرض جميعا فى قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه . وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم مافى البر والبحر . كما دعا الناس إلى دين واحد ، يصدق به العقل والروح ، ويجمع بين خيرى الدنيا والآخرة ويرشد إلى أمثل مافى الحياة من عدالة وخير ورحمة . وجمعهم على كتاب واحدة ، ودستور خالد ، هو القرآن ، كتاب الله العظيم . . وعلى رسالة واحد ، هى رسالة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، وهى الرسالة التى تتفق مع دعوات الأنبياء ، وشرائع المرسلين « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » . . فلم لا يكون الاسلام بذلك كله مثلا أعلى فى العقيدة والايمان .

وسن الاسلام القوانين الصالحة لكل العصور والجماعات ، والكفيلة برقى الفرد والأسرة وتقدم المجتمع والأمة والانسانية ، على نحو يرضاه العقل؟ ويطمئن إليه القلب والوجدان . فلم لا يكون بذلك الداعى إلى المثل الأعلى فى النظام والتشريع .

وحارب الإسلام العصبيات وأفكار الجاهلية الأولى ، التى تفضل جنساً على جنس أو جماعة على جماعة ، أو فردا على فرد . يقول الله عز وجل : « إنما المؤمنون إخوة » ويقول رسوله صلوات الله وسلامه عليه : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » . حاربها الاسلام لأنها تنادى بالتنابز والبغضاء ، وتفرق بين الناس وقد جمعهم أصل واحد : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

محا الاسلام ما كان بين الطبقات من تلك الفوارق الاجتماعية الواسعة ، التى كثيراً ما تستند إلى الحسب أو الجاه أو المال ، وجعل الفقير أخا للغنى ، والغنى أخا للفقير ودعا الأغنياء إلى البذل والجود والاحسان وأداء الزكاة وإنفاق المال فى كل حق وخير ومعروف . كما دعا الفقراء إلى الأمانة والعمل والزهد والقناعة والرضا بما قسم الله ، « أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون . فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون » . وقرر أن المال فى أيدى الأغنياء إنما هو مال الله استخلفهم فيه ، « آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » . وما ينفقونه على الفقراء من مال إنما هو قرض لهم عند الله يجزيهم عليه خيراً وثوابا كبيرا ، « وأنفقوا خيرا لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم . والله غفور حليم » . فكيف لا يكون الاسلام بذلك كله دينا عاما هو المثل الأعلى فى الاجتماع والروح الانسانى الكريم .

والأصول الأولى فى الاسلام تدعو إلى الحق والخير والعدل والمساواة

والحرية ، وإلى التعاون والوحدة والشورى ، وإلى الأخوة العامة ، والزمالة البشرية ، والحضارة والرقى والثقافة ، وإلى محاربة الأهواء والتقاليد الضارة ، وإلى المحافظة على الشرف والكرامة وروح الانسانية فى الفرد والجماعة والأمة . كما تدعو إلى السلام ، وإلى أن يقوم هذا السلام على الحق ، وفى سبيل خدمة المثل العليا التى يدعو إليها الاسلام وهى فوق ذلك فطرة الله التى فطر الناس عليها . « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ؟ » وحسبك أنها تقوم على رعاية شئون الدنيا وأمور الآخرة « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة . ولا تنس نصيبك من الدنيا . وأحسن كما أحسن الله إليك . ولا تبغ الفساد فى الأرض . إن الله لا يحب المفسدين » . إلى غير ذلك من الأهداف والمثل التى يجمعها ويدعو إليها الاسلام وكتابه الكريم .

وبعد، فقد حرر الإسلام الإنسان من الوهم والتقليد والجمود والجهل والفاقة والاضطهاد والاستبداد .. وحرر المرأة من استبداد الرجل : فجعل لها حقها فى الحياة وسواها به فى الحقوق والواجبات المشروعة ، واعترف بأهليتها للتصرف والتملك وتدبير شؤون المنزل والأسرة ؛ والمساهمة فى أعمال الخير والبر والطاعات ، وفى شتى النواحى الاجتماعية التى لاغنى للمجتمع عن نشاط المرأة فيها . وحرر الطبقات من طغيان العصبيات والثروة والحسب . وحرر المجتمعات من الخرافات والأضاليل وأوهام الكهان والمتزعمين ، وحرر الأمم فجعل أمرها شورى بينها ، وساسها بالعدل والقسطاس المستقيم ، وبالرحمة والإيثار وحب الخير العام ومصلحة الجماعة المشتركة والشعور الصحيح بالمسئوليات ، وقضى على الرذائل والمنكرات والشهوات التى تضعف الروح، وتهدم البنيان ، وتفسد نزعات الخير ، وتقف بالجماعة عن السير والنضال فى الحياة .. وحرر الإنسانية عامة من ربقة الجهل والوحشية والتأخر والفوضى والاثرة ، ومن جموح الشهوات ، وتقديس الماديات ، والجنوح إلى الشر والفساد فى الأرض ، ومن التقليد الضار ، والايمان بما كان يؤمن به الآباء

والأجداد دون تحكيم للعقل ، أووزن للأموز بميزان التفكير السليم .. ورفع مع ذلك كله الانسان ومكانته فى الحياة ، فجعله خليفة الله فى الأرض ، ودعاه إلى أن يسير إلى أمثل ما فى الحياة من حق وخير وسمو ، وإلى أن يعمل على تقدم الحياة الانسانية بأوسع معانيها .

ولقد أتت الروحية الاسلامية الأولى بالمعجزات : فى الاجتماع والسياسة ، وفى الأدب والعلم والفن ، وفى التفكير والتنظيم ، وفى شتى نواحى الحياة والحضارة ، ومن أولى بذلك من الإسلام ، دين الله ، وشريعة رسوله صلوات الله عليه . ودستوره القرآن ، ومنطقه العقل والحجة والبرهان ، وأساسه الفضيلة والإيثار والخير وروح الجماعة والإنسانية العالية ، والتجرد من الأوهام والرذائل والمادية القاتلة ، ومن كل ماهو منكر وقبيح وباطل . فما أروع الاسلام وما أجل شريعة تقوم على هذه المبادىء المثلى . وتدعو إليها ، وتدفع البشر والبشرية نحوها ! .

هذه هى دعوة القرآن الكريم التى دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الإنسانية كافة ، والتى دعا إليها المؤمنين ليعملوا بها ، لأن فيها حياتهم وتقدمهم ونهضتهم وحريتهم وكرامتهم ومجدهم ، وقد عمل بها المسلمون الأولون ، فكسبوا المجد والعزة والسيادة ، وما أجدرنا اليوم بأن نفىء إلى ظلها الظليل ، ونؤمن قولا وعملا بمبادئها السامية ، ليرشدنا الله إلى الخير والحق والقوة فى طريق الحياة الشاق .

خاتمة هذا الجزء

(١)

هذا هو الجزء العاشر ، الذى تحدثنا فيه عن سورة الأنفال حديثا طويلا مفصلا ، وسوف يتلوه الجزء الحادى عشر ، وسيكون فى تفسير سورة التوبة . . وليس لنا من غرض إلا استجلاء حقائق القرآن الكريم وأصوله ، واستنباط المبادىء والمثل التى قامت عليها عقيدة الإسلام ديننا الخالد الكريم.

ولقد فتح الاسلام صفحة جديدة فى تاريخ البشرية ، وكتب سفرا خالدا حافلا بأروع جهاد عرفته الانسانية وبأعظم دعوة وصلت إلى الأرض من السماء . وأكبر ثورة لم يعرف التاريخ لها مثيلا . ثورة على الجمود البشرى واضطهاد الانسان لأخيه الانسان ، واستعباد القوى للضعيف ، ثورة أنقذت العالم من حياته الذليلة البدائية ، وأحالت ظلام الحياة نورا ، وخوفها أمنا وسلاما ، وظلمها عدلا وإنصافا وحرية، مما شهد به أفذاذ المفكرين والمؤرخين؛ ودعاة الاصلاح . ومن أولى من محمد بن عبد الله صلوات الله عليه بأن يرفع فى العالم منارة السلام ، وراية المدنية ، وأن يصل الأرض بالسماء . ويسعى بالإنسان ليبلغ ما كان ينتظره من حياة زاهرة ، وحرية نادرة ، وحضارة باهرة ، فيها الأمن والأمل والاطمئنان والرجاء ؟ . لقد كانت رسالة محمد صلوات الله عليه ، أول إعلان عالمى لحقوق الإنسان ، وأكبر حركة لتأييد كرامته وشخصيته فى الحياة ، وإصلاحا شمل جميع ميادين الاصلاح . صلوات الله عليه ، ورفعه إلى أعلى عليين ، وأكرمه فى أمته كما أكرم أمته به . إنه على ما يشاء قدير .

جاء الاسلام والعرب قبائل موزعة ، وأحياء متخاصمة ، لا يجمعهم دين ولا سلطان ولا شريعة اجتماعية عادلة منظمة . فبدلهم من ذلك كله نظاما موحدا ، وحياة كريمة مهذبة ، فى الاجتماع والسياسة ، وفى الدين والدنيا . واعترف

الاسلام للإنسان : بحريته ، واستقلاله الفكرى والاجتماعى والمالى ، وجعله حرا طليقا من كل قيد ؛ إلا من الخضوع لدين الله ؛ وللحاكم الأعلى الذى يحكم بشريعة الله ، ويسهر على حفظ الأمن والنظام بين الناس فرفع بذلك من كرامة الانسان ومعنويته ، وجعله خليفة له فى الأرض يعمرها ، ويمحو منها الظلام والفوضى والجهل والجمود ، بما وهبه الله من عقل ، وما حث عليه من العلم والعمران والاخاء ، التى هى أسباب وثيقة للمدنية والحضارة . ولايزال الاسلام كما كان وكما صوره أبو سفيان بن حرب عدوه اللدود حين سأله هرقل عن دعوة محمد فقال : « يقول اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف وصلة الرحم » ولم يكن رسوله الأكبر زعيما دينيا متعصبا ، بل كان ملكا رحيما بالناس والحياة ، فأنقذ البشرية ودعا إلى تحررها وتجديدها ، وكان كما يقول حتى خصومه فى وصفه : « يصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويكسب المعدوم ، ويعين على نوائب الدهر » .

(٢٠)

هذا هو الاسلام ، وهذه هى دعوات كتابه الحكيم ، الذى نزل من السماء على خاتم الأنبياء ، محمد صلى الله عليه وسلم ، هاديا موجها ، وبشيرا ونذيرا للإنسانية كلها .

ولقد كان القرآن فى كل عصر معجزة المعجزات ، وكان هو الذى يبهر المشركين ويحاجهم ويخرسهم ، وكان هو الذى يدعو الناس إلى الدين الجديد وينطق بالحجة عليهم . فهذا الوليد بن المغيرة يمر بالنبى صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ القرآن فيأتى قومه ويقول : « قد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه » . فقالت قريش : صبأ الوليد . فقال ابن أخيه أبو جهل : أنا أكفيكموه . فقعد إليه حزينا وكلمه بما أحماه فما كان من الوليد إلا أن قام وناداهم فقال : « تزعمون أن محمدا شاعر ، فهل رأيتموه

يتعاطى شعرا ؟ فقالوا : لا ، فقال : ما هو إلا ساحر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ » ففرحوا بقوله بعد أن كانوا غاضبين وتفرقوا عنه معجبين بعد أن كانوا عليه ساخطين . ولكن قريشاً لم تهدأ لها ثائرة ، وخشيت هذا السحر الحلال الذى ينفذ إلى أعماق القلوب ، فأخذوا يجتمعون ويتشاورون فيما يفعلون إزاء هذا السيل الجارف الذى لا قبل لهم به . فعن لهم أن ينتدبوا أحد كبرائهم عتبة بن ربيعة ليذهب إلى محمد يغريه بمختلف العروض ، فقال له : « يا ابن أخى . إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تريد به شرفا ، سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك . وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا . وإن كان هذا الوحى الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه » . حتى إذا فرغ عتبة من عروضه لم يجد محمد ردا أبلغ من أن يوجه إليه سيفه البتار وحجته التى لا تضارع، فسلط عليه جبروت القرآن الذى يحطم كل ما يعترضه فتلا: بسم الله الرحمن الرحيم « حم : تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ، بشيرا ونذيرا ، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ، قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين » . ثم استمر يتلو من سورة فصلت حتى إذا انتهى إلى قوله تبارك وتعالى « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » سجد لربه سجودا طويلا ، ثم رفع رأسه واستوى فى مجلسه وأخذ يكمل السورة ، فلما وصل إلى « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » أمسك عتبة على فيه وناشده الرحم، وما إن فرغ من السورة حتى نظر إلى عتبة فإذا هو ملق يديه وراء ظهره يصغى فى هدوء ، وقد بلغت الآيات من نفسه مبلغا عظيما، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « سمعت يا أبا الوليد »؟

قال : أنت وذاك . وصمت عتبة وذهب مطرقا برأسه يغمره جلال وتحتويه هيبة ، حتى إذا أتى قريشا قالوا : « ما وراءك يا أبا الوليد » فتحقق حدسهم وصدقت فراستهم حينما قالوا لبعضهم البعض وقد رأوا عتبة قادما : « نحلف بالله لقد جاءنا أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به » قال أبو الوليد : سمعت قولا ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ؛ فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . فبهتت قريش وقالت : « سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه » فرد عليهم « هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم » .

وهذا النضر محدث القوم يتطوع فيحدثهم ، فيعرض عنه الناس وتصم دونه الآذان . وهكذا هزمت قريش ، ولكن قريشاً أبت أن تقر بالهزيمة « فلنمتنع عن سماع القرآن » .. وتعاهدوا على ذلك ولكنهم أيضاً فشلوا . إذ لا مندوحة لمن يسمعه مرة من أن يحن إلى استماعه مراراً ؛ فهؤلاء قوم منهم يسترقون السمع دونهم فرقاً وخشية حتى كبراؤهم والمحرضون الأولون لهم : أبو جهل وأبو سفيان والأخنس بن شريق . كانوا يفعلون ما يفعله الآخرون ، يستخفون ليسمعوا ، ولقد ظلوا كذلك ثلاث ليال متتابعة يستمعون حتى الفجر ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا ، وظلوا كذلك حتى تعاهدوا آخر ليلة ألا يعودوا ..

وهذا عمر بن الخطاب الذى كان من أشد قريش غلظة على رسول الله وأتباعه ، قد خرج يوما متوشحا بسيفه يريد رسول الله ورهطا من أصحابه الذين تخلفوا معه بمكة ليقتل محمدا عليه الصلاة والسلام : هذا الصابىء الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها ، فلقيه نعيم بن عبد الله فسأله أين يذهب فقال : لأقتل محمداً ، فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ، أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأى أهل بيتى ؟ قال :

زوج أختك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما . رجع عمر مغضبا وقصد بيت أخته وقرع الباب فقيل : من هذا ؟ قال : ابن الخطاب . ففزع من فى البيت خاصة وأنه كان بيدهم صحيفة فيها سورة طه يقرؤها خباب بن الأرث لسعيد وفاطمة ، فاختفى خباب ، وأخفت فاطمة الصحيفة تحت فخذها حتى إذا دخل ابن الخطاب قال : ما هذه الهيمنة التى سمعت ؟ قالا له : ما سمعت شيئا ، قال : بلى والله ، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه ، وبطش بختنه سعيد ابن زيد فقامت إليه أخته لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك . فقال عمر لأخته : أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرؤونها آنفاً أنظر ما هذا الذى جاء به محمد ، فأخذت أخته منه ميثاقا أن لا يتلفها وناولته الصحيفة فإذا فيها : بسم الله الرحمن الرحيم : « طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لمن يخشى » فقال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ، وعندئذ خرج إليه خباب لما أنس تحوله بالقرآن من الغلظة إلى اللين ، ولما أحس منه الايمان ، فسأله عمر أن يدله على مكان محمد صلى الله عليه وسلم ، فقصد توا إلى أعدى أعدائه ينطق بالشهادتين خاشعا ، وصار للإسلام أعز نصير ، لايعرف فى الحق لومة لائم . ولا يخشى أو يرهب أحداً

(٣)

ويلاحظ أننا حين تكلمنا عن الأصول الحضارية التى تشتمل عليها سورة الأنفال ، كنا موجزين غاية الإيجاز ، ولم نتناول إلا القليل جدا من النظريات العامة ، ولو أننا كنا قد تناولنا بالتفصيل والإبانة كل مااشتملت عليه السورة من أصول حضارية لما وسعتنا مئات الصحف ، ومع ذلك فإن هذا يكفينا فى ذلك المقام ..

وفى ختام هذا الجزء نثبت هذا التسبيح الذى ناجى به المرحوم الشاعر محمد الأسمر الذات العلية ، وهو منشور فى عدد رجب ١٣٥٤ هـ من مجلة الأزهر ، وهذا

هو التسبيح : «تعاليت يارب ماأجلك ! خلقت الخلق ، وأجريت الرزق . بك ينموالزرع ويدرالضرع . سبحانك اللهم ماأوسع ملكك ، وماأعظم سلطانك السماء والأرض لك ، والملائكة الأطهار جندك ، والملوك المتوجون عبيدك . تباركت وتعاليت ، صنعت فأعجزت ، وصورت فأحسنت ، الجن والإنس خلقك والجسم والروح عملك . لاإله إلا أنت ، منحتنا بصائر لاتنكرك ، وأبصارا لاتدركك . يسبح الرعد بحمدك ، ويترنم الطائر بمجدك . البحار لاتقر من خشيتك ، والجبال جامدة من هيبتك . ولقد جرى النسيم بلطفك ، وتقلب كل مخلوق فى رحمتك . تباركت تباركت ! لا أول قبلك ، ولا آخر بعدك ، كيف تخفى والشمس بعض بيناتك ؟ وكيف تدرك والروح بعض أسرارك ؟! فأنت الأول والآخر ، والظاهر والباطن . تعاليت تعاليت ! آمن بك المؤمن ولم يرك ، وجحدك الجاحد ووجوده شاهد بوجودك !!. سبحانك سبحانك ! بهرتنا آلاؤك ، وغاب عنا لألاؤك . ماء وحجر ، وأرض وقمر ، وزاحف وطائر ، وصادح وباغم ، وأنبت لنا من الأرض عجبا : نخيلا وأشجارا ، وأزاهير وثمارا . رب : من أين للورد شذاه ؟! ومن أين للغصن عوده ولحاه ؟! ومن أين للثمار طعومها المختلفة وأشكالها المتباينة ؟! من أين كل هذا يارب ؟! سائغ وغير سائغ ، وناصع وفاقع ، تباركت مخرج الخضراء من الغبراء ، وخالق العجب من طين وماء ! سبحانك سبحانك ! جلت عظمتك ، أعجزت الإنسان بالجبال والتمال ، بل أعجزت الإنسان بذات الانسان ، عظم ولحم ، وعروق ودم ، وظفر وشعر . وسمع وبصر ، قلت للسان ذق ، وهو فلذة لحم ، فذاق ، وقلت للعين أبصرى فأبصرت وهى ماء . سبحانك اللهم وهذا القلب الخافق بم يخفق ؟! أشهد أن لاإله إلا أنت ، عجزت عقولنا عن الاحاطة ببعض ماخلقت ، فكيف تحيط بك ؟ ! سبحانك اللهم سبحانك ! هذه دنياك فكيف آخرتك ؟! وهذا شأن آثارك ، فكيف شأنك ؟! تقدست من إله صدق ، وتعاليت من رب حق !»

وإنى لأبتهل إلى الله عز وجل ، أسأله التوفيق ، وأطلب منه الهداية والسداد ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب ؟

المؤلف

فهرست الجزء العاشر

للمؤلف

قصة الأدب فى مصر ـ ٥ أجزاء

« « المعاصر ـ ٤ «

ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان ـ طبعة ثانية ٨٠٠ صفحة

الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى ـ طبعة ثانية ٥١٠ «

الشعر والتجديد

مواكب الحرية فى مصر الاسلامية

فى ظلال الاسلام ـ بالاشتراك

التراث الروحى للتصوف الاسلامى فى مصر

تفسير القرآن الحكيم ـ ٣٠ جزءاً

بين الشيوعية والاسلام